

العالم الإسلامي

في أوائل القرن العشرين

تأليف: عبد الرشيد ابراهيم

ترجمة: أحمد فؤاد متولي   هويدا محمد فهمي



المجلس الأعلى للثقافة

69

المشروع القومى للترجمة

العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين

(مسلمو تركستان وسيبيريا ومنغوليا ومنشوريا)

تأليف الرحالة التترى : **عبد الرشيد إبراهيم**

تقديم وترجمة وتعليق

د. أحمد فؤاد متولى

د. هويدا محمد فهمى



١٩٩٨

هذه ترجمة لكتاب

عبدالرشيد إبراهيم



تركستان - سبريا - مغولستان - مانجوريا

استانبول : أحمد ساقى بك - مطبعة سى

١٣٢٨

مقدمة الترجمة

استرعى انتباه أستاذى الدكتور أحمد فؤاد متولى عمل إسلامى هام ومفيد هو كتاب : العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين (مسلمو تركستان وسيبيريا ومنغوليا ومنشوريا) ، فأراد أن يخرج هذا العمل إلى النور فى ترجمة أدبية ملتزمة بالنص الأصلى مع الحفاظ على المعانى القيمة والمعلومات الغزيرة التى وردت فى الكتاب ، كى يطلع أبناء العربية ومن يعرفون لغة الضاد على أثر قيم كهذا ، يمس شغاف القلوب ويأخذ بالعواطف والألباب ، فى هذه الحقبة من الزمان التى تشكل منعطفا هاما فى حياة الشعوب التى مر بديارها المؤلف وقابل المسلمين فيها وزار منشآتها الإسلامية والمعمارية والثقافية والأثرية ووقف على أحوال أهلها وأوضاعهم مصورا إياها تصويرا واقعيا مجسما يؤثر فى القارىء أيا كان انتماؤه أو معتقده . وقد صور الكتاب ضمن ما صور حياة الحمالين الكوريين فى ڤيلا ديڤوستك تصويرا محزنا مفجعا يدعو إلى العطف والشفقة ، حيث ركز على وحشية مدنية القرن العشرين التى تعطف على الحيوان وتنسى الإنسان بل تدوس عليه وتسحقه بقسوة وضراوة .

ومن الجدير بالذكر أن بعض الأماكن التى زارها عبد الرشيد كتركستان وسيبيريا ظهرت على السطح أهميتها من جديد بعد تفكك الاتحاد السوڤيتى السابق . وظهرت بعد هذا التفكك دول طواها النسيان قرونا فى ظل الحكم الرهيب الذى لا يحترم إنسانية الإنسان . والذى كان يعتبر الإنسان ترسا فى آلة تدور دون توقف لاستثمار جهده وامتصاص قدرته وطاقته وطحنها فى أتون الحياة القاسية التى لا تميز بين الإنسان والآلة .

ظهرت هذه الدول ونفضت عن نفسها غبار السنين الرهيبة . وتبين بعد ظهورها على السطح من جديد أنها شعوب أصيلة تملك إمكانيات هائلة من الإرادة والتصميم والوعى والتمسك بالدين الحنيف رغم دعاوى الترويس والروسنة .

والكتاب يحكى فيه الداعية الإسلامى عبد الرشيد ضمن مايحكى مشاهداته لتركستان وسيبيريا ومنغوليا ومنشوريا التى طوف بها فى أوائل القرن العشرين ، وكل أحوال المسلمين وأوضاع بلادهم تحت الحكم الروسى بطريقة علمية شيقة فى فترة نعدم فيها المصادر التى تتحدث عن هذه المنطقة التى استقل بعضها عن الاتحاد السوفيتى المنهار ، ولا زال بعضها الأخر يرزح تحت سيطرة الاتحاد الروسى .

وكلما زاد الضغط والاضطهاد على الأقليات المسلمة فى كومنولث الدول المستقلة كالأبخاز والشيشان وطحنتها القوة الغاشمة ، كلما كنا نحث الخطى فى الترجمة كى يظهر هذا العمل الإسلامى إلى النور . وقد زاد من الاهتمام بترجمة هذا الكتاب أنه عمل علمى دقيق يبتعد عن الموضوعات الإنشائية والسطحية ، ويجنح إلى تصوير الواقع بكل آلامه وآماله دون زيف أو تزيد . فهو عمل علمى ملىء بالمعلومات والمواقف والآراء واللقاءات والمقابلات والزيارات والمفاجآت التى تتناول الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية .

وأسلوب الكاتب شيق وأخَّاذ يدعو إلى متابعة الترجمة من جانبنا ، ويدعو القارىء إلى الاستطراد فى قراءته باهتمام وشغف دون ملل أو سأم . وأفكار عبد الرشيد أفكار حية تتدفق بالعاطفة والحيوية ، ينتقل فيها من فكرة إلى أخرى دون أن يترك القارىء يمل المتابعة أو يتردد فى التواصل مع الأفكار .

هذا ما جعلنا نهتم بإخراج هذا العمل إلى النور لا نلوى على شىء غير وجه الله الكريم ..

والله نسأل أن يكون التوفيق حليفنا فى هذا العمل الشاق الذى استغرق السنين الطوال ، والذى تكتنفه بعض الصعوبات التى تتمثل فى مزج المؤلف بين لهجته التترية ولهجة استانبول ، والتى كان الصبر والتصميم والحرص على إظهار عمل إسلامى هام ومفيد كهذا كفيلا بحل هذه الأمور المغلقة بفضل من الله وعونه ..

أما المؤلف فهو نوع متفرد من الناس الذين نذروا أنفسهم فى سبيل الله من أجل تفقد أحوال المسلمين وتقديم الحلول لمشاكلهم فى بعض المناطق ، ونشر دينه الحنيف فى بعض المناطق الأخرى . فقد جعلته الآية الكريمة « سيروا فى الأرض فانظروا ... » (العنكبوت ٢٠) ، ينتهز كل فرصة مواتية للخروج فى سياحة لهذا الغرض ..

إنه داعية رحّالة لا يملك من حطام الدنيا شيئا يكفيه مؤونة الحاجة فى رحلة طويلة استمرت من ١٩٠٧ – ١٩١٠ م ، جاب فيها مناطق وعرة وخاطر فيها بحياته وضحى براحته لا يبغى شيئا من وراء ذلك غير وجه ذى الجلال ..

إنه رجل مثقف صاحب فكر ورأى قلبه عامر بالإيمان والتقوى خرج فى سبيل الله ، وليس فى جيبه مايكفيه من النقود للبدء فى الرحلة ، فقرر اقتراض عشرين روبلا من أحد أصدقائه . وعندما أحس ابنه الصغير أحمد منير بأنه فى حاجة إلى المال ، أراد أن يعطيه النقود التى فى يده . ورغم أنه اقترض للخروج إلى رحلته ، إلا أن ابنته قدرية طلبت منه أربعة روبلات قبل شروعه فى السفر ، فأعطاها ما أرادت ..

لقد عاش هذا الرجل التترى السيبيرى قدرا هاما من حياته فى بلد بعيد كاليابان بعد انتهاء رحلته ، إلى أن فاضت روحه إلى بارئها فى طوكيو وهو يدعو إلى سبيل ربه الأعلى ..

سبحان من قال فى محكم التنزيل : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

(النحل ، ١٢٥)

د . هويدا محمد فهمى

توضيح

زودت نهاية الكتاب بعدة خرائط لبيان خط سير عبد الرشيد إبراهيم فى سياحته . وعلى القراء الكرام كلما صادفوا اسم بلدة مر بها أن يرجعوا إلى الخرائط لتوضيح موقعها وفهم وضعها على الخريطة .

كما زودت الترجمة بالصور التى وردت فى الأصل مع ربطها بموضوعاتها لأنها وضعت فى غير موضعها الصحيح بالأصل .

وأضفت على عنوان الكتاب الأصلى جملة « فى أوائل القرن العشرين » لتحديد الفترة الزمنية التى يجرى الحديث عنها وتوضيحها.

وقد قمت بكتابة مقدمة الترجمة . كما كتبت عن حياة المؤلف وآثاره وعلاقة الكاتب بالشاعر عاكف ، ونقد للكتاب . ثم ترجمت من بداية الكتاب الأجزاء الخاصة بتركتسان وسيبيريا . وعلقت على الموضوعات والمصطلحات الواردة فى الترجمة بالحواشى .

أما أستاذى الدكتور أحمد فؤاد متولى فترجم الأجزاء الخاصة بمنغوليا ومنشوريا . وعلق على الغامض من المصطلحات الموجودة فيها بالحواشى .

وأضفنا فى نهاية الكتاب قائمة بمصادر المقدمات والتحقيقات .

د . هويدا محمد فهمى

حياة عبد الرشيد إبراهيم وآثاره

(أ) حياته :

يعتبر عبد الرشيد إبراهيم أحد أتراك سيبيريا الخاضعة للحكم الروسى . وقد أنفق عمره فى إحياء تعاليم الإسلام وإنقاذ العالم الإسلامى وإيقاظه وإيجاد الحلول لآلام المسلمين ومشاكلهم . ولد عام ١٨٥٠ م فى فضاء « تارا » بولاية « توبولسك » . أبوه يدعى عمر أفندى أحد أبناء إبراهيم آخون الذى ينحدر من إحدى العائلات الأوزبكية القديمة التى سكنت « تارا » . وقد استخدم عبد الرشيد اسم جده إبراهيم كاسم للعائلة .

تلقى عبد الرشيد إبراهيم تعليما دينيا علميا منظما طبقا لأصول التعليم السائدة فى زمانه فتعلم فى إحدى المدارس المشهورة فى ذلك الوقت فى « قيشقار » . ولم يكد يصل إلى سن العشرين حتى انتهى من التعليم الأساسى فى بلاده . وفى فترة من الفترات ألقى دروسا فى الدين عندما كان يطوف بمنطقة « القرنمز » ، وأخذ يرشد الناس ويعظهم ، ثم خرج قاصدا مراكز العلم والمعرفة فى البلاد الإسلامية بقصد زيادة علمه وخبرته وتنمية تحصيله فذهب إلى استانبول لأول مرة ١٨٧١ م وهو فى الحادية والعشرين من العمر وبعد أن قضى فيها مدة قصيرة توجه فى نفس العام إلى مكة والمدينة . وفى هذه الأرض المباركة حصَّل العلم الذى يشكل الأساس فى تحصيله الدينى .

وأثناء مقامه فى مكة تعرف على المجاهد الكبير « الشيخ شامل » (؟ – ١٨٧١ م) الذى ألهب الكفاح ضد الروس فى بلاد القوقاز . وكان بطلا شامخا انتصر عدة مرات على الجيش الروسى ، وهو يضع حياته فداء لبلاده وكلما سمع عبد الرشيد من الشيخ شامل صاحب التاريخ الحى تفاصيل سيرته المثيرة وقصص بطولاته ، كلما ترك الظلم الذى كانت روسيا تمارسه قرونا على أتراك سيبيريا فى نفسه أثرا عميقا وتأثيرا بالغا . وقد أضافت هذه الذكريات على جسارته جسارات ، وزادت عزمه على الكفاح . وجعلته شخصية لاتتردد ولاتلين أمام العقبات والصعاب .

غادر عبد الرشيد ابراهيم البلاد المقدسة ، وقد استوطن فى ذهنه وفى حافظته العلم والعرفان الذى ملأ أحاسيسه بالشهامة والجسارة . وعاد إلى استانبول مرة أخرى سنة ١٨٨١ م ، وفى ذهنه هذه المرة عدم كفاية العلم والفضل الذى حصله . فقدكانت لديه طموحات جارفة للقيام بتجربة من أجل العمل المثمر أكثر بين كل الأتراك المسلمين خدمة للأمة التى ترزح تحت ظلم الحكم الروسى . وتأكيدا على استفادة بلاده من ذلك ، كانت توجد فى استانبول فى ذلك الوقت هيئة مختارة من الأعراق التركية المختلفة تهدف إلى تأسيس وحدة فى اللغة والثقافة ، فعمل مع هذه الهيئة وقام بإعداد أبحاث عن المؤسسات التعليمية بعد أن قام بعمل برنامج زيارة لها للوقوف على أنشطتها وبرامجها وأجرى لقاءات مع شخصيات كبيرة فى مجال العلم والفكر والأدب والتعليم والثقافة . واستفاد من التجارب والأعمال التى قامت بها شخصيات مثل نامق كمال وأحمد وفيق باشا ومعلم ناجى وجمال الدين الأفغانى وأحمد مدحت أفندى فى مجالات متعددة وأخذ عنهم المعرفة ، وخاصة فى مجال تنظيم برامج التعليم والتعلم وترتيبها وإصلاحها . وبحث القرارات التى اتخذوها بخصوص التطبيق فى نهاية الأبحاث التى أجروها عن تعليم العلوم الدينية وتلقيها إلى جانب العلوم التطبيقية . واستفاد من القرارات التى توصلوا إليها ، وفكر فى تطبيقها فى المناطق التركية كلها وخاصة بين أتراك سيبيريا ، حتى أنه وسَّع القرارات التى اتخذوها والمعلومات التى توصلوا إليها فى هذا الخصوص . وشرح بشكل موسع أفكاره بخصوص تطبيقها فى الأراضى العثمانية فى مقالات بعنوان « برامج التدريس والتعليم فى المدارس الإسلامية » فى صحيفة « البصيرة » التى كانت تصدر فى استانبول .

وبعد هذه الأبحاث والتحقيقات عاد إلى وطنه بهدف تطبيق أفكاره وتنفيذ القرارات التى اتخذت بين الأتراك الأسارس تحت الحكم الروسى . وقام ببذل بعض المساعى الهامة فى مجال تنشئة جيل الشباب وإرشاد الشعب وإيقاظه وتوحيد جهود المسلمين ضد العدو المشترك . وافتتح المدارس وتمكن من تطبيق برنامجه المتصور حول التعليم . واجتهد فى إيقاظ المسلمين عن طريق الوعظ فى الجوامع وتنظيم الاجتماعات المتعددة .

وتحالف كل مسلمي روسيا عادة مع عبد الرشيد ابراهيم المكافح صاحب المساعي الدائبة والداعي إلى التجمع ولم شمل المسلمين . واكتسب ثقة وتقدير « التشكيلات المركزية لمسلمي عموم روسيا » التي مركزها « أوفا » ، وأصبح رئيسا للمنطقة . وبعد مدة عين نائبا للوالي العام على الأقضية المركزية بـ «أوفا» .

واتصل بالشخصيات البارزة في هذه الفترة من قيادات مسلمي المنطقة والذين يعتبر الواحد منهم عالما ومفكرا أمثال شهاب الدين المرجاني وقيوم ناصري ورضاء الدين فخر الدين ، واشترك في أنشطتهم وكافح معهم .

ظل ملايين الأتراك المسلمين الذين يعيشون في الضيق والصعوبات وعدم وجود الإمكانيات المادية والمعنوية داخل حدود روسيا القيصرية غرباء وأجانب في بلادهم وديارهم التي كانت كل واحدة منها مركزاً للإسلام قروناً . ففكر عبد الرشيد إبراهيم في تسهيل حياتهم الدينية من ناحية ، وفي جمع الأتراك المسلمين حول راية واحدة وتحت اسم الدولة العثمانية من أجل تحقيق الاستقلال النسبي في النواحي الإدارية والسياسية من ناحية أخرى . وكانت غايته ربط المجتمع التركي والإسلامي الذي بقي محروما من الامكانيات المتعددة مع الدولة العثمانية بروابط كثيرة ومجالات منوعة . وأظهر حماسا شديدا من أجل تحقيق هذه الإيديولوجية وجاهد في سبيلها . واستمر يجتهد دون أن يفقد شيئا من عزمه قط ودون أن يسأم ، رغم أنه تعرض كثيرا لصعوبات بالغة ومضايقات شديدة .

وجرب طريق الطباعة والنشر أيضا لكي يسمع صوته من ناحية ولكي يبعث الحيوية في المسلمين من ناحية أخرى . فأصدر نشرة « لواء الحمد » التي طبعها طبع حجر في استانبول ، وحملها إلى روسيا بالزنابيل ، ووزعها في كل ناحية . وكان يشجع فيها الأتراك الذين يعيشون في روسيا على الهجرة إلى الدولة العثمانية . وكان من نتيجة ذلك أن ترك ٧٠,٠٠٠ تركي ديارهم وأوطانهم وهاجروا إلى تركيا . إلا أن عدة مشاكل سياسية أطلت برأسها بعد ذلك ، دفعت قسما من المهاجرين إلى العودة مرة أخرى إلى ديارهم .

كان عبد الرشيد إبراهيم المتبحر فى العلوم الدينية يعرف بين الأتراك المسلمين فى روسيا بـ « القاضى الرشيد » ، بعد أن عين قاضيا بصفة رسمية .

ومن الجدير بالذكر أن كاترينا الثانية قيصرة روسيا أنشأت بسنة ١٧٨٧ م محكمة شرعية فى « أورنبورج » لكى تثبت أنها تنظر نظرة طيبة للمسلمين . وقد خدمت هذه المحكمة المسلمين حيث كانت مرجعا للملايين منهم ، رغم أنها أنشئت فى الأساس لكى تكون آلة فى يد الحكومة .

ثم جعلت الحكومة الروسية الجهلاء وغير الأكفاء على رأس المحكمة بعد ذلك ، بهدف صرف اهتمام المسلمين عنها وجعل همتهم تفتر نحوها .

وفى التسعينيات من القرن التاسع عشر اختير عبد الرشيد إبراهيم لكى يكون عضواً فى هذه المحكمة ، ثم عين رئيسا لها لمدة ثمانية أشهر لغياب رئيسها . ولم يستطع أن يثق بها أكثر من ذلك ، وخابت آماله عندما علم أنها آلة أسست فى الحقيقة كى تكون فخا تمتلكه الحكومة . ولم يجد فى يده أى سلطة فى واقع الأمر ، فاستقال منها ، ورحل إلى استانبول ١٨٩٥ م .

وأثناء مقامه فى استانبول ألف كتابا اسماه « كوكب الزهرة » تحدث فيه عن مستقبل المسلمين فى روسيا ووضع المحكمة الشرعية فى أورنبورج وهيكلها الإدارى وما ينبغى عمله لإصلاحها . وطبع هذا الكتاب سراً ، ثم أوصله إلى « أودسا »(١) ، ونجح فى توزيعه بين مسلمى روسيا .

ولم يمكث عبد الرشيد إبراهيم طويلا فى استانبول ، حيث خرج فى سياحة طويلة استغرقت ثلاث سنوات طاف فيها بين ربوع أوربا وشمال أفريقيا وآسيا فى المدة من أبريل ١٨٩٧ م إلى ٤ يناير ١٩٠٠ م . ومن استانبول تحرك إلى مصر وطاف بفلسطين ثم بتهامة فالحجاز . وتوجه من هناك إلى أوروبا بادئا بفرنسا ثم إيطاليا والنمسا وبلاد الصرب وبلغاريا ، ومن غرب روسيا إلى نواحى القوقاز ، ومن هناك إلى أعالى بحر قزوين فبخارى وغرب تركستان وشرقها حتى

(١) أودسا ، ميناء على البحر الأسود يقع فى منطقة القيرم . (المترجمة) .

وصل إلى موطنه الأصلى « تارا » عن طريق « يدى صو » وسيبيريا . إلا أنه لم يجد الفرصة سانحة أو الامكانيات سامحة فى السنوات التالية لنشر المذكرات والخواطر التى سجلها أثناء هذه الرحلة .

وجاء من جديد إلى استانبول سنة ١٩٠٠ م ، إلا أن إمكانية العمل بحرية إلى حد ما ظهرت فى مجال إيقاظ المسلمين وتوحيدهم بعد قبول « المشروطية » فى روسيا ١٩٠٥ م[١] . وبناء عليه عاد إلى سيبيريا ، وأخذ يمارس نشاطه بعدة طرق . فأنشأ بعض التشكيلات خدمة لهذا المجال ، وعقد المؤتمرات ، وأمّن للجماعات دورا ، وحافظ على نقاء الإسلام وعلى فعاليته من جهة أخرى عن طريق الطباعة والنشر . وكافح فى سبيل حق المسلمين وحقوقهم التى اغتصبت . وبذل المساعى لحمل الإدارة الروسية على الاعتراف بوجودهم .

وفى سبيل مساواة الكتلة التركية الإسلامية التى تشكل ٢٠٪ من تعداد سكان البلاد بالأقليات الأخرى ، وتحقيق استمرار الوجود السياسى لهذه الكتلة الصغيرة فى الإدارة الفيدرالية ، اتصل بالحكومة القيصرية وسعى لحملها على قبول ذلك .

وفى هذه الفترة عقدت المؤتمرات الإسلامية . ففى ١٩٠٥ ، ١٩٠٦ م عقدت ثلاثة مؤتمرات كان الهدف منها ضمان وحدة المسلمين الذين يعيشون فى حالة تشتت . وبفضل مساعى عبد الرشيد إبراهيم عقد المؤتمر الإسلامى الثالث الذى تم فى الفترة من ١٦ -١ ٢ أغسطس سنة ١٩٠٦ م فى « نيجنى - نوفجورود » . وقد ارتبط المؤتمر الذى اهتم بالأوضاع السيئة للمسلمين فى الأساس بإنشاء وحدة باسم « اتفاق مسلمى روسيا » . ووافق المؤتمر الذى اتخذ قرارات لحل المشاكل الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والمالية للمسلمين على برنامج من ٧٢ مادة من أجل حل هذه المشاكل . وكان عبد الرشيد إبراهيم على

(١) المشروطية ، هى الحياة النيابية أو الدستورية . وهذا المصطلح شاع استعماله فى الدولة العثمانية فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ - ١٩٠٩) = (١٢٩٣ - ١٣٢٧ هـ) للدلالة على الدستور الذى أعلن لأول مرة ١٨٧٦ م ولثانى مرة ١٩٠٨ م . وهو لفظ عربى فى الأصل يدل على الحكم المشروط . (المترجمة) .

رأس هيئة الاجراءات المكونة من ١٥ شخصا التى أعدت الاتفاق . ورغم أن هذه الهيئة المشكلة قد بذلت كل الوسائل لتوصيل هذه القرارات إلى الحكومة الروسية بأى حال من الأحوال ، إلا أن الحكومة ألقتها وراء ظهرها .

قام عبد الرشيد إبراهيم بعد ذلك بالبحث عن وسائل لعرض آلام المسلمين ومحنهم ، فاهتدى إلى إصدار جريدة باسم « الألفة » ومجلة باسم « التلميذ » فى بطرسبورج لهذا الغرض . ونجح بذلك فى إسماع أصوات المسلمين حيث كان ترجمانا لأحوالهم . كما بذلت الكوادر التى أعدها للجريدة والمجلة جهودا طيبة فى هذا المجال . إلا أن الإدارة الروسية فى أواسط عام ١٩٠٧ م قللت من الاهتمام بالحرية التى كانت قد بدأت فيها إلى حد ابتداء من ١٩٠٤ م . وحرمت جميع الجهود والأنشطة التى كان يمارسها المسلمون خاصة . وأغلقت المطبعة ، ووضعت نهاية لنشر الصحف ، وألغت التشكيلات التى تأسست وشتتها .

وفى هذه الأثناء أغلقت « مطبعة الألفة » و « جريدة الألفة » التى كان عبد الرشيد إبراهيم قد أنشأهما . ومن ثم لم يبق أمامه شىء يفعله سوى السياحة التى كان قد فكر فيها منذ عدة سنوات .

ولهذا خرج فى أواخر ١٩٠٧ م للسياحة فى مناطق تركستان الغربية ومنها بخارى وسمرقند ويدى صو وحواليها . واستغرقت هذه الرحلة عاما كاملا . وبعد أن عاد إلى « تارا » التى يوجد بها منزله نقل أسرته إلى « قازان » . وفى سبتمبر ١٩٠٨ م بدأ رحلة طويلة وشاقة فى سيبيريا ومنغوليا ومنشوريا واليابان وكوريا والصين وسنغافورة والهند والحجاز والشام . ثم حط رحاله فى النهاية فى استانبول ١٩١٠ م . وهكذا استغرقت سياحته التى سجلها فى كتابه من سنة ١٩٠٧ - ١٩١٠ م[١] .

ويوضح عبد الرشيد إبراهيم فى كتابه مقصده وغايته من رحلته ، قائلا : «

1- Abdürresid Ibrahim : 20 Asrin Baslarinda Islâm Dūnyasi ve Japonyada Islamiyet, Hazirlayan Mehmed Paksu, cilt.1, s.3 - 8

Istanbul 1987

بسبب فطرتى التى فطرت عليها وطبيعتى التى نشأت عليها ، سلكت مسلك خدمة هذه الحياة الإسلامية التى هى حياة أمتى ، وقاسى القلب أنواعا من الآلام فى سبيل ذلك . وقدمت أهلى وعيالى فداء. وكلما وجدت أى مسعى مناسب ضد أعداء الدين الإسلامى المبين ، لم أقصر فى التعلق بأسبابه(١) » .

ثم يبين فى موضع آخر أنه امتثل للأمر القرآنى الشريف ، وقام بسياحته فى ديار المسلمين إعلاء لكلمة الله العليا ، رغم المشاق والتبعات والتضحيات ، قائلا :

« فضلت أن أقوم بسياحة طويلة هذه المرة امتثالا للأمر القرآنى الشريف « سيروا فى الأرض فانظروا ... » ولم يكن أمامى قائد أو ورائى سائق . إلا أننى حزمت أمرى ، وأخذت بيدى عصا التوكل . وجريا وراء الآمال المقدسة إعلاء لكلمة الله بنية خالصة وترويجا لفكرة الاعتصام بحبل الله ، تركت أهلى وعيالى وأطفالى الأعزاء (فلذة أكبادى) وديعة لله . وخرجت إلى الطريق وأنا أقول : « يا الله » (٢) .. .

مر عبد الرشيد ابراهيم بالبلاد التى يسكنها كثير من المسلمين الأتراك الذين يعيشون كأقلية مطحونة مواطنين من الدرجة الثانية والذين اغتصبت حقوقهم دول غاضبة كروسيا والصين ، ورأى أوضاعها المعيشية ، واستمع إلى المشاكل المادية والمعنوية التى يعانى منها السكان . وبحث عن علاج للحالات التى رآها ، وشاهد حياة هؤلاء القوم الدينية وكيفية فهمهم للإسلام ومعايشتهم له وطريقة محافظتهم على هويتهم القومية والإسلامية .

طاف عبد الرشيد بالمدن والقرى والتجمعات السكانية الأصغر ، وزار مدارسها والتقى بمدرسيها وتلاميذها . وامتحن الطلاب وقوم المناهج الدراسية . وتوقف فى بعض البلاد لكى يلقى بعض الدروس على التلاميذ (٣) ، وهو يقول عن ذلك :

(١) عبد الرشيد إبراهيم : عالم إسلام وژاپونياده انتشار اسلاميت (تركستان – سبريا – مغولستان – مانچوريا – ژاپونيا – قوره – چين – سنغابور – جزاير ماوراى هند – هندستان – عربستان – دار الخلافة ، جلد ١ ص ٦ استانبول ١٣٢٨ هـ
٢- عبد الرشيد ابراهيم : نفس المصدر ، م ١ ص ٧
3) Islam Dünyasi ..., Hazirlayan Mehmed Paksu, Cilt1, S. q

« توجد لمسلمي منشوريا مدرسة ومسجد أيضا . وأنا شخصيا لست مهتما أو مشغولا بشيء سوى ذلك . وكل شاغلي واهتمامي ينصب على وجود توجيه للنهوض بدين المسلمين ومعارفهم . فأينما أجد مدرسة وأنا أتجول أبادر بامتحان الطلاب واختيارهم ، وامتحان المعلمين كذلك . هذه هي وظيفتي ومهمتي في كل مكان[1] .. »

سجل الرحالة عبد الرشيد كل ماراَه في سياحته ، وأرسل كل ما كتبه إلى جريدة « بيان الحق » التي كان يديرها ابنه « أحمد منير » في قازان . وبعد إعلان المشروطية سنة ١٩٠٨ م أرسل انطباعاته عن رحلاته إلى مجلة « الصراط المستقيم » التي كان يصدرها أشرف أديب ، ويكتب فيها مشاهير كتاب العصر وشعرائه أمثال محمد عاكف . وقد نشر جزءً كبيراً من رحلاته فيها على هيئة رسائل تسمى « رسائل اليابان » في الفترة التي كان يتجول فيها في اليابان .

وفي أوائل عام ١٩١٠ م عاد إلى استانبول . وفي نفس العام اتصل بمجلة الصراط المستقيم وعرض على القائمين عليها نشر كتابه ، فظهر على شكل فصلات . ثم نشر المجلد الأول منه كاملا في مطبعة أحمد ساقي بك ١٩١٠ م (١٣٢٨هـ) . أما المجلد الثاني من الكتاب فقد طبع في مطبعة « القدر » من ١٩١١ - ١٩١٣ من (١٣٢٩ - ١٣٣١ هـ) [2] . وبهذا طبعت الرحلة كلها كاملة .

وأهم جانب يستحق النظر في هذا الكتاب هو أنه يعتبر أول أثر تركي مكتوب عن المسلمين وعن البلدان الإسلامية في هذه المنطقة من قارة آسيا حتى

١ - عبد الرشيد ابراهيم : المرجع السابق ، م ١ ، ص ١٣٤

٢ - هذا التاريخ يعني بدء الطباعة والانتهاء منها .

ذلك التاريخ . وهناك خاصية أخرى لهذاالكتاب أيضا تكمن فى أن مؤلفه اعتمد فى تحقيقاته على مشاهداته وتثبته من الحقائق فى مواقع الأحداث . وساق مشاهداته مقوما إياها تقويما موضوعيا دون مبالغة [١] .

ومن الجدير بالذكر أن عبد الرشيد عرف بعد إعلان المشروطية فى تركيا خاصة بعد أن نشر مقتطفات من رحلاته فى المجلات وانتشرت شهرته . وعندما عاد إلى استانبول بعد نهاية المرحلة الأولى من رحلته ، قام بعقد مؤتمرات فى موضوعات متعددة فى مجال التعليم ، وقام بالوعظ فى الجوامع ، واكتسب شهرة فائقة كـ « رحالة شهير » .

ولم يتوقف عند هذا الحد فى رحلاته التى انتهى منها بسنة ١٩١٠ م . بل إنه توجه إلى طرابلس الغرب بليبيا خدمة للجهاد فى أفريقيا ، فور علمه باحتلال الإيطاليين لطرابلس الغرب ١٩١١ ، ١٩١٢ م وأخذ يوزع فتاوى الجهاد على الناس ، ويحرضهم ضد المحتل . وفى عام ١٩١٥ م شارك فى حرب « صار بقامش » بعد أن احتلها الروس [٢] .

وفى هذه الفترة أرسل كمبعوث من قبل التشكيلات الخاصة إلى ألمانيا ، فرأى عن قرب وضع الأسرى المسلمين الذين أسرتهم جيوش دول المحور . وقد مارس الوعظ والإرشاد فترة على هؤلاء الأسرى الذين كان يقدر عددهم بـ ١٠٠,٠٠٠ أسير فى ألمانيا .

وعبر حدود الصين إلى تركستان الشرقية بعد الحرب العالمية الأولى بسبب قيام الثورة البلشفية فى روسيا ١٩١٧ م . وبذل جهودا كبيرة لدى مسلمى هذه المناطق لكى يظل حماسهم دافقا ضد الهلاك الأحمر . وقد ظهرت آثار هذه الجهود فى الحركات التى أطلت برأسها فى هذه المنطقة فيما بعد .

1- Islam Dünyasi ..., Hazirlayan Mehmed Paksu, Cilt1, s.11

2 - Islam Dünyasi ..., Hazirlayan Mehmed Paksu, Cilt1, s.12

وبعد عودته من تركستان الشرقية ، ذهب إلى استانبول . ثم ذهب إلى مكة المكرمة مرة أخرى / ١٩٣٠ ، ١٩٣١ م . والتقى هناك بممثلى الجمعية الهندية الإسلامية وبالمسلمين القادمين من اليابان(١) .

ثم قرر الاستقرار فى اليابان بهدف تحقيق المقترحات التى طرحها منذ سنوات لتوحيد الأمم الآسيوية . فغادر استانبول ١٩٣٣ م لكى يصل إلى اليابان فى أوائل عام ١٩٣٤ م . وبعد أن استقر فيها اجتهد فى مد نشاطه إلى الجزر وإلى الدول المجاورة لتحقيق خدمة الإسلام التى كان قد قطع فيها شوطا كبيرا حتى ذلك الوقت . ودفع نشاط « جمعية قوى الدفاع عن آسيا » التى كان قد أنشأها من قبل . وازداد مجال تأثيره حتى وصل إلى المحيط الإسلامى القريب كبلاد الهند وماليزيا وأندونيسيا .

وقد حقق عبد الرشيد تقدما هاما فى مساعيه الموجهة إلى نشر الإسلام وتوطينه فى اليابان . وقد تم افتتاح جامع طوكيو ١٩٣٧ م ، واعتراف اليابان الرسمى بالإسلام دينا ١٩٣٩م . وعمل فى هذا الجامع ، وعلم طلابا كثيرين جدا فى الفترة التى أقام فيها فى اليابان .

وفى النهاية فاضت روحه إلى بارئها فى ٣١ أغسطس ١٩٤٤ م بعد حياة حافلة بالجهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمة الإسلام . وقد ذكرت ابنته السيدة / فوزية (٢) أن الإذاعات اليابانية أذاعت نبأ وفاته ، واهتمت بدفنه .

(ب) آثاره :

١ - العالم الاسلامى ، وانتشار الإسلام فى اليابان .

(تركستان - سيبريا - منغوليا - منشوريا - اليابان - كوريا - الصين - سنغافورة - جزر الهند - بلاد الهند - الجزيرة العربية - دار الخلافة)

يقع الكتاب فى مجلدين كبيرين : طبع المجلد الأول فى مطبعة « أحمد ساقى بك » باستانبول ١٣٢٨ هـ م ويشتمل على ٦٢٠ صفحة وطبع المجلد الثانى فى

1- Islam Dünyasi ..., Hazirlayan Mehmed Paksu, Cilt1, s.13

٢ - ذكر عبد الرشيد إبراهيم فى المجلد الأول من كتابه ص ٣٥ ، ٣٦ أن له ولدا وبنتين ، هم : أحمد منير وقدرية وفوزية التى يقال لها فى التركية فيضية (المترجمة) .

مطبعة « القدر » باستانبول فيما بين سنتى ١٣٢٩- ١٣٣١ هـ ويشتمل على ٢٤٥ صفحة .

٢ – المرآة ، وطبع فى مطبعة چيجوڤاف بقازان ١٩٠٩ م

٣ – سيرتى الذاتية أو ما قدر لى ، وطبع فى مطبعة أليكتريك فى بطرسبورج ١٣٠٠ هـ .

٤ – محاكمة الوجدان أو ميزان الإنصاف ، وطبع فى مطبعة نجم المستقبل باستانبول ١٣٢٨هـ .

٥ – الدين الفطرى ، وطبع فى مطبعة نجم المستقبل باستانبول ١٣٤٠ هـ .

٦ – كوكب الزهرة ، وطبع فى مدينة بطرسبورج ١٩٠٧ م

٧ – آسيا فى محنة (ترجمه من اليابانية) ، وطبع فى مطبعة أحمد إحسان باستانبول ١٣٢٨ هـ [1] .

1) Islam Dünyasi ..., Hazirlayan Mehmed Paksu, Cilt1, s.13,14

شاعر الإسلام محمد عاكف وعبد الرشيد إبراهيم

كان عبد الرشيد إبراهيم على علاقة حميمة بالشاعر الشهير محمد عاكف . وقد قال ذات مرة عن شعره : « آه ياعاكف ! ماذا أفعل وشعرك يشعل القلوب ، وأنا لست فى سن يمكن أن تتبعث فيه الروح . لو كنت قلت هذا الشعر منذ عشرين عاما ، فمن يدرى كم من القوة كان سيمنحنى . زرت كل آسيا وأفريقيا وطفت بهما ، إلا أننى لم أستطع أن أرى شاعرا مثلك » .

ثم دعا عبد الرشيد الشاعر محمد عاكف إلى القيام ببعض الرحلات السياحية ، قائلا له : ينبغى عليك أن تطوف بكل آسيا وأفريقيا . وينبغى عليك أن تقف على أحوال أقوام المسلمين الذين يعيشون فى القطب الشمالى وفى الصحارى الحارقة عن قرب . ينبغى عليك أن تراهم وأن تستمع إليهم . وينبغى عليهم أن يروك وأن يستمعوا إليك عن قرب . وسوف تبعث هذه الرحلات الحياة من جديد فى أشعارك وكأنما هى فيض الربيع[1] .

قدم محمد عاكف على لسان واعظ أوضاع العالم الإسلامى وأحواله فى مجموعة شعرية طويلة تبلغ ١٠٠٣ مصراعا ، تسمى « من فوق منبر السليمانية » ، نشرها ١٩١٢ م فى الكتاب الثانى من ديوانه صفحات . وهذا الواعظ هو « عبد الرشيد إبراهيم »

وعندما أراد عاكف أن يكتب منظومته هذه اعتمد فى استقاء معلوماته وأفكاره عن أوضاع العالم الإسلامى على كتاب عبد الرشيد إبراهيم هذا الذى نشر أجزاء منه فى مجلة « الصراط المستقيم » ١٩١٠ م . ولهذا السبب جعله واعظا يعتلى منبر جامع السليمانية فى استانبول لا ليعظ الناس ويرشدهم ويبصرهم بحقائق دينهم ، بل ليحدثهم عن أوضاع العالم الاسلامى المتردية .

1 - Islam Dünyasi ..., Hazirlayan Mehmed Paksu, Cilt1, s.12

يقول محمد عاكف تحت عنوان « الواعظ » متحدثا على لسان عبد الرشيد إبراهيم :

من ذا الذى اعتلى المنبر ؟ إنه شيخ لا أعرفه ، ولكن تلك الملامح التى تجذب القلب ليست هى وحدها ، بل عمامته البيضاء ولحيته الطاهرة ناصعة البياض وتلكم جبهته المهيبة ، ومحياه شديد الإيناس كأنه البدر النوار أحاط بكل مكان . ماهذه الشهامة التى يبديها وما هذه الملاحة يارب !

سيما عيناه محراقان سماويان بشعاعهما يلهب الإدراك آه من هاتين العينين اللتين تنبعث منهما حزمة من النور النورانى تجذب بكل خيوط سحرها الكثير من الأرواح والأحبة (١) !

ويقول تحت عنوان « الواعظ على المنبر » :

لقد شاهدتمونى على المنبر ، فلا تظنوا أننى سأقدم لكم الوعظ لاتنخدعوا بمظهرى ، فأنا لست من علماء الدين سيحدثكم فقهاؤكم عن أحكام الدين فى واقع الأمر وإذا كانت لديكم مشكلة ، فإنهم سيشرحونها لكم أما أنا ، فاسألونى عن العالم الإسلامى أجبكم حيث لم أترك مكانا فيه لم أتجول به أو أزره من الشرق الأقصى وحتى المغرب الأقصى . كم طفت بالعالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه لقد أتعبتنى هذه الرحلات التى استمرت سنينا قبل أن أبدأ الرحلة كنت سأهلك من التعب وربما لم أكن لأستطيع أن أستمر فى طريقى ولا أن أستطيع التوقف إلا أن صوتا هادرا من داخل أعماق نفسى نادانى ، قائلا : سر ولا تتوقف واستمر فيما عزمت عليه ، إلا أنه لم يمنحن الأمان ! ذلكم الصوت هو غيرتى الدينية (٢) .

ثم يقول على لسان عبد الرشيد عن بخارى وسمرقند :

تلكم هى بخارى ، تلكم هى الأرض المباركة الطيبة ، أوت فى أحضان المذلة

1 - Mehmet Aki : Safahat , S.122 Istanbul 1990

2 - Mehmet Akif. Safahat , S,162

واستغرقت فى سبات عميق . ذلكم الإقليم الذى أنجب مئات مثل ابن سينا ، لا يستطيع الآن أن ينجب طفلا واحدا فى مضمار العلم . ما أشد عقمه ! وحتى أنت ياسمرقند يامن تعتبرين مرصد العالم[(١)] ، غرقت هكذا فى الخرافات رغم ماضيك العريق . إذا كان الجهل متفشيا فيك ، فالنفاق أشد وطأة ، والأخلاق عموما أشد خطورة ..

استشرى الفساد على أبسط تقدير ، والهوة سحيقة لانهاية لها[(٢)] .

وعن الصين ومنشوريا يقول على لسان عبد الرشيد :

الدين الاسلامى فى الصين « ومنشوريا » عبارة عن مظاهر ليس إلا . والعنصر المسلم فيهما متأخر وجاهل للغاية .

مامعنى تعاليمهم العجيبة فى نظرهم .. أصواتهم بالملايين تردد : هكذا وجدنا آباءنا . تنظر إليهم فتجد أصواتهم تخرج من عقولهم بكل تهور ، فتقوص عرش الآمال من أساسه . فهموا القرآن على أنه عبارة عن لفظ محكم ليس إلا ، قائلين : ليس بيننا من يتقيد بمعناه . تخلف أهالى هذه النواحى فى الجوانب الدينية تماما ، فعندما يقرأون القرآن تظنه باللغة الصينية ! كل عاداتهم قريبة من طقوس المجوس . يؤدون الشهادة ، فتجد الأوردة غريبة إلى حد ما[(٣)] .

ومن يراجع هذه الأشعار المسماة « من فوق منبر السليمانية » على ما قاله عبد الرشيد فى هذه الموضوعات فى كتابه ، يجد أن الشاعر قد تأثر بما قاله تماما ، لأنه لم يزر هذه الأماكن أو يتجول بها كما لم يقرأ عنها فى كتاب غير كتاب عبد الرشيد على حد قوله .

وهذه المجموعة الشعرية تعتبر نوعا من التلخيص المنظوم لمحتوى كتاب عبد الرشيد على حد قول الدكتور مصطفى أوزون [(٤)] .

١ – اشتهرت سمرقند على مر التاريخ بمراصدها الضخمة ، كما سيأتى فيما بعد عند الحديث عن هذه المدينة العريقة فى الترجمة (المترجمة) .

2 -— Mehmet Akif : Safahat , S.164

3 - Mehmet Akif : Safahat , S.165

قامت الدكتورة عزة الصاوى بعمل دراسة عن هذه المنظومة فى كتيب يحمل نفس عنوانها .

٤ – د . مصطفى أوزون : المرجع الساق ، ص ٣٦٢

هذا الكتاب

يحسن بنا ونحن نتحدث عن كتاب « العالم الإسلامى » لعبد الرشيد إبراهيم أن نستطلع رأى الشاعر محمد عاكف الذى كتب مقالا فى مجلة « الصراط المستقيم » بعد أن أطلع على بعض الأجزاء التى نشرت من الكتاب فى نفس المجلة . يقول عاكف :

إذا كان يلزمنا كتب رحلات تصور أحوال الدول الغربية ، فإننا نستطيع أن نحصل على المعلومات التى نريدها من آثار كثيرة تتحدث عن أوربا سواء منها ماكتب بلغات أجنبية أو ماكان مترجما إلى التركية .

لكن من أى الآثار نستطيع أن نعرف شيئا عن آسيا ؟ إنها القارة الوحيدة فى العالم التى نعلم عنها أقل القليل رغم أنها الوطن الأم الذى نشأنا فيه . علما بأن أشهر بلادها الكثيرة لانعلم عنها سوى الاسم فقط . ونعرف معلومات قليلة جدا ومغلوطة فى نفس الوقت عن لغات وعادات وتقاليد الأقوام التى تسكن هذه الأقاليم المختلفة .

وإذا كان الرحالة الأوربيون قد تجولوا فى بلاد الشرق وكتبوا كتبا عن رحلاتهم ، فلست أدرى على أى درجة يمكن الاعتماد عليهم !

يمكننا أن نحصل على معلومات صحيحة وصادقة مما كتبه عبد الرشيد عن آسيا . ولن نبحث مطولا فى ثقافته الواسعة وفى أوصافه الخلقية .

تجول عبد الرشيد سنوات طويلة فى كل أنحاء آسيا ، ووقف على ماضى الأقوام التى تسكنها ودقق فى أحوالهم . فإذا وجدهم فى سعادة غامرة ، بحث فى مصدرها وإذا وجدهم فى الفقر والبؤس يرزحون بحث فى مبعث ذلك . ورغم أنه ترك أولاده وعائلته ووطنه وهو يحس بحنين دافق ، إلّا أنه لم يترك فرصة لهذه الأحاسيس الفياضة كى تشده إلى الوراء وهو يتجول فى رحلاته من مكان إلى آخر .

ورغم أن كثيرا من مناظرالعالم الإسلامى ومظاهره التى صورها ترزح فى المذلة والمهانة والفقر تبكى العيون وتدميها ، إلا أنه كان يجفف دموعه من آن لآخر لكى يرى ماحوله رؤية جيدة . نعم ، إن التوقف أمام هذه الأحداث المؤلمة لكتلة بشرية كبيرة دون حراك ، أمر لا فائدة من ورائه .

ثم يوجه عاكف كلامه للقراء مباشرة ، قائلا :

لقد تأثرتم بالمصيبة التى منيت بها ، حسنا ، هذا جميل منكم وأشكركم . لكـن تأثركم هذا لايصح أن يتم بالكلام . فإذا ترجم الكلام إلى عمل ، أى أنكم إن أخذتم مصائبى بيدكم لمحاولة إصلاحها أو حتى تخفيفها ، ألا يكون هذا صنيعا حسنا منكم ؟ إذا فكرتم فى ذلك ، فإنكم لا تعترفون بالواجب الإنسانى فقـط وأنتم تمدون يدكم إلىّ بالعون والمساعدة ، بل إنكم تعملون لحياتكم وآخرتكم فى آن معا .

ويستطرد متحدثا عن الكتاب ، قائلاً :

وفى الحقيقة فإن كتاب السياحة الذى كتبه عبد الرشيد لايثلج صدورنا ، لأنه يعرض كثيرا من الحقائق العارية عن كل زيف والمريرة فى آن واحد . ويركز على الأمراض الاجتماعية للشرق وعلى الأحوال المتردية فيه ويعرض للتخلف والجهل والأوضاع الدينية البائسة ، ولكن مع طرح جميع أعراض المرض وتطور مراحله كى يمكن أخذ الأسباب بعين الاعتبار لإمكانية التداوى .

كتب عبد الرشيد سياحته بلغة بسيطة مع توضيح بعض الأحداث عن طريق إيراد بعض الصور . ولا أذكر أننى قرأت كتابا بهذا القدر من الصدق والفائدة والتأثير البالغ منذ زمن بعيد . وكم يكون المثل العربى الذى يقول « إن الكلام الذى يخرج من القلب يصل إلى القلب والذى يخرج من اللسان لا يجاوز الآذان » ، صادقا تماما مع هذا الموقف . وإذا نظرنا نجد كلام عبد الرشيد يخلو من التصنع والتكلف ، لأنه كلام طبيعى وصادق يحدث تأثيره الفورى .

ألم تكن مجالس عبد الرشيد كلها على هذا النحو ؟ لقد مزج بين لهجته التترية ولهجة استانبول فى أحاديثه التى عقدها مع العديد ممن التقى بهم .

ولم يشأ أن يورد جملا مزخرفة أو تعبيرات طنانة ، بل إنه سحر الجمع بالأفكار التى قدمها بلغة واضحة تماما . ولهذا فإنه إذا أطال فى الحديث ، فإن الإنسان لايستطيع أن يمسك نفسه عن الاستماع إليه حتى النهاية والاعجاب بما يقدمه للقراء [١] .

وبعد أن عرضنا رأى عاكف ، يحلو لنا أن نجول فى جنبات الكتاب لنسجل بعض مالاحظناه :

بعد تفكك الاتحاد السوفيتى أواخر عام ١٩٩١ م إلى مجموعة من الدول المستقلة سواء منها الدول الإسلامية فى أواسط آسيا والقوقاز أو الدول الأخرى غير الإسلامية ، بدأ الحديث من جديد عن الأقليات المسلمة فى الدول غير الإسلامية التى تشملها مجموعة دول الكومنولث . وهذه الدول التى كثر الكلام عن الأقليات الإسلامية فيها ، سبق للرحالة والداعية التترى عبد الرشيد إبراهيم أن طاف بها بلدا بلدا ومدينة فمدينة باحثا عن العناصر الإسلامية ومشاكلها وآلامها ومعاناتها وثقافتها ومدى تحضرها أو تخلفها ، وذلك فى مطلع هذا القرن العشرين حيث تندر المصادر أو تنعدم عن هذه المنطقة فى تلك الحقبة من الزمن .

كان عبد الرشيد إبراهيم واقفا على تطور الأحداث والوضع الحضارى والاجتماعى للعالم عن قرب ، ولهذا كان يقوم بعمل تعليقات صائبة ، وكان يعقد الحوار والنقاش مع شخصيات مختلفة من دول مختلفة بكل صراحة وثقة . وكان يملك ناصية الحوار ويوجه الحديث بذكاء وفطنة .

وهناك موقف يستدعى الانتباه والإعجاب نورده توضيحا لكلامنا ، وهو أنه عندما عقد عبد الرشيد حوارا مع أحد الفرنسيين حينما صادفه فى القطار بادره الفرنسى بالسؤال عن أحوال التتار فى روسيا متعجبا من شدة ظلم الروس لهم ، فرد قائلا :

١ - مجلة « صراط مستقيم » . مقال لمحمد عاكف فى ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، العدد ٩٧ لسنة ١٣٢٦ هـ .

لا يُسأل عن الحق مع وجود القوة . إنكم معشر الفرنسيين تسوقون الجزائريين المسلمين كالحيوانات ، وتحتقرون معتقداتهم ، وتستهينون بحقوقهم الإنسانية كذلك . إذا كان الظلم يجوز إلى هذه الدرجة وينعدم الوجدان الحى إلى هذا الحد لأمم متمدنة كفرنسا ، فلا يمكن أن نقول شيئا عن الروس إذن(١) .

بعد أن عرض المؤلف حالة البؤس والشقاء والفوضى والاضطهاد التى يرزح فيها أهل تركستان من المسلمين ، انتقل إلى توضيح الوضع غير الإنسانى الذى يعيش فيه الشعب التركستانى فى لوحات مجسمة تجسد القهر والمعاناة ، قائلا :

« والشيء المحير والمحزن حقا ، هو أنه لا توجد مدرسة واحدة حتى اليوم بناها الروس من أجل مسلمى تركستان . وبسبب خوف المسلمين من المبشرين ، فإنهم لايستطيعون أن يرسلوا أبناءهم إلى المدارس الروسية حتى اليوم . وبهذا الشكل وقع كل مسلمى تركستان فى بحار الجهالة . وابتلوا بفساد الأخلاق والمسكرات ، وقطعوا فيهما شوطا كبيرا بسرعة فائقة . وكلما رأى الإنسان هذه البلاد ، فإنه يقول عادة : « إن أمة تركستان أمة محكوم عليها بالموت » (٢) .

ويستعمل عبد الرشيد أسلوبا لاذعا ومؤثرا أحيانا يؤثر فى القارىء تأثيرا شديدا ويجعله مشاركاً له فى الرأى . فعن هدم الآثار الإسلامية فى سمرقند وسرقتها ، يقول :

« يا للأسف ، لقد هدمت تلك النماذج الأثرية العتيقة بكاملها فى ظل حضارة القرن العشرين . وسرقت تلك الحجارة المنحوتة بطريقة فنية واحدا فواحدا من قبل الأوربين الذين يأتون لزيارة سمرقند على الدوام . وهناك مايدعو للحيرة أيضا ، وهو « أن المسلمين المتوحشين هم الذين أقاموا هذه المبانى (٣) ، وقام الأوربيون المتحضرون بهدمها ولا زالوا يهدمونها(٤) »

١ – عبد الرشيد : عالم إسلام وژاپونياده انتشار إسلاميت ، جـ ١ ، ص ٥١
٢ – راجع الأصل ص ١٤ ، وانظر الترجمة ص ٤٦
٣ – يتهكم الكاتب هنا على وصف الأوربيين للمسلمين بالوحشية . (المترجمة)
٤ – راجع الأصل ص ٢٢ ، وانظر الترجمة ص ٦٦

ويستعمل الرحالة أسلوب لسان الحال أحيانا كي يجعل الأثر يتكلم بما حدث له من فواجع وكوارث ومهانة بعد أن كان صرحا معززا مكرما يدخله المسلمون خاشعين . يتحدث عبد الرشيد عن « قصر خدايار دخان » فى ولاية فرغانة الذى حوله الروس إلى معكسر للجنود الروس ، فيقول :

« قبل ذلك بـ – ٤٠ – ٥٠ سنة كان قصرا للإسلام معززا مكرما يزدان من الداخل والخارج بالآيات البينات ، واليوم يصيح بلسان الحال ، قائلا : أصبحت سخيفا ، أصبحت محل فسق وفجور ، وبينما كان الذكر والتسبيح وتلاوة القرآن تتردد من داخلى منذ ٤٠ عاما ، أصبحت أنواع الفجور تمارس اليوم بدلا منها والألفاظ القبيحة تقال . لقد أصبحت مسكنا للسكارى والسفهاء الذين يكممون الأفواه ويلعنون الآباء[١] . »

وبعد أن تجول عبد الرشيد فى تركستان ، مر ببلدته تارا فى سيبيريا عندما كان قريبا منها إلى حد ما ، وذلك كى يودع أسرته لأنه نوى الاستمرار فى رحلته التى ستطول . وقد صور الكاتب ألم الفراق الذى يعتصره ، وبكاء أولاده وتأثرهم الشديد . وعبر عن مدى الحزن البالغ الذى اعتراه واعترى أسرته فى جملة بسيطة فيها تصوير مجسم للحزن والفجيعة ، قائلا :

« إننى أخرج من باب منزلى وكأنما تخرج جنازة حية [٢] . »

وبعد أن ترك الرحالة أسرته فى مدينة « قازان » استقل الباخرة النهرية قاصدا مدينة « أوفا » وقد صور الباخرة التى استقلها وصور صفاراتها التى تشاركه آلام الحزن والفراق ، قائلا :

« وكلما كانت صفارات الوداع المؤلمة تدوى ، كلما كانت تؤثر فىّ ، وكأنما كانت تقطع أكبادى إربا إربا . الباخرة تتحرك من قازان ، وكأنما أحست هى الأخرى بألم الفراق ، فالصفارات تدوى وكأنما كانت تصرخ وتصيح [٣] . »

١ – راجع الأصل ص ٢٤ ، ٢٥ ، وانظر الترجمة ص ٧١
٢ – راجع الأصل ص ٣٥ ، وانظر الترجمة ص ٩٢
٣ – راجع الأصل ص ٣٦ ، وانظر الترجمة ص ٩٣

بلغت درجة صدق المؤلف وصراحته مداها حين ذكر أنه اقترض ٢٠ روبلا لعدم وجود نقود كافية معه تعينه على البدء فى رحلته[١] . كما كان صريحا غاية الصراحة حين ذكر أنه لا يستطيع أن يشترى تنكرة قطار لكى يسافر من أومسكى إلى تومسكى ، فأعانه على ذلك صديق له . وقد قال فى ذلك :

« ذهبت إلى مكان بيع التذاكر وسألت عن تنكرة بالدرجة الثانية كما تعودت ، ولكنى لم أجد مكانا خاليا . فوجدت نفسى مجبرا على الركوب بالدرجة الأولى ، لكن النقود فى جيبى لاتساعد على ذلك . بارك الله فى الشيخ نيازى افندى فقد كان بجانبى فى ذلك الوقت ، ولهذا أخذت تنكرة بالدرجة الأولى[٢] . »

ويتحسر المؤلف على الإسلام فى جيجكار فى منشوريا وعلى أحوال المسلمين بها بأسلوب مؤثر يأخذ بالألباب ، قائلا :

« أذهب إلى الجامع من أجل الصلاة فلا أفهم أكثر من كلمتين أو ثلاثا من الأمام وهو يقرأ الفاتحة . آه ياربى ، ما كان يخطر لى على بال أن أصادف بلدة فى الدنيا ، الإسلام غريب فيها إلى هذا الحد . أواه ماهذا الوضع ؟! إذا كان رؤساء المسلمين يرون هذه الحالة ويسكتون ، فماذا سيقولون يوم الحساب من بعد ؟! ألا يُسألون أبدا ؟! لا أظن ذلك البتة[٣] .

ويجسم الرحالة المعانى وهو يصف الحمالين الكوريين فى ڤيلا ديڤوستك . ويصور وضعهم فى لوحات معبرة ومؤثرة وهم فى حالة من البؤس والشقاء لامزيد عليها ، مما يبعث على الأسى والحزن ويحمل على الشفقة والترحم . والصورة التى يرسمها عبد الرشيد مؤثرة للغاية تحرك المشاعر والأحاسيس وتجعل الإنسان يعيش الحدث ويتأثر به . يقول :

« الكوريون فى ڤيلا ديڤوستك كثيرون ، الله وحده هو الذى يعرف عددهم . هذا الحشد من البشر فى حالة يستحق المرحمة حقيقة . لكن ما الحيلة و « الإنسان المتمدن[٤] » يرحم الكلاب ، ولا يرحم بنى جنسيه من البشر ! صح

١ – راجع الأصل ص ٣٥ ، وانظر الترجمة ص ٩٢
٢ – راجع الأصل ص ٦٢ ، وانظر الترجمة ص ١٣٤
٣ – راجع الأصل ص ١٤١ ، وانظر الترجمة ص ٢٤٩
٤ – المقصود بالإنسان المتمدن هوالأوربيون . (المترجمة) .

كما تشاء ، ولن تجد من يهتم بصياحك ، لقد تألت كثيرا بل كثيرا جدا على الكوريين لأن الرحمة بالبشر من الفضائل الإنسانية لدى الشرق كفطرة جبل عليها[1] » .

ويمكننا أن نستشف من كلام عبد الرشيد مايدل على توقعاته للمستقبل واستشراف آفاقه ، حين قال :

« استولى الروس على مراعى القازاق ، ولهذا السبب قل عدد الحيوانات بشكل ملحوظ . لكن هذا كله مؤقت وطارىء ، فسيأتى اليوم الذى تدور فيه الدوائر تمشيا مع قانون الطبيعة[2] » .

وبأسلوب أخاذ ومؤثر يدفع القارىء إلى مشاركته فى هواجسه ، يصور عبد الرشيد حالته بطريقة مؤثرة تدل دلالة واضحة على أنه نذر نفسه فى سبيل الله وإملاء كلمته مهما كلفه ذلك حتى ولو كانت حياته . يقول المؤلف وهو يغادر فيلا ديفوستك قاصدا بلاد اليابان لنشر الإسلام :

« كثيرا ما غادرت وطنى وسافرت إلى ديار الغربة . إلا أنه مهما كان السبب ، فإن الفراق هذه المرة جعلنى أستغرق فى التفكير . إننى مسافر هذه المرة إلى ممالك المجوس وإلى ديار الكفر واحتمال مصادفة مسلم واحد بعيد المنال . وأنا لا أعرف لغة البلاد التى أقصدها . ونقودى انتهت ، ولا أعرف أحدا . وقد ورد بذاكرتى أنه إذا حل أجلى المحتوم بهذه البلاد ، فكم سيؤثر هذا على عائلتى وأحبائى الذين تركتهم وراء ظهرى .. ولكن لست أدرى ماذا حدث ، فأنا أحس بأن قلبى عامر بالطمأنينة وداخلى مشحون بالمسرة [3] » .

أما بعد فالكتاب ملىء بالمعلومات الغزيرة والقيمة . والكاتب متحدث لبق يقود القارىء من موقف إلى آخر ومن فكرة إلى أخرى دون ملل . فلا يكاد القارىء

١- راجع الأصل ص ١٦٤ ، وانظر الترجمة ص ٢٨٠
٢ - راجع الأصل ص ٢٩ ، وانظر الترجمة ص ٧٨
٣ - راجع الأصل ص ١٧٦، ١٧٧ ، وانظر الترجمة ص ٢٩٦

يتشبع بفكرة ويكتفى ، حتى يدخل فى فكرة أخرى أشد تشويقا وجاذبية دون أن يستعمل الكاتب التكرار أو الترديد أو السرد الممل .

وروح المؤلف تشع من خلال سطوره ، فهو رجل بسيط إلا أنه مثقف دقيق التعبير بليغ العبارة ، يتمتع بأسلوب جذاب . ويتحلى برؤية للأمور تمتزج بالواقعية دون جموح أو جرى وراء خيالات فضفاضة تأخذ الإنسان بعيدا عن الحقيقة والواقع ..

مقدمة المؤلف

يافتاح ياعليم

إن توجد في الدنيا مسألة أكبر ، فهى مسألة الحياة . كل من يسعى ويبذل أقصى الطاقة ، فإنه يعمل ويجتهد . وكل من يبذل المساعى ، فإنه يبذلها من أجل حياته هو . وإن توجد لدى الإنسان فكرة تسبق كل فكرة ، فهى فكرة الحياة أيضا .

ويمكن تصور نوعين من الحياة لدى الإنسان فى مسألة الحياة هذه أولهما : الحياة العامة أو حياة الجماعة . والأخرى : الحياة الشخصية أو الفردية التى معناها أن حياة الإنسان قاصرة عليه ليس إلا .

ولا شك أن الغالبية العظمى من البشر تهتم دائما بحياتها الشخصية ، يشتغل الإنسان ولا يمكن أن يتصور شيئا خارج حياته الشخصية ، ولهذا السبب يفضل حياته الشخصية على كل حياة . ولا يستطيع أن يرى فى الدنيا حياة سوى حياته هو .

وبعض الناس أيضا يفتن بخدمة الجماعة ، فكل أفكاره وكل ملاحظاته وفكره وكل أحزانه وآماله تنصب بكاملها على خدمة الجمع . ومع أن هؤلاء الناس يشكلون الأقلية ، إلا أنهم يقدمون أرواحهم فداء لأفكارهم التى تعتمل داخلهم فى سبيل حياة الجماعة .

وأغلب الظن أن الاثنين ينظر إليهما على أنهما وضع طبيعى ، فهذا شىء ثابت فى طبيعة الإنسان وفطرته . وحتى إذا كان ذلك من تأثير التربية أحيانا ، فإن مثل هؤلاء لايبلغون درجة المفطورين . فالذين يتربون على ذلك لايستطيعون الثبات والدوام غالبا ، إذا كانت لديهم الرغبة فى خدمة الجماعة فى فترة من الفترات . فعندما يرون مصيبة أمامهم يتركونها بسرعة أو يتحدثون عنها قليلا وكأنهم يشتغلون من أجلها ويسعون ، فإذا نظرت يوما تجدهم انطفئوا ولم يبق لهم أثرا .

أما الذين فى طبيعتهم وفطرتهم الاستعداد لخدمة الجماعة ، فإنهم يقدمون حياتهم كلها فداء لهذه الخدمة ، ويرفضون كل منفعة فى سبيلها . ويتلقون المشاق والمتاعب والفتن والبلايا على أنها جميعا حقيقة حلوة . لايخافون السيف ولايخشون المدفع أو البندقية . وكل توفيق يتحقق فى سبيل خدمة الجماعة ، يعتبر جنة بالنسبة لهم . وكل يأس من خدمة الجمع ، يعد جهنم بالنسبة لهم .

والحياة الشخصية غالبا ماتنحصر فى شخص الإنسان . وإذا تجاوز ذلك أحيانا فإن هذا التجاوز يعود على أفراد عائلته أو أقربائه وأودائه . أما حياة الجماعة ، فهى تعنى حياة الأمة وتشمل ملايين الأفراد . والذين يخدمون الجماعة إنما يخدمون الملايين من عالم الإنسانية . ولكن هذا الشمول يمكن تحديده أيضا . لأن الذين وقفوا أنفسهم فى هذا السبيل يعملون من أجل أوطانهم ، وتنحصر ثمرات مساعيهم فى منسوبى أوطانهم وأبناء جنسهم . ومهما بلغ الإنسان فى دعواه للحرية والإنسانية والمدنية ، فلا يمكن أن يصل إلى مستوى الأنبياء العظام الذين كانوا رحمة للعالمين . وأيا من يكون الإنسان سواء كان فرنسيا أو انجليزيا أو عربيا أو تتريا ، فإنه لا يستطيع أن يتخطى منفعة أمته والدين الذى تدين به . فمهما كان الانجليزى حرا ، فلا يمكن أن يفضل فرنسا على انجلترا . ومهما كان الألمانى متمدنا ، فلا يمكن أن يجعل منفعة ألمانيا فداء لمنفعة النمسا . والخلاصة أن أفراد كل أمة يخدمون أمتهم ودينهم ، ولا يمكن أن يخدموا غير ذلك ، وحتى على فرض أن ذلك حدث فلا يمكن أن يكون ذلك الشخص مخلصا بل يكون غامضا .

ونخرج من كل هذا بأننى ألزمت نفسى فكريا بخدمة وطنى ودينى وعانى قلبى من كل البلايا لمدة تتراوح بين ٢٥ عاما و ٣٠ عاما . وتحملت كل مشقة ثلاثون عاما وأنا أقول : الأمة ..الأمة . ولا زلت أقول وسوف أظل أقول ذلك . فدينى هو الإسلام ، وأمتى أيضا هى الاسلام . « ملة أبيكم أبراهيم هو سماكم المسلمين » [١] .

١ – وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير (الآية رقم ٧٨ من سورة الحج) .

وبسبب فطرتى التى فطرت عليها وطبيعتى التى نشأت عليها ، سلكت مسلك خدمة هذه الحياة الاسلامية التى هى حياة أمتى . وقاسى القلب أنواعا من الآلام فى سبيل ذلك . وقدمت أهلى وعيالى فداء . وكلما وجدت أى مسعى مناسب ضد أعداء الدين الإسلامى المبين ، لم أقصر فى التعلق بأسبابه . ولما كنت أدافع شفويا وتحريريا ضد الأجانب ، فقد أجبرت على المجاهدة ضد مدعيى الإسلامية مرات عديدة . ليس ضد مدعيى الإسلامية فقط . بل ربما حتى ضد الوجهاء الكرام الذين يحملون لقب علماء الإسلام . فقد بلغوا درجة غريبة جدا فى تكفيرهم لى . ولم يبق هناك افتراء أو بهتان لم يقدموا عليه . إلا أننى لم أيأس ولله الحمد ثم لله الحمد . بل إننى ثبت على مبدئى . وكلما زاد شوقى واشتياقى تركت له العنان . وفى كل الحالات عملت بالآيات القرآنية البينات وتفاءلت بها .

وتمشيا مع هذا المسلك فضلت أن أقوم بسياحة طويلة هذه المرة امتثالا للأمر القرآنى الجليل « سيروا فى الأرض[١] » . ولم يكن أمامى قائد أو ورائى سائق[٢] . إلا أننى حزمت أمرى ، وأخذت بيدى عصا التوكل . وجريا وراء الآمال المقدسة إعلاء لكلمة الله بنية خالصة وترويجا لفكرة الاعتصام بحبل الله وتقويتها ، تركت أهلى وعيالى وأطفالى الأعزاء (فلذة أكبادى) وديعة لله . وخرجت إلى الطريق وأنا أقول : « يا الله » ..

* * *

ورغم أن القرآن الكريم يشوقنا نحن المسلمون ويرغبنا كثيرا فى السياحة ، قائلا : « سيروا فى الأرض فانظروا[٣] ... » إلا أن المسألة وصلت إلى حد عدم وجود أصحاب الهمة المولعين بهذا الموضوع بين المسلمين فى السنوات الأخيرة مع الأسف . وإذا كانوا يوجدون ، فلا علم لنا بهم .

١ – قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير . (الآية رقم ٢٠ من سورة العنكبوت) .

٢ – مثل تركى معناه : لم يسبقن أحد فى هذا المجال كى أقتدى به ، ولا كانت هناك دوافع أو محركات تدفعنى إلى هذا العمل . (المترجمة) .

٣ – الآية رقم ٢٠ من سورة العنكبوت المذكورة عاليه .

كنت دائم التفكير فى القيام بسياحة طويلة منذ زمن بعيد . إلا أن الوقت انقضى بين السهولة الشاملة وبعض العقبات . وكنت قد تشبثت بحزم بهذه الفكرة منذ خمس سنوات أو ست سنوات . إلا أن الثورة التى ظهرت فى روسيا فى تلك الأثناء أحدثت قلاقل واسعة المجال بين الأمم(١) ، وأدت إلى حدوث حركات من اليقظة فى بعض الأماكن . ولأن إخواننا المسلمين دخلوا فى هذه الدوامة ، فإن الانشغال بمستقبل الأمة الذى ظهرت ملامحه ، والمهمة المقدسة الخاصة بالمحافظة على الحقوق المتعلقة بأمة المسلمين فى روسيا وديانتهم ، استوجب تأخير السياحة التى كنت قد عقدت العزم عليها إلى وقت آخر .

ولم تكد تظهر مسألة الثورة فى روسيا حتى أقدم التتار على إبراز وجودهم السياسى كأول رد فعل . ولم تكد تتكون فى بطرسبورج فرق ، حتى اتخذ قرار بضرورة إنشاء فرقة مستقلة للمسلمين الموجودين فى روسيا بعامة سميت « وفاق المسلمين » . واستناداً على هذا الأساس شكلت الفرقة . وكان المطلب الأساسى لهذه الفرقة ، عبارة عن بذل المساعى لاستحضار القوة الدافعة التى تتناسب مع هذا الاسم . وإذا كانت القلاقل قد ظهرت بشكل سافر ، فقد تصرف المسلمون تصرفا مشرفا ، ولم يقصروا فى واجباتهم . لدرجة أن الإدارة والإجراءات فى قازان نفسها أخذت من يد الحكومة وانتقلت بكاملها تحت تصرف الأمة فى فترة من الفترات . وأخذ المسلمون إدارة أحيائهم فى أيديهم فى هذه الأثناء ، كما تحكموا فى إدارة الأحياء التى يسكنونها فى قازان . ومثل ذلك حدث بالنسبة لإدارة أنفسهم بأنفسهم خلال ثلاثة أيام . وقاموا بالإضراب عن العمل فى أماكن الإضراب عن العمل . ولم يهملوا أى تحرك بقدر ذرة قط . بل إنه عندما أدارت الحكومة البلاد بالأحكام العرفية الغريبة ، تمكن اثنان من الرجال من جمع مئات من المسلمين فى الأيام التى كان الاجتماع فيها محرماً فى فترة من الفترات ،

١ – حدثت الثورة الروسية ١٩٠٤ م . (المترجمة)

(مقال فى دائرة المعارف الإسلامية الخاصة بأوقاف الشئون الدينية التركية ، كتبه الدكتور مصطفى أوزون الأستاذ بكلية الإلهيات بجامعة مرمره باستانبول تحت عنوان (عالم إسلام) ، وهو نفس عنوان كتاب عبد الرشيد ، م ٢ ص ٣٦١ ، ٣٦٢ استانبول ١٩٨٩ م) .

وتباحثوا فى المصالح والأمور الهامة . ومن ناحية أخرى أنشأوا مطابع متعددة . ووفقوا فى إصدار من ٢٥ - ٣٠ جريدة . وبدأوا يدافعون دفاعا فعليا عن طريق عالم المنشورات عن الحقوق المشروعة للمسلمين جميعا .

وفى أعقاب ذلك افتتح « مجلس الدوما »[١] ، فأصبح المسلمون فيه يدا واحدة . وقبل أن يظهر عليهم العجز والإهمال أصلا سواء فى زمن الانتخابات أو فى « دوما » الأول والثانى ، أظهروا كيانهم السياسى بفضل المحافظة على حقوقهم القومية والدينية بكل اهتمام .

ولكن يالأسف ، ففى روسيا تتضاعف ظلمة الاستبداد . وعندما أحاطت بالآفاق كى تطبق عليها ، أخذت الحكومة المستبدة بيدها زمام العنف والتعصب . وداست على الحقوق الإنسانية والمدنية وقيدت الحريات واستولت على المطابع ، وكسرت الأقلام ، وأغلقت الكثير من الجرائد ، وأودت بالكثيرين إلى دار الراحة الأبدية[٢] .

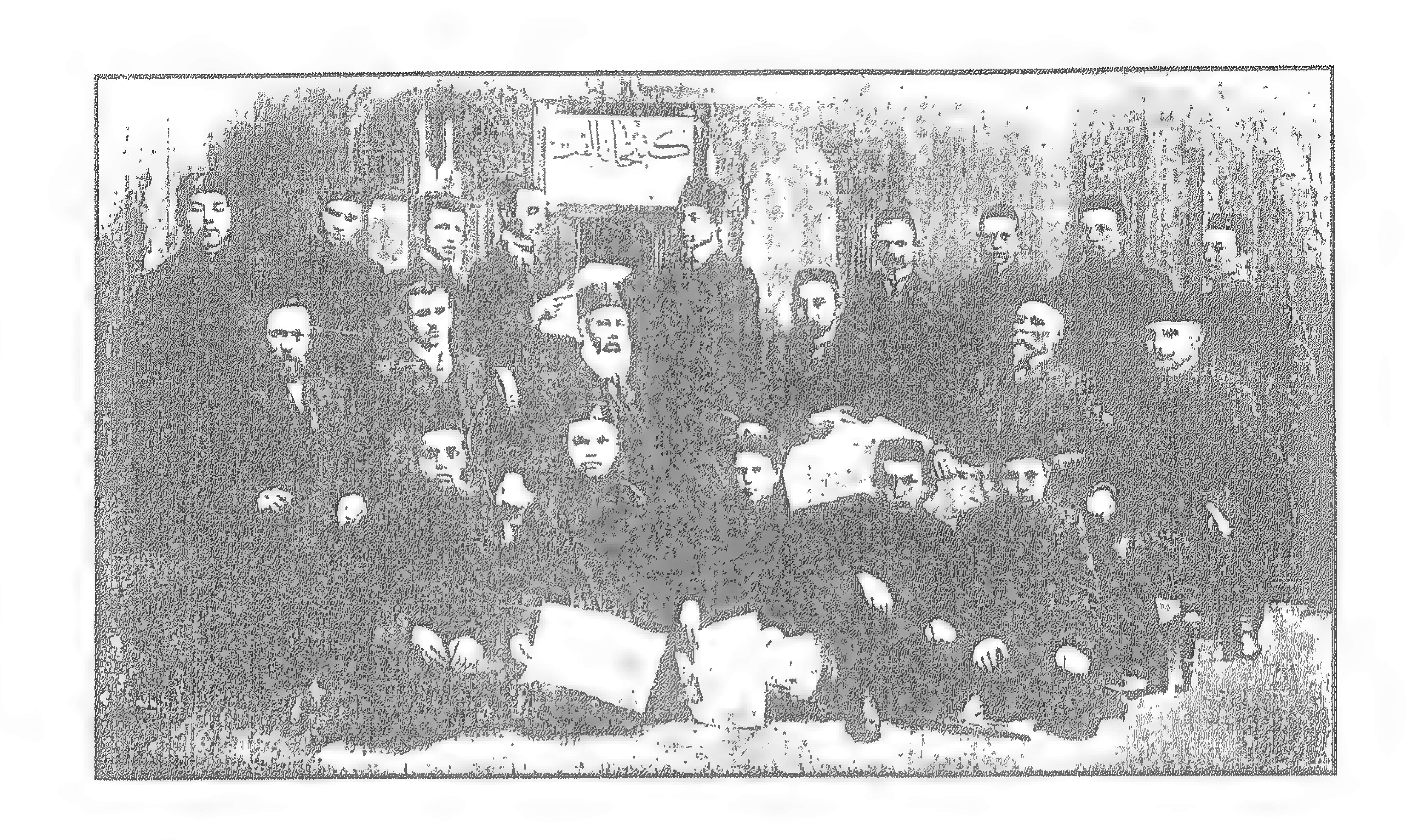
وفى هذه الأثناء أغلقت جرائدنا العربية والتركية التى كنا نصدرها نحن أيضا . وخرجت مطبعتنا بالقوة المسلحة [٣] . وتمشيا مع الدستور القائل « القبطان هو الذى أنقذ نفسه » ، اخترنا السياحة التى فكرنا فيها منذ القدم ، وعزمنا على التوجه إلى تركستان .

عبد الرشيد إبراهيم

١ - « مجلس الدوما » هو اسم البرلمان فى الروسية ويعتبر المجلس التشريعى منذ العهد القيصرى الروسى حتى الآن . وقد افتتح رسميا ١٩٠٥ م كما سيأتى ذكره . (المترجمة) .

٢ - حدثت الثورة الروسية ١٩٠٤ م ، وساد شىء من الحرية لمدة ٣ سنوات فقط . (د . مصطفى أوزون : المرجع السابق ، ص ٣٦١) . (المترجمة) .

٣ - تظهر فى الصورة هيئة الإدارة الخاصة بمطبعتنا عندما أغلقت . . المؤلف)



هيئة تحرير جريدة « ألفت » التى أغلقت من قبل
الحكومة الروسية ، وهيئة الإدارة الخاصة بالمطبعة والمكتبة

تركســـتان

تركستان

تركت عائلتى فى وطنى الأصلى بلدة « تارا » فى أواخر سنة ١٩٠٧ م ، وعقدت العزم على زيارة تركستان .

والمدن التى مررت بها وأنا فى طريقى إلى طشقند ، هى : أومسكى وپتروپا ولوڤسكى (قزليار) وچيلابى وأوفا وجنيل وأورنبورج وآقتوبه وآق مسجد وتركستان وطشقند .

طشقند

بينما كانت طشقند حاضرة إسلامية منذ أربعين عاما ، أصبحت اليوم ولاية روسية ومركزا إداريا لولايات كل تركستان وفرغانة وسير دريا (نهر سيحون) .

ومع أن طقشند تبدو من الخارج مدينة واحدة ، إلا أنها من الداخل تنقسم إلى حيين وكأنهما بلدان . بمعنى أنه رغم أنها مدينة واحدة إلا أن بها نوعين من التقسيم الإدارى : أحدهما يسمى الحى الروسى والآخر يسمى الحى الإسلامى .

والحى الروسى يعيش فيه الروس ، وإذا وجد فيه مسلمون فهم أقلية . ورغم ذلك فأغلبهم ليسوا من السكان الأصليين بل تتار جاءوا من داخل روسيا . (ويطلق المواطنون على التتار اسم « نوغاى » ، كما يطلق كل التركستانيين لقب نوغاى أيضا على تتار روسيا) .

أقام الروس فى الجزء الخاص بهم من طشقند أبنية مرتبة للغاية ومتاجر وشوارع جميلة وأرصفة منظمة ، وأضواء الكهرباء وغيرها على النظام الأوربى . أما طشقند الإسلامية فعلى العكس من ذلك لايزال الوضع فيها كما كان منذ ٥٠٠ عام ، حيث يتعذر التجول داخل المدينة من منزل إلى آخر فى فصل الربيع وفى فصل الخريف ، فيها وحل كثير لدرجة يستحيل على الإنسان معها وصفه ،

حتى أن الحيوانات لاتستطيع أن تجتاز بعض الطرقات . ورغم ذلك فالمدينة هى المدينة ، إنها طشقند . إدارتها واحدة ، ودخلها (إيرادها) واحد ، والغالبية العظمى من أهاليها مسلمون . تؤخذ الإيرادات من منازل المسلمين ، أما المصروفات فتنفق على شوارع المسيحيين .

ليس هذا فى طشقند وحدها ، بل أن هذا الوضع يشمل تركستان بأكملها فقد نظف الروس سمرقند وعمروها ، وجعلها المسلمون[1] كثيرة الوحل . وعمَّر الروس خوقند ونظموها . أما خوقند المسلمين فلا يستطيع المشاة (المارة) أن يمروا فيها ولا حتى الحيوانات . جعل الروس « مركَلان » هكذا أيضا . أما المسلمون فقد جعلوا « مركَلان » تليق بهم ! وإلى غير ذلك .. أينما تذهب فالقوة الحاكمة هى قوة الروس وإدارة البلاد وتوجيهها فى قبضتهم أيضا . والإيرادات تغطى المصروفات كلها فى شوارعهم وليكن مايكون فى طرقات المسلمين ، فلا توجد نقود للصرف عليها ، ولاتوجد أرصفة أو مصابيح ، ولا يوجد أى شىء قط .

لا لزوم للنظام إلى هذا الحد لدى المسلمين ياويلتى ! لكن أصل المسألة ليس كذلك . فلربما إذا لم توجد أرصفة منظمة ، فإنهم يستطيعون أن يفعلوا شيئا كالذهاب والإياب من جار إلى آخر بكل سهولة ، لكن هذا فى نظر الأجانب القادرين من الخارج يعبر عن « استهتار المسلمين » . ولا أقل من أن يقولوا عنهم إنهم غير مهيئين لأخذ العبرة من جيرانهم أيضا ، كما أن الإسلام يربيهم على هذا النحو ! ولن يتوقفوا عن إسناد التقصير فى هذا المجال بالإسلام أيضا . إن العمى فى الإنسان شىء عجيب ، إنهم لا ينظرون إلى الظلم الواضح وإلى التعسف الصارخ الواقع عليهم ، بل يتجرأون على اتهام الإسلام بالقصور دائما ، إنهم ينسبون مسألة أرصفة الشوارع للمسئولين عن الدين .

ولأن طشقند المسلمين مدينة قديمة ، فإن شوارعها ضيقة فى واقع الأمر . ولكن هل يصح القول بأن الشوارع الضيقة لا يمكن إصلاحها ؟! لعل من السهل

١ – فى الأصل : الإسلام ، ويقصد المؤلف بها المسلمين . (المترجمة) .

إقامة الأرصفة للشوارع الضيقة ، حيث يمكن إصلاحها بمصاريف قليلة . ومادامت إدارة البلدية واحدة ؛ فإن إيرادات البلدية واحدة ، ومهمتها إنشاء الأرصفة وإنارة الشوارع . لماذا تصلح البلدية الحى الروسى وتنيره ، ولا تنير حى المسلمين أو تنظفه ؟! لماذا لا تصلحه ؟! ألا ينبغى التفكير فى ذلك ؟!

ولفهم الحقيقة بشكل أوضح ، علينا أن ندقق فى هذه الحسبة . يبلغ تعداد طشقند ٢٠٠ ألف نسمة ، ١٨ ألف منهم من المسيحيين والباقى من المسلمين . وفى إدارة بلدية طشقند مامجموعه ٧٢ موظفا ، ٢٤ منهم من المسلمين والباقى من المسيحيين ، وجميعهم يخضعون لعملية الاختيار . ولكن هكذا وُضع قانون البلدية . ومهما كان عدد المسلمين أكثر فى المدن التى يختلط فيها الروس بالمسلمين ، فإن عدد موظفى البلدية من المسلمين يبلغ الثلث ، ولايمكن أن يزيد عن ذلك أبداً ومن المعروف أن أعمال البلدية تتم بناء على أغلبية الآراء . وعلى هذا الوضع ، أين توجد الإنسانية ؟! وأين المساواة ؟! وأين تكون معاملة هؤلاء ؟! هكذا مدنية القرن العشرين !

فى طشقند وفى كل تركستان حال غريب يضاف إلى ذلك ، يدعو للحيرة والدهشة . فالتتار الذين قدموا من روسيا إلى هذه المدينة كثيرون . (ويوجد تتار أيضا فى كل ولايات تركستان ، يطلق عليهم التركستانيون اسم « نوغاى » كما سبق أن قلنا) ولا توجد مساواة مع هؤلاء النوغاى أيضا ، رغم أن أكثرهم كانوا بالجيش الذى غزا تركستان ، حيث جاءوا إليها مع الجيش الروسى . لقد حاربوا إخوتهم فى الدين . واستقروا فى هذه المناطق عند الإستيلاء على تركستان . وتزوج بعضهم ، وأصبح صاحب أهل وعيال . وتوطن بعضهم الاخر فى جماعات هناك . وأصبح كل منهم يملك منزلا أيضا .

أما الآن ففى هذه التطورات الأخيرة وضع قانون خاص بولاية تركستان من قبل الحكومة الروسية ، مؤداه « أن النوغاى لن يكونوا أصحاب أملاك غير منقولة فى عموم تركستان » . وهكذا أجبر النوغاى حاليا على بيع بيوتهم فى تركستان كلها . باعوها جميعا . وإذا لم يبيعوا بمحض إرادتهم فإن الحكومة تقوم بالبيع

عن طريق مزاد الجَرَاج . وكان هذا أيضا مكافأة للنوغاى الذين أراقوا دماءهم ضد إخوانهم المؤمنين أثناء الاستيلاء على تركستان !

مكثت شهرا واحدا فى بلدة طشقند هذه ، قابلت خلاله كثيرا من الرجال من العلماء والأعيان ، وتعرفت عليهم وصاحبت الكثير منهم . وأود أن أعرض هنا خلاصة المعلومات التى استطعت أن أستقيها منهم .

وضعت الحكومة الروسية قانونا خاصا لإدارة عموم ولاية تركستان ، فصل إدارة تركستان كلها عن الإدارة داخل روسيا ، وفرق بينهما . فشعب تركستان المسلم ليس صاحب حق فى المواطنة الروسية اليوم . وكل القوانين والقواعد المعمول بها فى تركستان طبقت رغم أنف السكان الأصليين . فكما قلت من قبل ، طشقند اليوم ولاية روسية . إلا أن الطشقندى ليس من تبعة[1] روسيا . وإذا قلنا أن الطشقندى من التبعة المسلمين ، فمن الأنسب أن نقول إنه أسير ، لأنه لا يستطيع أن يحصل على معاملة التبعة ، خاصة وأن نوغاى طشقند ليسوا من السكان الأصليين . ولو كانوا من التبعة ، لاستطاعوا أن يتخذوا لهم من طشقند وطنا ومسكنا.

سأعرض عليكم مايلى أيضا :

طشقند ولاية إلا أن بها حاكماً عسكريا فوق العادة فضلا عن حاكم الولاية ، يقال له « الوالى الجنرال » [2] . ورجل فى هذه الوظيفة ليس حاكما مطلقا على طشقند وحدها ، بل هو حاكم مطلق على عموم ولاية تركستان . وهو صاحب الحق فى عدم التقيد بالقانون فى المسائل الخاصة بتركستان عند الضرورة . ليس فقط ولاية تركستان ، بل إن إمارة بخارى أيضا توجد تحت أمر من يشغل هذا المنصب وتحت تصرفه فى كثير من المسائل . وبالذات أمير بخارى إذا رجع إلى « بطرسبورج » فى أمر من الأمور ، فعليه أولا أن يحصل على موافقة من يشغل هذا المنصب وعلى رضاه . وتعتبر هذه الوظيفة فى نظر الأهالى المحليين

١ – التبعة أى الرعية (المترجمة) .

٢ – يمتلك « الوالى الجنرال » امتيازات واسعة .

وظيفة مرموقة ، حتى أنهم يبدون نحو من يشغلها الاحترام ويقولون عنه إنه بمثابة نصف سلطان وحياة تركستان وبقاؤها مرهونان بتصرف نصف السلطان هذا وتحت أمره . وإذا أخذ بعين الاعتبار مدى ما تكتسبه طشقند من موقع كبير باعتبارها مركزاً لهذه الوظيفة ، فإن الإنسان لايستطيع أن يعيير هذا المركز أى اكتراث نظراً لوجود الوحل فى الحى الإسلامى . ولايمكن التصديق عادة فى أن يكون هناك حى لايمكن المرور فيه فى مركز كهذا كما سبق أن أوضحنا . أى حى هذا الذى به ١٨٠ ألف نسمة ؟! إننى أستطيع أن أقول بشكل قاطع أنه لايوجد سائح أوربى واحد كتب عن وجود مدن كهذه فى بلاد تركستان . وإذا وجد من كتب ، فلابد أنه ألصق بالإسلام التقصير على الإطلاق .

قام مسلمو طشقند بالبحث فى هذاالحال المحزن ، واتصلوا بالحكومة بهذا الخصوص عدة مرات ولا زالوا يتصلون ، لدرجة أنهم أرسلوا أيضا نوابا خصوصيين عنهم إلى بطرسبورج . كما أن نواب طشقند فى مجلس البرلمان الثانى طرحوا هذه المشكلة على لجنة المباحثات . لكنهم لم يستطيعوا أن يعثروا على شخص واحد يستمع إليهم ، حتى أن بعض نواب البرلمان « دوما » لم يستطيعوا أن يصدقوا كلام نواب طشقند .

تعتبر طشقند اليوم مركزا تجاريا كبيراً فى تركستان . يأتى إليها التجار من المراكز الأوربية بقصد البيع والشراء . ويوجد بها أصحاب رءوس أموال من بين المسلمين أيضا . وإذا كان أغلبية المشتغلين بالتجارة من بين اليهود المحليين على أى حال ، فإنه يوجد تجار كبار محترمون من بين المسلمين أيضا . وفى السنوات الأخيرة حصلت تجارة القطن الذى يقولون عنه « الأمريكى » فى عموم تركستان على وضع مميز . واليوم توجد مصانع متعددة لحلج القطن ، تتركز الأعمال الهامة فيها فى يد المسلمين .

ولكن الشيء المحير والمحزن حقا هنا ، هو أنه لا توجد مدرسة واحدة حتى اليوم من أجل مسلمى تركستان[1] . ويندر وجود أحد يعرف اللغة الروسية من

١ - المقصود أن الروس لم يبنوا مدرسة واحدة من أجل مسلمى تركستان ، كما سيتضح فيما بعد . (المترجمة) .

بين المسلمين المحليين . وبسبب خوف المسلمين من المبشرين ، فإنهم لا يستطيعون أن يرسلوا أبناءهم إلى المدارس الروسية حتى اليوم . وبهذا الشكل وقع كل مسلمي تركستان فى بحار الجهالة ، وابتلوا بفساد الأخلاق والمسكرات ، وقطعوا فيهما شوطا كبيرا بسرعة فائقة . وكلما رأى الإنسان هذه البلاد ، فإنه يقول عادة « إن أمة تركستان أمة محكوم عليها بالموت » . ومع ذلك فإن المدارس الابتدائية الصغيرة التى أنشئت بفضل همم المسلمين فى كل بلاد تركستان والمدارس الباقية منذ زمن بعيد ، تمثل البرق الذى يلمع أحيانا فى الليالى الطويلة المظلمة . وهذا مايجعل بعضا من آمال المسلمين تستمر ولاتنقطع . وإذا ظهر أثر للحياة ، فإنه سيظهر من خلال هذه الأشياء .

ورغم أنه قد مضى على احتلال تركستان ٤٥ عاما ، إلا أنه لاتوجد للمسلمين مدرسة عالية واحدة ، فى حين أكمل الروس مدارسهم العالية . وليس من المأمول إنشاءها للمسلمين فى وقت قريب أيضا .

وشعب طشقند يتميز بحب الضيوف وعلو الهمة والألفة ، وهو صاحب استعداد فطرى فوق العادة وصاحب ذكاء متقد . ويوجد من بينهم رغم قلة العدد رجال يجيدون التحدث بالروسية والنمساوية بطلاقة ، رغم أنهم لم يصيبوا أى حظ من التعليم قط . باللأسف ، لايوجد تقدير حالى لضرورة التربية القومية . وإذا كان هناك اتجاه يبعث على الأمل ، فهو أن مسلمى طشقند خرجوا بالتجارة إلى كل النواحى . فقد طرقوا أبواب التجارة فى موسكو وفى بطرسبورج وفى البلاد الكبيرة الأخرى . وسيلمس أولادهم الفكر القومى فى الأماكن التى يذهبون إليها دون شك . وبهذه الصورة سيتحولون بأنفسهم من العجز إلى القوة فى المستقبل .

وشعب طشقند أوزبكي في الأصل أو من أصول تركية مختلفة ، ولغته هي اللغة التركية الأوزبكية الخالصة . ومع ذلك يوجد بينهم كثير من المتحدثين بالفارسية أيضا ، والمهتمون بالشعر الفارسي والأدب ليسوا نادرى العدد كذلك .

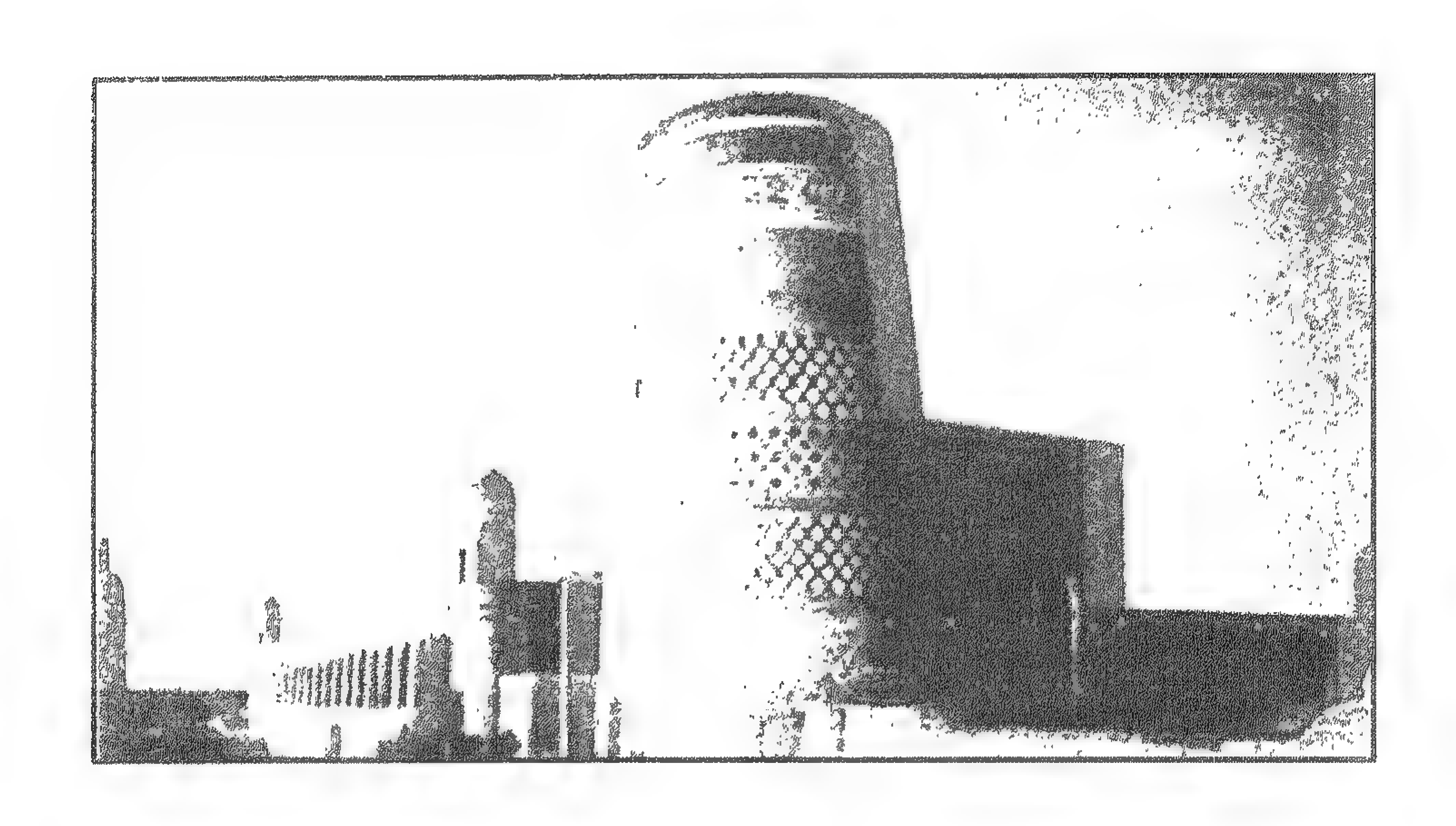
ولا أعرف السبب وراء شيوع اسم « السارت » (1) بين مسلمي عموم تركستان وبخارى على المسلمين من السكان الأصليين . ويستعمل التتار والروس بنوع خاص هذا الاصطلاح . إلا أن أغلب « السارت » لايقبلون هذا ، حتى أن بعضهم لا يستحسنونه عادة ، ويطلقون على أنفسهم تسمية « شهر خلقي » أي شعب المدينة .

وتوجد في طشقند آثار عتيقة مثل المدارس الكثيرة والمساجد الضخمة– . وقد افتتحت من قبل الحكومة مكتبة بسيطة ومتحف صغير أيضا ولا يوجد هناك شيء آخر يستحق الذكر .

١ – استعمل الأتراك كلمة « سارت » في البداية بمعني (تاجر) وظلت تستعمل بهذا المعنى حتى القرن الحادى عشر . وثبت الآن أن هذه الكلمة وردت على الترك من الهند ، ولابد أنها دخلت عندهم زمان كان أغلب الوافدين على الترك من التجار هنودا ، ثم انتقلت التجارة بالتدريج من أيدى الهنود إلى أيدى الايرانيين . ولم تكتسب هذه الكلمة عند الترك والمغول مدلولا عنصريا إلا في العهد الإسلامي وبعد القرن الحادى عشر ، فأطلقت على قوم من إيرانى آسيا الوسطى كان الآتراك يعتبرونهم قوما من التجار .

كانت خوارزم أقصى مواطن الترك في آسيا الوسطى نحو الغرب وكان أهاليها يتكونون – بالإضافة إلى الأوزبك – من السارت والتركمان . ولم يكن الأوزبك قد استعملوا بعد كلمة سارت بمعنى كلمة عجم أوغير تركي كما كان يفعل التيموريون . بل كانت كلمة سارت في ذلك الوقت تدل على سكان المدن ، وهم قوم يتكلمون التركية مثل الأوزبك ، ولكنهم يختلفون عنهم اختلافا كبيرا من الناحية الحضارية وفي العادات والتقاليد . (المترجمة) .

(بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان ، ص ٤١ . ٤٦) القاهرة ١٩٥٨ م)



مدرسة أمين خان التى أنشئت فى ١٨٥٢م فى خيوه بتركستان .

بخارى القديمة

قيمة بخارى القديمة وإدارتها الحالية

تركت طشقند ووصلت إلى بخارى التى كانت منبع العلم منذ القدم . إنها بلدة استحقت لقب « الشريفة » ، حيث يقولون عنها « بخارى الشريفة » .

وبخارى فى الحقيقة كانت بلدة تستحق التقديس فى زمانها . وإن يراجع الإنسان تاريخ أشهر رجال الإسلام ، فإنه يقرأ أسامى كثير من الشخصيات الكبيرة ، مثل : إمام المحدثين محمد بن اسماعيل البخارى ، والبيضاوى وعلماء الظاهر والباطن [1] الآخرين . لقد اشتهر عنهم اسم « علماء ماوراء النهر » . وهكذا استحقت بخارى فى زمانها لقب « بخارى الشريفة » بحق ، ومقر الحكم الإسلامى ومنبع علماء الدين وإلى غير ذلك من الأوصاف العظيمة .

والآن كيف حال بخارى هذه وعلى أى وضع تكون ياترى ؟ الآن أيضا بخارى إمارة إسلامية ممتازة . إنها بلدة يقترب تعداد سكانها من مليونى نسمة . والسامعون يظنون أنها بلدة مستقلة منذ زمن بعيد على وجه الاحتمال . إن إدارة بخارى فى الحقيقة تشبه مملكة مستقلة إلى حد ما ، حيث أن « عبد الأحد خان » صاحب الملك فى هذه المملكة أمير مطلق اليوم . إذا سئل هو نفسه يظن أنه أمير. إلا أنه لايستطيع أن يقول أنا صاحب المملكة . وعبد الأحد خان فى واقع الأمر دوق روسى وجنرال روسى ، لايستطيع أن يدخل بلدة بخارى . إنه يسكن فى قرية تسمى « كِرْمِنَةً » تبعد عن بخارى مابين عشرين إلى ثلاثين كيلومترا . لقد

١ - علم الظاهر هو علم الكلام والتفسير والفقه من الناحية الدينية ، وعلم التصوف والمنطق والحساب والفلك والكيمياء وعلوم الحياة والطب من الناحية العلمية ، أما علم الباطن فهو الغلو فى المذاهب والفرق الباطنية (المترجمة)

(Türkiye Gazetesi : Dînî Sözlük, s.1097 Istanbul 1994)

ظل مقر الحكومة فى قصرالحكم المسمى « أريك » فى بخارى خاليا لمدة عشرين عاما . وإن أقل إن اسم الأمير فى بخارى نفسها موجود وجسمه غير موجود الآن . فإننى أعتقد أن هذا القول يتفق مع الأمر الواقع .

والأمور الإجرائية فى بخارى الآن فى يد موظف يسمى « قوش بيى » ، يدير البلاد بموجب القوانين السماعية أى بموجب العادات المقننة . أما الأمور الشرعية ، فقد أوكلت إلى إدارة « قاضى كَيلاَن » شريطة أن يعمل بما يتفق مع كتب الفقه . وفضلا عن ذلك ، هناك مأمورية مرتبطة بالقوانين السمعية كذلك ، وهى من قبيل الإدارة المدنية وتسمى « الرئيس والمحتسب » . ومن سلطة هذه الشخصية المحترمة توقيع العقوبات (اللوم والتعنيف والتأديب) . وإن يرغب هذا الشخص نفسه فى أن يتصرف خلافاً للشرع فإنه يتصرف ولا ضير . فإذا رأى غيره يخالف الشرع ، فإنه يطرحه أرضا على الفور ويظل يضربه حتى يهلك .

وهذا الضرب أيضا لايخالف الشريعة . وأثناء الضرب لايحرك المضروب مرفق ذراعيه إلى أعلى ، ولكن يرفع يديه حتى كتفيه ثم ينزلهما . وثقل آلة الضرب التى تسمى « دَرَّه » ، تذكرنا بعصا « فهيم » المشهور التى تزن أربعة كيلوجرامات وكسور والمحفوظة فى متحف بروسه .

ويجرى هذا كله باسم العدالة ! ..

وهكذا حال الإدارة فى بخارى . ويوجد وكلاء لهذه المأموريات الثلاث فى كل الولايات أيضا ، ويتصرف كل واحد منهم وكأنه مستقل بولايته تقريبا . ولامانع لدى الروس من أن يطبقوا الأحكام الشرعية بتمامها فى بخارى وتوابعها . ويتم القصاص الشرعى أيضا عند الضرورة .

الزراعة والتجارة:

أراضى بخارى خصبة جدا ، وإيرادتها كثيرة جدا . ويوجد فى بخارى اليوم جميع أنواع المزروعات . كما تجود بالأغنام خاصة وهى تشكل أهمية كبيرة بالنسبة للأهالى حيث يكسبون كثيرا من تجارة جلود الحملان فى الربيع . وتجارة جلود الحملان هذه مشهورة جدا فى أوروبا . فعندما يولد الحمل يظل

عشـرة أيام أو خمسة عشر يوما على الأكثـر ثم يمسكونه ويذبحونه ويأخذون جلده . ولا يبـقون عليه أكثـر من ذلك لئلا تزول رقة مثل هذا الجلد وتختـفى ليونته. وهذا النوع من الجلد ذو قيمة عالية . إذ يتراوح سعره بين ١٠ ، ٢٥ روبلا (أى من ١٠٠ – ٣٠٠ غروش [١]) . ويعتبر من الزينات القيمة لدى السيدات خـاصـة . ويقـال لهـذا النوع من الجلود « قـراقـول » [٢] ، وتجـود به بخـارى وأفغانستان لاغير . ولايوجد فى أى مكان آخر فى العالم قط . وقد اهتم الأوربيون فى ذلك الوقت بإنتـاج هذا النوع فى بلادهم ، ولكنهم لم يوفـقـوا فى ذلك . لقـد اختصت الطبيـعة فى هذه النواحى بهذا النوع من الـ « قـراقـول » الذى يشبـه الماعز الصغير ذا الزغب الذى يجود به الأناضول . وتبلغ تجارة الـ « قراقـول » خـمسة ملايين روبل سنويا . إلا أن تجارة الأمير فى الـ « قراقول » تزيد على مليون روبل . ويقوم التتار فى السنوات الأخيرة بإرسال « قراقول » كثير جدا إلى أمريكا ، يكـسبون من ورائه أموالا طائلة . وتلقى أشغال القطن كذلك رواجا كبيرا . وهم يستفيدون الملايين من وراء هذين النوعين من التجارة .

العلماء والطلبة والمدارس والتحصيل :

ليس من المعلوم عـدد العلمـاء فى بخـارى . ولكن توجد بها مـائة مـدرسـة وسبعة وعشرون ألف طالب . وتحتوى المدارس على أبنية قديمة وضـخمة جدا ومنظمة لأن أوقافها كثيرة جدا .

١ – الغروش ، إحدى العملات التى سكت أيام الدولة العثمانية ، وقد كان سكها تقليدا للعملة الأوربية لكي تحل مكانها . وقد ظهرت لأول مرة ١٦٨٨ م (١٠٩٩ هـ) فى عهد السلطان سليمان الثانى عيارها ٨٣٣ وقطرها ٤٠ مليمترا ووزنها ٦ دراهم والغروش تساوى ٠,٠١ من الليرة الحالية .
(Mehmet Zeki Pakalin: Osmanli Tarih Deyim Leri ve Terimleri Sözlügü, ciltz , S.326 Istanbul 1971 (المترجمة)

٢– القراقول Karakul : اسم منطقة فى بخارى تجود بمثل هذا النوع من الحملان جيدة الفراء (المترجمة)

(Türkçe Sözlük, cilt 1, S.64 8)

وأكبر واردات تحصل عليها بخارى هى من عقارات المدارس . وعلى أى مايكون عدد الطلاب الساكنين فى حجرات المدارس فإن أصحاب الحجرات أصلا أغنياء وأصحاب رءوس أموال[1] .

وحتى قاضى كَيلان وكل واحد من المفتين يملكون حجرات جميلة فى المدارس العالية ، يغتنمون أوقافها . ويضطر الطلبة المساكين للنوم فى حجرات فارغة والنهوض منها . وإذا استطاعوا أن يناموا ويقوموا فى مثل هذه الحجرات الخالية ، فإن بعض المدرسين لايستطيعون النوم فى الغرف الخالية . ويأخذون من الطلاب مقدارا من النقود كبدل وقف للحجرة . . وإلا لقاموا بإجبار الطلاب على حضور دروسهم هم ، ويُجبر بعض الطلاب المساكين على تضييع أعمارهم فى حضور دروس مدرسين جهلة بسبب الحجرة .

وتوجد أوقاف رائعة من أجل المدارس تستحق التقدير والتبجيل حقيقة . ولكن ما الحيلة والوقف لايصرف على الموقوف من أجله ، لأنه يشكل خزانة واردات أبدية للأغنياء . والمدارس التى لها وقف دائم تبقى أوقافها ووقفياتها مستمرة على الدوام ، كالمدارس الموجودة حول الحرم الشريف فى مكتنا المكرمة والتى لاتعدو أن تكون أوقافها على هيئة ملك خاص تماما .

والأوقاف فى بخارى أوقاف دائمة . ولكن غرف المدارس عندما تباع لاتباع من أجل المال ولكن تباع من أجل المنفعة . بمعنى أن المشترى لا يمتلك الحجرة . ولكنه يصبح صاحب واردات الوقف السنوى للحجرة حيث يحصل على وقفها .

لماذا تبنى مدارس كثيرة فى بخارى ياترى ؟! لقد ورد بخاطرى هذا الموضوع فى فترة من الفترات ، ثم تأكدت أن الأغنياء فى بخارى وعموم تركستان كانوا يخصصون خيراتهم لبناء المدارس . فإذا أصاب الغنى رجلا ، فإنه يبنى مدرسة على قدر طاقته . وعندما يبدأ أى إنسان فى ممارسة التجارة والكسب يرد بخاطره فورا إقامة مبنى لهذا الغرض . ولايقوم بهذا العمل أصحاب الثروة فقط ، ولكن يقوم به الأصناف أيضا . والحال لاتزال كذلك حتى الآن . هناك مدارس فيها ١٥ – ٢٠ حجرة ، ومدارس أخرى فيها من ٤٠ – ٥٠

١ – الحجرة ، كلمة اصطلاحية تطلق على الغرف المخصصة لسكنى طلاب المدارس . وقد كانت فى تركستان ملكية خاصة فى الغالب . (المترجمة) .

(Pakalin, cilt 1,S . 847)

حجرة ، وكل حجرة يمكن أن تبنى حجرة أخرى ، حتى أنه توجد مدارس بها ١٤٠ حجرة ،١٥٠٠ حجرة ، ولكى تساعد الحكومة أيضا على بناء المدارس على هذا النحو فإنها كانت تلتزم بتأمين بقاء المدرسة وضمان رواتب الطلاب الساكنين فيها . وعلى هذه الصورة فإن كل من بنى مدرسة ، كان عليه أن يحضر طعاما قليلا لغرف المدرسة ويوقف الواردات للصرف عليها . والحال على ماهو عليه إلى يومنا هذا .

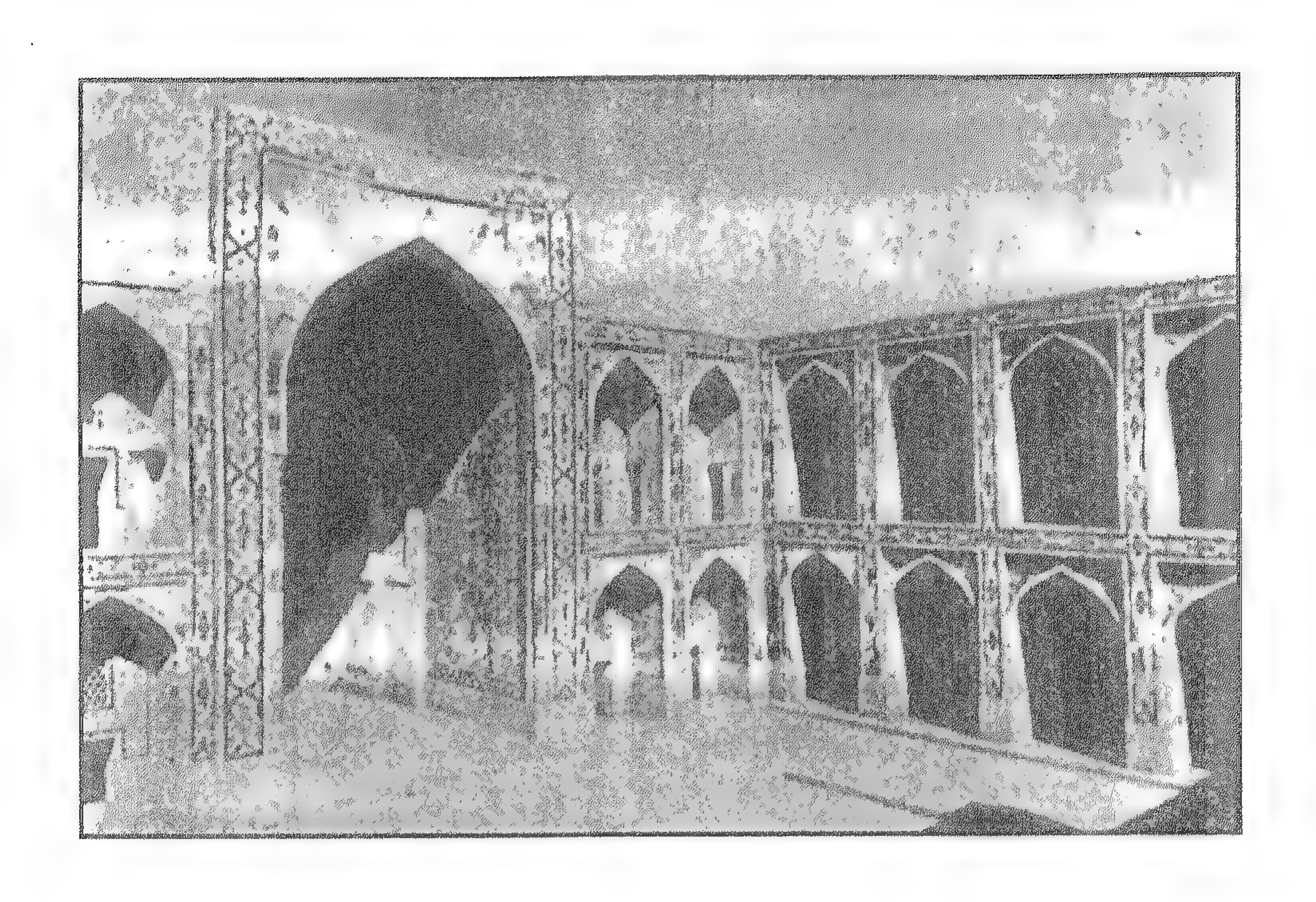
شاهدت مدرسة أحد سدنة القبور . لقد بنى مدرسة تتكون من عشرين غرفة بالنقود التى كان يكسبها من دفن الموتى فى القبور . ورغم أن المدرسة صغيرة ، إلا أنها منظمة للغاية . وعند الالتقاء به قال لى : « عملت باجتهاد حتى وقتنا هذا ، ودفنت أشخاصا كثيرين تحت التراب ، ولكن بعد هذا حداني الأمل فى أن أرفع من شأن من بقوا فوق سطح الأرض ، فقمت ببناء هذه المدرسة بتلك النقود .

إذا كان هذا الفكر لايزال باقيا لدى عموم أهالى بخارى ، فإن العلماء على العكس من هذا تماما . ففى رأيهم أن أصول التعليم قد اختلت . والتلاميذ يتعلمون مقدمة كتاب فى ظرف خمس سنوات . ويسكنون فى غرف المدارس لمدة تتراوح بين ٢٠ ، ٣٠ سنة . ويقضون عمرهم كله كالآلات فى تحصيل اللغة . وفضلا عن أنهم لايستطيعون التحدث بكلمتين اثنتين من اللغة العربية فى نهاية التحصيل ، فإنهم أيضا لايملكون القدرة على كتابة شىء باللغة العربية مكون من سطر واحد فقط . إن أصول التحصيل عبارة عن وضع يدعو إلى المرارة الشديدة . ولسان حال كل طلبة المدارس فى بخارى بالنظر إلى هذا الوضع الذى ينم عن اليأس يصرخ قائلا : نحن نسكن فى غرفنا فكيف ستعطون لنا فى حضور أصحاب الوقف يوم القيامة حساب أعمارنا التى ضاعت ولا زالت تضيع .

والاهتمام بين علماء بخارى وطلابها ليس مفقوداً تماما . وقد بدأ المدرسون الشبان يخضعون أعمال السابقين لميزان الأفكار فيما بينهم . والظن الغالب أن يحدث اهتمام فيما بعد . وهناك رجال يعترفون بأنه من الضرورى وجود نشاط بين بعض المدرسين ابتداء من اليوم ، ولكن لايمكن دفع التهاون والكسل اللذين

هما من طبع الطلاب بعامة فجأة . التقيت ببعض الوجهاء الكرام من العلماء . وتباحثت كثيرا مع سعادة قاضى كَيلان السابق . ومع أن سعادة قاضى كيلان غير مقتنع بضرورة إصلاح أصول التدريس على أى وضع ، إلا أنه يقول بضرورة إلغاء التكاليف التى لا لزوم لها بالنسبة لبعض الطلاب . من جملة ذلك مايقال عنه الافتتاح ، إنه عبارة عن بلية ، حيث يثقل كاهل الطلاب كل عام أثناء درس الافتتاح . لقد وضعت أصول الافتتاح من أجل منفعة المدرسين جميعا . فعند اختتام مرحلة التدريس كل عام ، يعمل درس افتتاح من أجل السنة القادمة .

والقاعدة المتبعة فى هذا هى أن الطلاب الذين يشهدون درس الافتتاح يحضرون معهم أنواعا من الحلويات والسكريات إلى مجلس بدء الدراسة . وهى مصاريف لا فائدة منها وكلها عبارة عن مظاهر . ثم يلبسون حضرات المدرسين الخلع الفاخرة الكاملة . ويجمعون النقود ويعطونها لهم . وإذا عرّفنا ذلك باختصار ، نقول : إنها على الغرض إتاوة ، إلا أنها فوق قدرة الطلاب . وهكذا اعترف المرحوم قاضى كَيلان بأن هذه أعباء لالزوم لها . ومع ذلك لا يطلب إلغاءها كلية ، لأنه يعتقد أن العملية عبارة عن عمل متكامل .



مدرسة أولوغ بك التى أنشئت عام ١٤١٧

الشحاذة :

إذا كان هناك عمل جميل يستحق الذكر فى بخارى ، فهو عدم وجود شحاذين داخل المدينة . والبخاريون بعامة أهل كسب وأهل تجارة ، فأينما يذهبون يمارسون الكسب والتجارة . والسائلون الذين يرون بين جموع الحجاج فى بعض الأماكن هم أصلا من تركستان الصينية . ولايمكن رؤية سائل واحد من بخارى .

الآثار القديمة :

إذا كان فى بخارى شىء ينظر إليه على أنه من الآثار القديمة ، فهى المساجد والمدارس . ومن ذلك أيضا أن المدافع والأسلحة القديمة الباقية من عهد تيمور تبعث على الدهشة . وفضلا عن ذلك يوجد مخزن للكتب القديمة فى الحى القديم . وإذا كانت هناك كتب كثيرة ، فهى مكتوبة بخط اليد ، ومن ذلك ماهو مكتوب منذ ثمانمائة عام أو ألف سنة . وتوجد كثير من المزاول ، فضلا عن الكتب رفيعة القيمة التى توجد ضمن هذه الكتب .

اللغة :

مع أن اللغة الرسمية لأهالى بخارى وهم جميعا من التاجيك[١] هى اللغة الفارسية ، إلا أن أكثرهم يعرفون اللغة التركية .

التعامل :

يتصف البخاريون بالاهتمام بالضيف والتواضع الجم مثلما تتصف الأمم الشرقية عموما والمعاملة فيما بينهم يشوبها الرياء بصريح العبارة ، وخاصة

١ – التاجيك فرع من الأصل الفارسى يسكنون فى جمهورية طاجيكستان إحدى الجمهوريات الاسلامية التى استقلت عن الاتحاد السوفيتى السابق . ومن الجدير بالذكر أن حوالى مليون طاچيكى يسكنون فى أوزبكستان ، وفى طاجيكستان أكثر من مليون أوزبكى حاليا . ولهذا السبب أثرت لغتا البلدين فى بعضهما البعض تأثيرات واسعة .

والطاجيك ستة أصناف يتحدثون الطاجيكية وهى إحدى اللهجات الفارسية ، وتشمل طاجيكستان مقاطعة تسمى « جورنو بدخشان » تدين بالمذهب الاسماعيلى النزارى .

(المترجمة) (Prof . Nadir Devlet : Büyük Islam Tarihi, S,.370 Jstanbul 1993)

نظرتهم للأمراء التى يبلغ التعظيم فيها حد العبادة . وهناك أشياء كثيرة ، والإنسان عموما مسئول عما يكتب . فمن الأمور العادية فساد الأخلاق وقتل بعضهم البعض .

الجندية :

إن أقَل فى بخارى لايوجد شىء يستحق أن يقال له الجندية تقريبا ، فهو جائز . ورغم وجود فرقة من الناس الذين يقال عنهم الفرسان إلا أنهم كسالى ، ولايكلفون بوظيفة ماعدا تناول الطعام والشراب فى المساكن كان يوجد فى الغرفة الواحدة شيوخ فى عمر الثمانين مثلما يوجد أطفال فى عمر الثامنة . حيث أن الذى كان يلتحق بالجندية لايخرج منها أبداً بموجب القانون . ولم يكن العميان والعرج والحدب قليلى العدد . ومع ذلك كان يوجد لهم ضباط وآمرون مناسبون . وعساكر بخارى رجال صلح وسلم فى حقيقة الأمر .

ولايخضع تجنيد العساكر فى بخارى لقاعدة عامة ، فإذا ارتكب رجل جريمة فإنه يجازى عليها بالتجنيد . والأغرب من ذلك هو أن تجد اثنين من المعتوهين يتشاجران عند باب منزل رجل لم يرتكب ذنبا قط . وإذا سألتهم فإنهم يقولون : « إننا نقوم بهذا الشجار من أجل ابن هذا الرجل » . وبهذا يتسببون فى أخذ ابن هذا المسكين للتجنيد . وهذا الذى يحدث يكون سببا فى إحداث فجيعة لهؤلاء الأبرياء . وبهذه الطريقة يوجد فى بخارى معتوهون يؤمنون معيشتهم ، ويهددون الناس الذين لا ذنب لهم ويأخذون منهم النقود .

العملة فى بخارى:

يوجد فى بخارى عملة مخصوصة لها : يوجد فيها عملة ذهبية وفضية وعملة ضئيلة القيمة ، ويعبرون عن النقود ضئيلة القيمة بكلمة « بول سياه[1] » ، وهذا

١ - تعتبر البارة أقل من الغروش ، والآقچة أقل من البارة ، والپول Pul(الفلس) أقل من الآقچة ، حيث يبلغ الغروش ٤٠ بارة ، والبارة ٣ آقچات ، والآقچة ٣ پولات (فلسات) وكلمة سياه تعنى أسود اللون حيث كانت الفلسات سوداء لاختلاط مادتها بالرصاص (المترجمة) .
(Mehmet Zeki Pakalin, cilt 2, s 781)
(Midhat Sertoglu : Osmanli Tarih Lügati, S.275, 276 Istanbul 1986).

يدل على قيمة النقود على وجه التخمين . والمتداول أصلا هو الـ « بول سياه » . ولا توجد عليه علامة للضرب ، ولكنه عبارة عن قطعة من النحاس الأصفر المسبوك .

وهكذا فإن مسألة النقود هذه على أى حال ، تذكر باحتمال وجود نوع من الاستقلال . وكان الروس يحاولون كثيرا فى فترة من الفترات إلغاء هذه النقود . ولكن مهما كان السبب الذى يستندون عليه ، فإنهم لم يستطيعوا أن يوفقوا . ومع أن الروس ضربوا النقود الورقية المخصصة لبخارى والتى تسمى « قائمة » ، إلا أن الإمارة لم توافق على ذلك ، ولم يصر الروس على موقفهم .

ورغم أن هذه المحاولات التى تصل فى حد ذاتها إلى درجة التصادم ، إلا أن إمارة بخارى أصبحت تحس بالاستقلال وظنت نفسها مستقلة . ولكن استقلال بخارى فى واقع الأمر يمكن أن يقال عنه أنه عبارة عن « عدم وجود موظفين من بين الروس داخل بخارى ، وعليه فإن البخاريين يقومون بأعمالهم بأنفسهم » . ويقيم الموظفون الروس والجنود الروس على بعد تسعة كيلو مترات من بخارى فى موقع يقال له « كاغان » . وعند الضرورة يأتى إلى بخارى موظف روسى واحد على الفور ويفعل كل مايريد ، ويتدخل فى كل الأعمال .

مستقبل بخارى :

لا يوجد هناك أمل يبشر بالخير فى حكومة بخارى سواء فى الحاضر أو فى المستقبل من أى جهة قط والحصول على المنفعة بعيد المنال جدا سواء من الناحية الدينية أو الانسانية من أجل البخاريين أو من أجل سائر المسلمين ، حيث توجد حكومة مستبدة منحوسة لاتنفع فى أى عمل سوى محو الاستعداد الفطرى للأمة البخارية خدمة لهوى عبد الأحد خان خادم الروس الذى يحمل لقب أمير . وهو الذى نهب أهالى بخارى مباشرة ، وجاء بحيلة يتستر وراءها لنقل النقود التى جمعها إلى بطرسبورج . إن أمير بخارى رجل عالى المقام لدرجة أنه إذا رأى الروس يمارسون عملا فى أى مكان فإنه يسعى إليهم وقد أكمل إعداد سفينة

حربية مدرعة فى بحر البلطيق ، صنعها من نقوده الخاصة وأعان الروس فى حربهم مع اليابانيين[1] عن طريق تقديم خمسة ملايين روبل إليهم على حد رواية !

تقابلت مع طلاب العلم عدة مرات . واختبرت الاستعداد الفطرى لديهم . ونظرا لوجود نوع من الاستعداد لدى قسم من طلاب بخارى ، فإن هذا يجعلهم قادرين على التعبير عما يريدون عند اللزوم . وعندما كنت لا أزال هناك بدأ موظف روسى يقطن فى « كاغان » بتفتيش بعض قصور بخارى . وقد نشرت أوراق مناهضة لهذا التصرف فيما بين الطلبة فى ذلك اليوم . وعلقت مقالات فى بعض الشوارع لإثارة الأفكار العامة . وشيوع مثل هذه الأحداث الجديدة كان باعثا لى على ترك بخارى مباشرة .

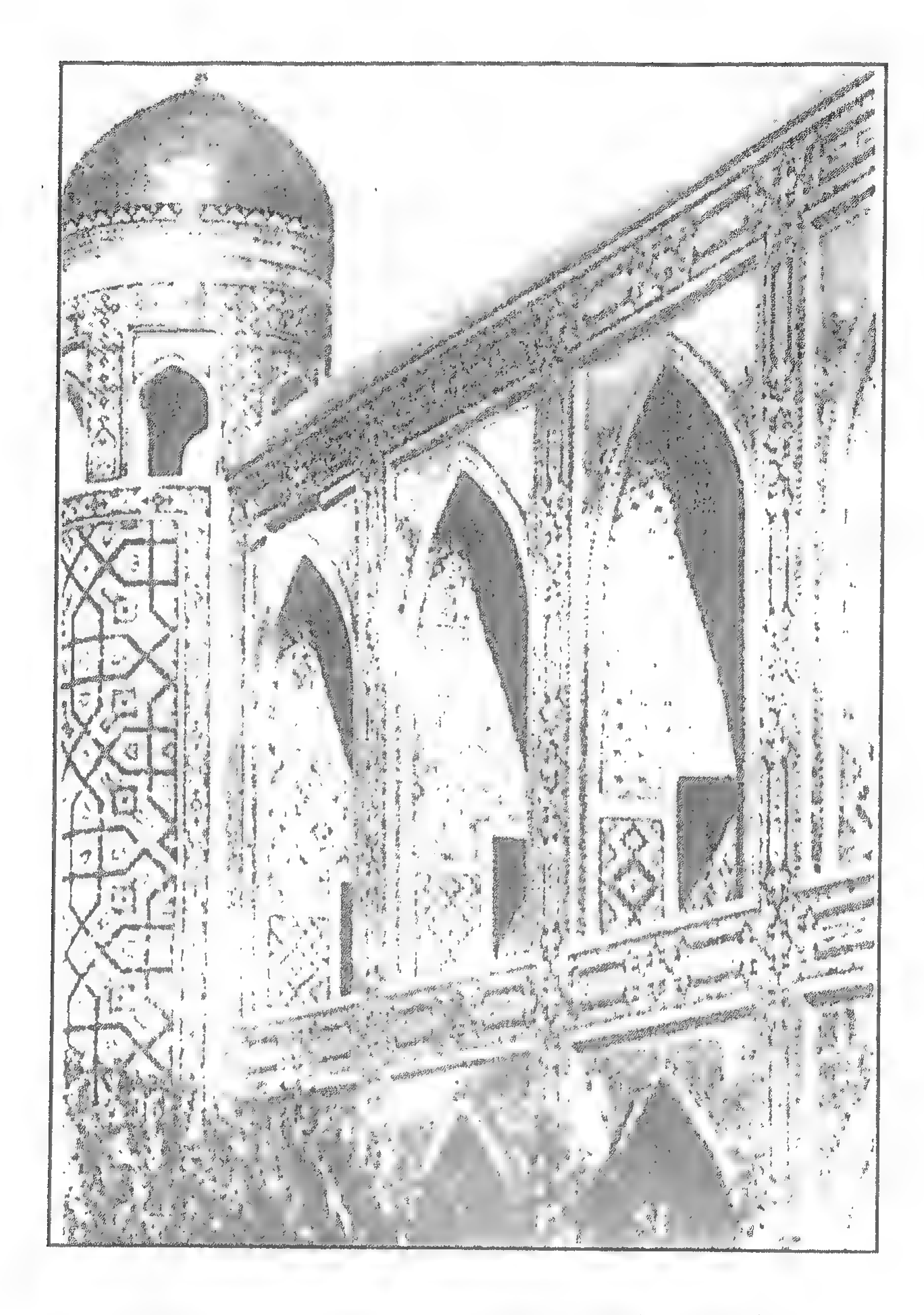
١ – وقعت هذه الحرب سنة ١٩٠٥ م ، وفيها هزم الروس أمام اليابانيين . (المترجمة) .

سمرقند

فى بداية شـهر فبراير ١٩٠٨ م فارقت بخارى ، ووصلت إلى سمرقند عن طريق « كَرمينه » و « كتاقورغان » .

كانت هذه البلدة المباركة القديمة مركزاً لآسيا الوسطى وهى التى كان يطلق عليها « رونق وجه الأرض » ، وكانت عاصمة لأبطال آسيا لفترات طويلة . أما اليوم فهى عبارة عن أنقاض وخرابات للمآثر الإسلامية القديمة . وتعداد سكان سمرقند يبلغ سبعين ألف نسمة تقريبا . أهاليها الأصليون من الأوزبك . ولفترة طويلة كانت سمرقند مصيفا لخانات بخارى . كما كانت لفترات طويلة مقرا لهجرة جميع الايرانيين . ولهذا السبب فإن عموم أهالى سمرقند لايتحدثون التركية فقط بل الفارسية أيضا . حتى أن فئة العوام الذين لايعرفون القراءة أو الكتابة يتكلمون باللغتين . وذلك لأن أهالى سمرقند عبارة عن قوم مختلط من عناصر إيرانية وأوزبكية .

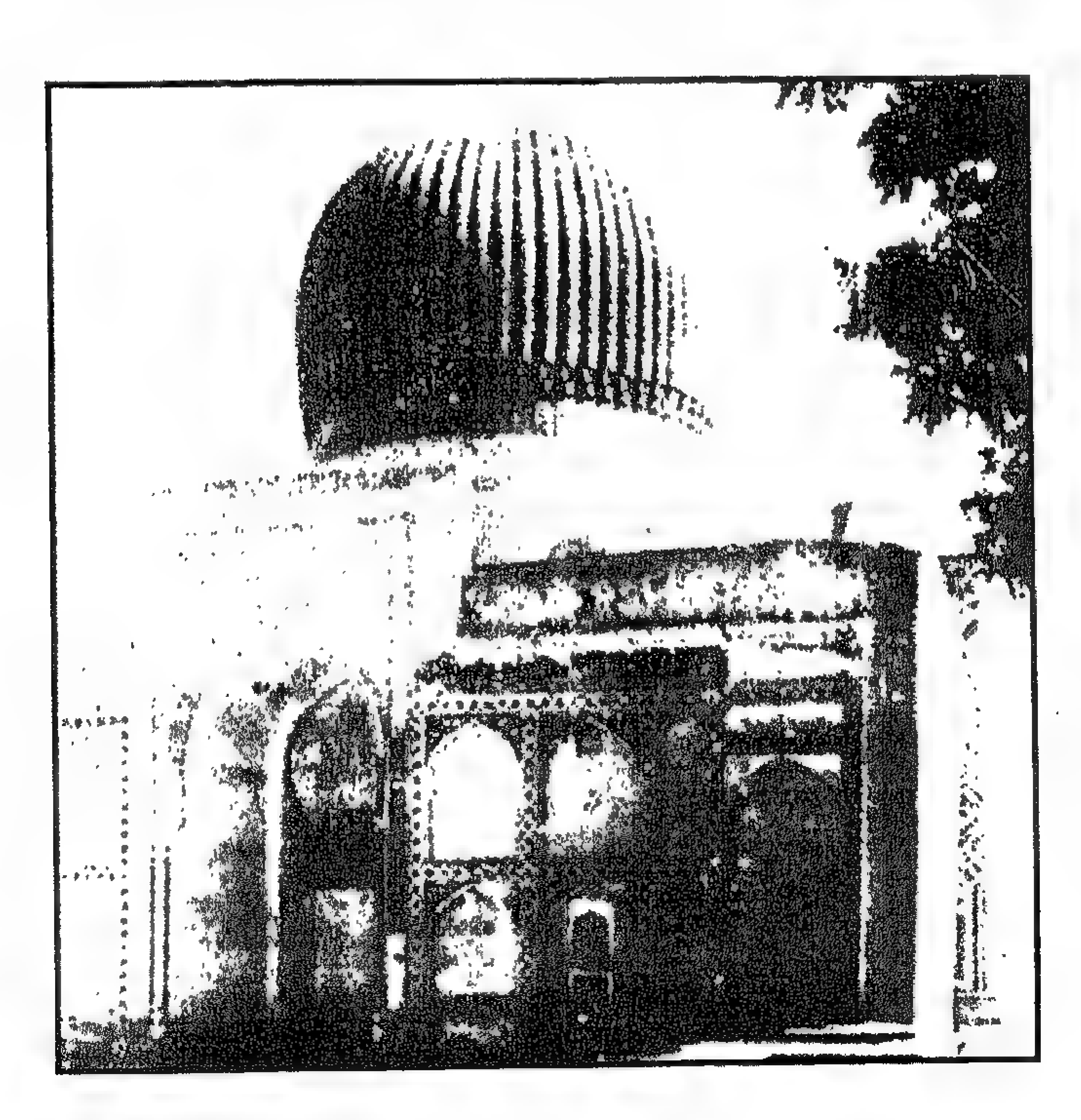
كانت سمرقند موئلا للعمل لفترات طويلة . وقد ازدانت وشرفت بمعاهد العلم الكبيرة والمراصد الضخمة . واليوم فإن بقايا هذا العمران عبارة عن أنقاض الأبنية الضخمة لمدرستى « ديلاكار » و « شيردار » . ولسان حال مرقد الأستاذ الشيخ « عبيد الله الأحرار » شاهد على أن سمرقند كانت منبعا للعلم لفترات طويلة فى الحقيقة . إن عظمة تلك المدارس الكبيرة التى أصبحت أنقاضا ومناظر الجوامع الضخمة التى ازدانت بالفنون النفيسة للفسيفساء من الداخل والخارج ، حيرت الألباب . ولاسيما المنارتان شديدتا الارتفاع والضخامة الواقعتان بجوار مدرسة « ديلاكار » ، والتى إذا أردنا أن نقيم منارة واحدة منهما فى هذه الأماكن اليوم ، لاحتاج الأمر إلى تضحية كبيرة ، فضلا عن أنه ليس من الممكن إبداع ذلك الفن وتلك النفاسة التى تحير الألباب فى فن المعمار .



مدرسة ديلاكار وهى آثر فنى عظيم أقيم فى ١٥ عاما ابتداء من ١٦٤٦ – ١٦٦٠ م

باللأسف ، لقد هدمت تلك النماذج الأثرية العتيقة بكاملها فى ظل حضارة القرن العشرين ، وسرقت تلك الحجارة المنحوتة بطريقة فنية واحداً فواحدا من قبل الأوربيين الذين يأتون لزيارة سمرقند على الدوام . وهناك مايدعو للحيرة أيضا ، وهو « أن المسلمين المتوحشين هم الذين أقاموا هذه المبانى[1] ، وقام الأوربيون المتحضرون بهدمها ولازالوا يهدمونها » . لازال المسلمون إلى يومنا هذا لا يهتمون بالمحافظة على آثارهم النفيسة العتيقة قدر ذرة ، ولن يستطيعوا أن يهتموا فى الوقت الحالى . ويقولون عن تيمورلنك خاصة أنه « سفاك دماء وعدو للمدنية ولا أدرى بماذا وصموا إنسانيته » . علما بأن الإنسان كلما رأى قبره أو مكتبته العظيمة ، يبكى دما .

١ - يتهكم الكاتب هنا على وصف الأوربيين للمسلمين بالوحشية . (المترجمة) .



قبر تيمورلنك فى سمرقند وهو أثر فنى يرجع إلى القرن ١٤ م

يقول الأديب المشهور چوكمالدين أحد المحررين الروس عن قبر تيمورلنك مايأتى : « إن الصناعات الفنية الموجودة فى قبر تيمورلنك أعلى من الفنون الحديثة إذا قيست بها . ماالحيلة فاليوم لايستطيع أحد منهم (الأوربيين) قط أن ينظر بعين البصيرة والإنصاف ، بل يبحث فى مساوىء المرحوم خاصة » .

إن القائمين على هذه الصنايع النفيسة اليوم فى سمرقند هم المسلمون . ورغم ظلم الروس وغدرهم فإن شخصا عالى الهمة يدعى « أمين جان » قام حديثا ببناء مدرسة جميلة للغاية على أصول الفسيفساء ، ولكنها صغيرة وتتكون من عشرين حجرة ، ثم افتتحها . وهو أصلا يشتغل بالتشطيبات الداخلية ، ومناظره التى يصممها من الخارج جميلة للغاية وبديعة إلى أقصى حد . كان بانى المدرسة يشتغل فيها وليس بنفسه ومعه ابنه . وأمين جان افندى رجل ضعيف البنية وأعرج ، وليس من الأغنياء ، ولكنه شخص صاحب همة عالية . وهو يخشى إلى أقصى درجة من ترك هذه الصنعة التى تعتبر ذكرى من أجل حياته الآخرة التى يعتبرها نموذجا لهذه الصنعة التى توارثها عن الآباء والأجداد .

ويوجد فى سمرقند اليوم وجهاء كرام وأصحاب همم تستحق أسماؤهم أن تكتب بالذهب على لوحات مقدسة . ولن نذكر أسماءهم احتياطا ، لئلا يصابوا بصاعقة الاستبداد . ومن المحقق أن التاريخ الإسلامى سيحافظ على أسماء هذه الشخصيات . يوجد فى سمرقند اليوم مدارس ابتدائية وإعدادية منظمة للغاية افتتحت من قبل أرباب الهمم . وكل واحدة منها تعتبر نموذجا لتركستان بعامة . ومنها مدرسة أسسها عبد القادر أفندى ويرعاها المفتى محمود خواجه ، وكلاهما من أبطال الأوزبك .

وفى سمرقند أنواع من المقابر وأماكن الزيارة وهى جميعا من الآثار الإسلامية القديمة ، ونماذج من الفن المعمارى ، يحار أمامها الآن معماريو العصر الحاضر . حتى أنه أعطيت مكافأة مسابقة قدرها عشرة آلاف روبل

(مايقابل ألفا ومائتى ليرة) للمهندسين الذين يخططون للبدء فى بناء مسجد فى بطرسبورج نفسها اليوم . وقد تم قبول الخطة التى تتمشى مع الأصول المعمارية السمرقندية المميزة والتى اختيرت من بين الخطط التى أعدت من قبل كثير من المعماريين والمهندسين الأوربيين .

سوف يكون مسجد بطرسبورج مماثلا لمقبرة تيمورلنك فى سمرقند . وإذا كان هناك فرق بينهما فإن القبر له منارة واحدة ، أما المسجد فستكون له منارتان . بنيت المقبرة على أصول الفسيفساء من الداخل والخارج . أما المسجد فسيكون من الخارج مطليا بالجص ومن الداخل بطلاء الزيت . وحتى الآن لم يتم البناء .

وليست فى سمرقند أشياء تستحق الاستحسان حاليا سوى تلك المبانى القديمة . كم كانت هناك آثار قديمة منذ القدم ، إلا أن الروس نقلوها جميعا إلى بطرسبورج ساعة استيلائهم على هذه البلاد . والكتب الإسلامية القديمة والآثار العمرانية النفيسة الموجودة فى المكتبة القيصيرية فى بطرسبورج اليوم نقلت كلها من سمرقند ومصحف عثمان الذى ينسب إلى سيدنا عثمان والمحفوظ فى المكتبة القيصيرة فى بطرسبورج حتى اليوم ، أخذ من سمرقند . وفضلا عن المصحف فإن كل الكتب النفيسة الموجودة فى مكتبة بطرسبورج نقلت من سمرقند .

مصحف عثمان :

هناك مصحف قديم محفوظ فى المكتبة القيصرية فى بطرسبورج نفسها اليوم ، ويشاهده الأجانب . وهذا المصحف الشريف ينسب إلى سيدنا عثمان ، ولهذا اشتهر .

وهذا المصحف الشريف كان موجودا فى مسجد « عبيد الله الأحرار » فى سمرقند قبيل الاحتلال الروسى . أما الرّحلة المصنوعة من المرمر المخصوص لحفظ هذا القرآن الكريم فلا زالت بالمسجد إلى يومنا هذا . إلا أن المصحف نفسه يوجد فى بطرسبورج ، حيث أرسله الجنرال الشهير « قاوفمان » إلى مكتبة بطرسبورج أثناء استيلاء الروس على بسمرقند فى ٢٤ سبتمبر ١٨٦٩ م . وأصل الحكاية أن الجنرال « مايوز أبراموف » أخذه نظير هدية قدرها مائة روبل بناء على فتوى أحد علماء مسجد « عبيد الله الأحرار » ويدعى الشيخ عبد الجليل والمفتى « ملا معين » اللذين قدماه إلى الجنرال قاوفمان . وبناء على رواية المفتى « ملا معين » والشيخ عبد الجليل ، فإن عبيد الله الأحرار أحضر هذاالمصحف الشريف من استانبول إلى سمرقند منذ أربعمائة سنة بفضل مساعيه الدائبة . ويوجد أثر دم سيدنا عثمان رضى الله عنه على هذا المصحف حتى اليوم . واستنادا إلى رواية فإن هذا المصحف هو المصحف الذى كان يقرأ فيه سيدنا عثمان أثناء استشهاده . وقد فاض دمه على المصحف أثناء قتله . ولازال أثر هذا الدم باقيا على المصحف إلى يومنا هذا كما يقال .

إلا أن أحد المحررين الروس المشاهير ويدعى « شيبونين » ألف كتابا خاصا عن هذا المصحف سماه « كوفچسكى قرآن » ، ألغى فيه احتمال قدم هذا القرآن المذكور إلى هذا الحد .

عندما أمر سيدنا عثمان رضى الله عنه باستنساخ المصحف الشريف الموجود فى يد أم المؤمنين حفصة ، قال : « فليكن عرض أوراقه بقدر كفين مستريحين » . أما أوراق المصحف الشريف المحفوظ فى بطرسبورج فهى بقدر أربعة كفوف مستريحة على أقل تقدير ، وعليه شىء يشبه أثر الدم فى الواقع .

ولكن احتمال وجود الدم ليس قطعيا . والخلاصة أن هذا القرآن ليس مصحف عثمان وهو أقرب الأقوال إلى الصواب .

وهذا القرآن موجود فى المكتبة القيصرية حتى اليوم ، وبعض أوراقه ناقصة . وفى فترة من الفترات طبع شخص يدعى « سيبراكوف » من هذا القرآن مائتى نسخة طبع حجر . وقد بيعت النسخة الواحدة منه بمائتى روبل .

ولاية فرغانة

توجهت من سمرقند إلى ولاية فرغانة . وتنزهت وأنا فى الطريق إليها فى خوقند ونمنكا ومركَيلان وأنديجان .

وكل هذه المناطق كما ذكرت سابقا عبارة عن بلدتين وحيين ، هما حى الروس وحى المسلمين . يوجد فى خوقند ٩٥,٠٠٠ نسمة . وعلى الرغم من وجود ٣,٠٠٠ نسمة فقط من هذا العدد من الروس ، إلا أن الحى الروسى منظم تماما . أما حى المسلمين فلا يمكن المرور فيه . وتأتى خوقند فى المرتبة الثانية من الناحية العلمية بعد بخارى فى عموم تركستان . وتوجد مدارس ضخمة جدا باقية فيها منذ أيام الخانات . وفضلا عن ذلك يوجد قصر عال يسمى « قصر خدايار خان » وهو نموذج للآثار الإسلامية النفيسة ، إلا أنه اتخذ اليوم معسكراً للجنود . ورغم أن هذا القصر كان منذ ٣٥ عاما عبارة عن قصر الحكم لأحد السلاطين المسلمين ، إلا أنه اليوم عبارة عن معسكر لعساكر الروس .

وقبل ذلك بـ ٤٠ – ٥٠ سنة كان قصراً للإسلام معززا مكرما يزدان من الداخل والخارج بالآيات البينات . واليوم يصيح بلسان الحال ، قائلا : أصبحت سخيفا ، أصبحت محل فسق وفجور ، وبينما كان الذكر والتسبيح وتلاوة القرآن تتردد من داخلى منذ ٤٠ عاما ، أصبحت أنواع الفجور تمارس اليوم بدلا منها والألفاظ القبيحة تقال . لقد أصبحت مسكنا للسكارى والسفهاء الذين يكممون الأفواه ويلعنون الآباء .

وتمارس كل أنواع هذه السفاهات أمام أعين الخوقنديين جميعا . وإذ بكى الخوقنديون » اليوم دما ، فهو قليل . ولكن الإنسان يألف الأسر بسرعة ويعتاد عليه .

وفى خوقند رجال علم ورجال فضل على أعلى مستوى ، وهناك أدباء وشعراء . ولكن لاتوجد حمية أو غيرة ولا توجد همة ولا قومية ولا وطنية . ولهذا السبب أصبح قصر الحكم الخاص بسلطان الإسلام معسكرا لجنود الروس .

مر كَيلان ونمنكَان وأوش وچوش وغيرها وكل أقوام بلاد فرغانة من الأوزبك . ورغم أنها أمة غاية فى البساطة والاستعداد ، إلا أنه قد حكم عليها بالأسر بسبب الجهالة .

* * *

عدت من فرغانة وذهبت مرة أخرى إلى ولاية « سيردريا » (نهر سيحون) وإلى طشقند . وأقمت فيهما لمدة ١٥ يوما مرة أخرى . وبعد ذلك وصلت إلى مدينة « ألما آتا » فى ولاية « يدى صو » ، بعد أن قطعت ١٠٠٠ كم بالدابة عن طريق چمكند وأوليا آطه وپشپاق وتُقماق . وقد بلغت المسافة التى قطعتها إجمالا ٥٩٠٠ كم تقريبا من وطنى الأصلى بلدة تارا إلى هنا ، منها ١٣٠٠ كم بالدابة ، والباقى بالقطار . والقسم الأعظم من الأهالى الساكنين فى هذه النواحى من المسلمين . وأخص بالذكر ولايات سير دريا وفرغانة وسمرقند حيث كل أهاليها من المسلمين إذا جاز القول . ولكن الروس بدأوا فى السنوات الأخيرة يسكنون فى هذه المناطق بعد أن حدثت هجرة جماعية من داخل روسيا إلى تركستان فى هذه السنوات خصوصا .

والمسلك الذى اتبعته روسيا منذ القدم هو أنها كلما أرادت أن تمتلك مملكة ، فإنها تسعى جاهدة إلى تمثيل assimilation [1] (روسنة أو ترويس) العناصر المحلية بعناصر روسية قبل كل شىء .

ولهذا السبب فإن الحكومة تصرف الملايين لإسكان الروس فى ولايات « يدى صو » التركستانية . ولكن هل نجحت سياسة التمثيل هذه أم لا ؟! هذا بحث آخر . اختلط التتار بالروس عصورا فى « أوفا » و « قازان » و « نيجنى » وغيرها وفى كافة الولايات داخل روسيا . فلتتوقف عملية الترويس رغم وجود روس كثيرين فى أكثر الولايات . إذ كلما استمرت فإن قومية التتار وعصبيتهم تقوى كما قويت من

١ – سياسة التمثيل معناها خلط الجنس الواحد بأجناس أخرى . وهى أكبر سياسة تهدف إلى الاستعمار .

قبل . حتى أنه فى فترة من الفترات كان الروس يستعملون كلمة تتار بتعبيرات غاية فى القبح للدلالة على معانى التحقير . لدرجة أنهم جعلوا جهلاء التتار يستعملون كلمة تتار للدلالة على معنى المجوس[1] . ولكى يدفع التتار المساكين هذا الالتباس عنهم ، فإنهم كان يطلقون على أنفسهم « المسلمين » فى كل مكان وذلك لكيلا ترد على الخاطر كلمة المجوس . والتتار عندما يتحدثون عن لغتهم فى أى مكان فإنهم يقولون عنها اللغة الاسلامية حتى يومنا هذا . ومع ذلك نستطيع أن نقول أن أثر سياسة الترويس (التمثيل) غير ملموس إلى يومنا هذا . وعلى هذا الوضع فإن سياسة التمثيل فى تركستان بعيدة المنال ، لأن المسيحية تعارض سياسة التمثيل . والواقفون على التاريخ لايستطيعون أن ينكروا هذا . ولاينطبق ذلك على التتار أو البخاريين فقط الموجودين فى روسيا ، بل ينطبق أيضا على من هم من جنس الروس ومن ديانتهم ومن لغتهم ومن نسلهم أو نسبهم مثل « الملاروس » و « البلوروس » و « الإيستالر » الذين لم يتروسنوا ولن يتروسنوا . إن تعرب اليهود فى بلاد العرب (الجزيرة العربية) والدروز وبنو إسرائيل فى سوريا والأقباط فى مصر والحبش والبربر فى أفريقيا خدم الدين الإسلامى خدمة كبيرة لأن هذه الأقوام نست قومياتها كما نست لغاتها . وأكثرهم اليوم يتمسكون بدعوى العروبة . وهكذا فإن التعامل العادل (المنصف) الذى لا يستند على الظلم أو أفكار الاستعمار ، يأتى بنتائج طيبة .

١ – المجوسية ، معتقد ظهر من العقائد التى أصلحها زرادشت . وكان الدين الرسمى لإيران قبل الإسلام . يقال لأتباع المجوسية فى إيران « كَبْر » وفى بلاد الهند (پارسى) وهم يعبدون النار . وتعتبر البرهمانية فرعا من البوذية وهم يعبدون النيران والبقر والتماسيح ، ويستوطنون الهند وحواليها .

وقد استمر المجوس يعيشون فى إيران بعد الإسلام . وكانوا يحترمون معابدهم فى العراق وبلاد فارس وكيرمان وسجستان وخراسان وطبرستان والجبال وأذربايجان وآران إضافة لمن هم فى الهند والسند والصين وقد كان قسم كبير من المجوس غير مطمئن فى بلاد فارس مما اضطرهم إلى الهجرة إلى بلادالهند ، فاستقروا على سواحل الكجرات ٧١٦ م (المترجمة) -Prof. Baykal : Ta) rih - Terimleri Sözlügü , S.68 (دائرة المعارف الاسلامية التركية م ٧ص ، ٤٤٥ – ,Pakalin) cilt2,S.432 وقد ورد ذكر المجوس فى الآية ١٧ من سورة الحج « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد » .

ولاية يدى صو

أكثر أهالى ولاية يدى صو قازاق رحل ، وجزء منهم قيرغيز أيضا . وماعدا ذلك يقال عنه « سارتْ » [1] أى أهالى المدينة . وقسم أيضا من النجاريين والتركستانيين جاء من روسيا ، والتتر يقال عنهم النوغاى .

ولم يكن يوجد أحد من الروس هناك من قديم الزمان . وهذه الولاية الواسعة يقال عن إحدى نواحيها مشتى « قيشلاو » ، ويقال عن الناحية الأخرى مصيف « يازلاو » . وكان كل شخص ينتقل فيها أو يستقر كما يريد . وتنصب معيشة القازاق والقيرغيز على تربية الحيوانات . وكان أفقر شخص يملك على الأقل من ١٥ – ٢٠ من الخيل ومن ٤٠ – ٥٠ من الضأن . أما الغنى فكان لديه من ١٠٠٠ – ٢٠٠٠ وحتى ٥٠٠٠ فرس ، ومن ١٠٠٠٠ – ٢٠٠٠٠ من الضأن . وكان يقال للذين يمتلكون من ٢٠٠ – ٣٠٠ فرس ميسور الحل فى ذلك الوقت . وإذا كان هناك فرق بين أسماءالقازاق والقيرغيز ، فإنه لايوجد فرق فى أصول معيشتهم . والقازاق أكثر عددا من القيرغيز . ويوجد قازاق كثيرون جدا فى بلاد الصين ، وفى ولايات « يدى صو » و« سير دريا » و« تركستان » و« أورمبورج » و « أورال » و « تورغاى » و « آقمول » و « سيمى بولات » . أما عن القيرغيز فيوجدون فى ولاية « يدى صو » فقط . ويقول الروس عن الشعبين القيرغيز . ومع ذلك يفرقون فيما بينهم بين القازاق والقيرغيز ، ويؤكدون أن نسل الشعبين مختلف .

ويتراوح مجموع عدد القازاق بين ٩,٠٠٠,٠٠٠ – ١٠,٠٠٠,٠٠٠ نسمة . ولديهم خصلة تدعو للإعجاب وهى أنهم جميعا يتحدثون لغة واحدة ولهجة واحدة . ولايوجد فرق قط من حيث المعيشة والعادات فى أطوار وأخلاق القازاق الذين يقطنون على سواحل بحر البلطيق (بحر الخزر) والقازاق الذين يسكنون فيما وراء ألطاى لدرجة أنهم جميعا يتصفون بالسمنة والبدانة .

(١) راجع حاشية ص (٤٧)

المأكولات :

يقال للمأكولات عند القازاق أساسا « لحم الحصان » . ويقال للمشروبات « قميز »[١] . وعندما توجد اللحوم فى الطعام فإنهم لايقنعون بالقليل ، بل يأكلون كثيرا . وإذا لم توجد اللحوم فإنهم لايأكلون لمدة أسابيع . توجد اللحوم دائما فى منازل الأغنياء أيام الشتاء . وبعض الأغنياء يذبحون من من ١٥ - ٢٠ فرسا فى فصل الشتاء . أما فى أيام الصيف فيتوقف أكل اللحم على مجيء الضيف . فإذا حل الضيوف ينحرون الضأن . وإذا حل ضيف على صاحب منزل فى قرية ، فإن الضيف يحس فى الحال بأنه صاحب المنزل من ناحية ومن ناحية أخرى يحس بأنه من أهالى القرية . وفى الأيام التى لا يأتى فيها الضيوف ، فإن القازاق يشربون القميز قصعة قصعة . وإذا لم يتوفر فى المنزل ، فإنهم يركبون الدواب ويذهبون بها من قرية إلى أخرى ، حتى يجدوا قصعة القميز بأى شكل . ثم يشربون ، حيث لايوجد شىء آخر يلزمهم . وتحمل القازاق للجوع يفوق الحد ، حيث تمر الأيام ولا يأكلون شيئا قط لمدة أسابيع عديدة . وعندما يجدون الطعام (المقصود باللحوم) فإن الواحد منهم يأكل من ٢ - ٣ أقة من اللحم ، ويعتبر هذا شيئا بسيطا .

خانات القازاق :

قبل أن يدخل القازاق تحت الحكم الروسى كان لهم سلاطينهم وخاناتهم ، وكانت لهم إدارتهم الخاصة بهم قبل ذلك بـ ٥٠ - ٦٠ عاما . ويوجد أحفاد « جهانكَير خان » و « كينيسار سلطان » حتى يومنا هذا . ولازال « صادق تور » الذى حارب روسيا لآخر مرة على قيد الحياة ، حيث يقيم فى موقع يقال له « قرا بولاق » بالقرب من « چمكند » فى ولاية « سير دريا » . وقد اختار هذا الشخص المحترم حياة التصوف حاليا .

(١) القميز : يصنع القميز من لبن الفرس ، وهو شراب كحولى مسكر شديد التأثير .

وقد تـوفى فى بطرسبـورج منذ عـامين جنكَيز عبـيد الله سلطان أحد أولاد جـها نكَيز خـان . أمـا عن أخيـه الأكبر « أحـمد سلطان » ، فإنه يقيم فـى مـدينة يالطة الواقعـة فى القرم . وعدا هذين فإن هناك عائلة تقيم فى ناحية « كَوكچه طاو » فى ولاية أقمـولا من سلالة « كينيسـار خـان » . ولكن لم يبق هـناك شىء من آثار الحكم والسلطنة لأحد منهم قط .

تاريخ القازاق :

لم يكن بين طائفة القازاق أو طـائفة القيرغيز من يقرأ أو يكتب لأنهم كانوا فى حـالة ترحـال منذ القـدم . ولهـذا السـبب فإن تـاريخـهم غـيـر دقـيق . ومع ذلك سجلت وقـائع تاريخية لفترات من الزمن فى أشـعارهم . ويقـال أن أحداثا هـامـة صـورت من قـبل الشـعـراء ونظمت ، ثم تناقلـها الأهالى فيـمـا بعـد شـفـهيـا . وقد سجلت الأنسـاب بهذه الصـورة أيضـا . وعندما تسلط الروس على القازاق فى فترة من الفترات فيمـا بعد دخل التتار قازاسـتان استكمـالا للدور اعتبـارا من عـهد كاترينا الثـانية [1] . وقد قـامـوا ليس فقط بنشـر الدين الإسـلامى وتعليمـه ، بل بتـعـمـيم القـراءة والكتـابة أيضـا . ويكـتسب هؤلاء التـتـار صـفـة المعلم لعـمـوم قازاقستان إلى يومنا هذا . وكما كان القازاقى يحرص على اقتناء من ٤٠ – ٥٠ حصانا ومن ١٠٠ – ٢٠٠ من الضـأن ، فإنه كان يـحضر إلى منزله كل عام إمـامـا ومـعلمـا خـاصـا . وكمـا كان « النوغـاى » يقـوم بـتعليم الدين ، فقد كـان يمارس وظيفة الإمـامـة أيضـا . وكمـا انتشـر الدين الإسـلامى فى صـحـراء القـازاق عمومـا بهذه الصـورة ، فقد عمت القراءة والكتابة على نطاق واسع . أمـا الآن ، فعندمـا عمت القراءة والكتابة ، بدأ بعض الشـبـاب القازاقى يسـجل التـاريخ المتداول على ألسن الناس ويحققه .

والشـعب القازاقى شـعب فطن للغاية ، يوجد مـن بينه رجال أكملوا تعليمـهم بالمدارس الروسـيـة العليـا فى أيامنا هذه . وقد اكتسـبت المشـاعر الدينيـة عندهم

١ – انظر حاشية ص (١٠٥) .

عمقا ، عندما انتشرت بينهم القراءة والكتابة . ويوجد منهم العلماء والمشايخ أيضا . كما ازداد الدين صلابة فى نفوسهم . ولكن الحكومة الروسية فرقت بينهم وبين التتار فى أمور الإدارة . فمنعت وجود المعلمين التتار فى قازاقستان منعا باتاً الآن ، قائلة : « إن القازاق ليسوا مسلمين أصلا ، وقد دخلوا فى الإسلام عن طريق التتار » . ولكن هذا الاعتراض الروسى أصبح عقيما . فقد رحل شباب النوغاى إلى قازاقستان كلها لممارسة التعليم . وعدا ذلك فقد نشأ من جيل القازاق أنفسهم معلمون ، فحدثت يقظة كاملة . واستقر الوضع للإسلام تماما فى قازاقستان . وإذا مارس الروس الظلم الشديد والتعسف بعد ذلك ، فإن القازاق سيقاومون بصلابة فائقة ، ومن المحقق أنهم سيخرجون إلى ميدان النزال عند الضرورة . ويبلغ تعداد القازاق المسلمين ١٠,٠٠٠,٠٠٠ نسمة ، رغم أنف الروس . وهذه المسألة أصابت إخوتنا القازاق بالقلق الزائد فى فترة من الفترات . وتعاملهم الحكومة حاليا معاملة سيئة ، حتى أنها تسكنهم بالقوة[١] . ولما كانت تسكن المسيحيين أيضا فيما بين القازاق ، فسوف ينتج عن ذلك انتهاء الفائدة التى تعود على « البرقان » والقازاق . وكلما ساد الاستبداد فى روسيا اليوم ، كلما استمر هذا الظلم . ولاشك أن مجموعة من السفلة والسفهاء يتنصرون . ولكن العلماء والأهالى لايستطيعون تحمل هذا الظلم . وواضح مثل النهار أنهم لن يحصلوا ألبتة على حقوقهم المشروعة يوما .

استولى الروس على مراعى القازاق ، ولهذا السبب قل عدد الحيوانات بشكل ملحوظ . لكن هذا كله مؤقت وطارىء ، فسيأتى اليوم الذى تدور فيه الدوائر تمشيا مع قانون الطبيعة . كيف جاء الروس ؟ ! إذا كانوا قد استوطنوا بلاد القازاق ، فإنهم سيغادرون هذه البلاد ، لأنهم يجدون مستعمراتهم فى يارسلاف وتول . لقد جربت الحكومة نظام الترويس عدة سنوات ، لكنه باء بالفشل نتيجة لكثرة التهجير . حتى أن القازاق الأُورُص[٢] الذين هاجروا من ساحل « تون »

١ – ذكرنا قبل ذلك أنهم قوم رحل . (المترجمة)

٢ – هاجر القازاق الأورص من سواحل تون واستقروا فى عموم سيبيريا . ويقال عنهم « عساكر الروس الخيالة » . وكلهم مسلمون بالكامل . ولكن أطلق عليهم « القازاق الأورص » لأنهم خيالة .

إلى ساحل نهر إيرتش منذ ١٥٠ عاما ، قوزقوا أنفسهم فى المكان الذى روس فيه الروس القازاق . وكافة القازاق الأورص النين هاجروا إلى صحارى القازاق اليوم ، نسوا تقاليدهم الروحانية ، وأصبحوا يأكلون لحوم الخيل أكثر من القازاق أنفسهم رغم أنها حرام فى مذاهبهم ، وبدلوا لغاتهم بلغة القازاق .

وهكذا فإن أحداث التاريخ الواحدة تلو الأخرى بارزة أمام عيون الروس . فليس هناك احتمال لترويس من هم على دين الإسلام فى أى وقت قط .

آلما آتا (ويرناى)

تعتبر مدينة « آلما آتـا » عاصمة لولايـة « يدى صو » . يقول عنها الروس « ويرناى » ، وأهاليها بأكملهم مسلمون . ومهما كان عدد المسيحيين الموجودين فيها فإنهم أقلية ، وأكثرهم عبارة عن رجال دولة وموظفين . والمسلمون هنا عبارة عن قبائل تجمعت من التونكانى والتارانجه والنوغاى والقازاق والقيرغيز والسَّارت[١] . وهم جميعا عبارة عن عنصر تركى . ولهذا السبب أطلق علماء الجغرافيا على المناطق التى يسكنونها ا سم « تركستان الصينية » . وفى الحقيقة فإن السكان الأصليين فى هذه الأماكن الممتدة من كاشغر وخوتين وأورومجى وآلتى شهر وقولجه وجاركند حتى سواحل نهرى توم وأوب فى سيبيريا يعتبرون من العنصر التركى جميعا .

وعلى الرغم من أن آلما آتا نفسها وحواليها تعتبر من أملاك الإسلام كلها ، إلا أن العنصر السلافى الذى هاجر من داخل روسيا إلى عموم ولاية يدى صو قد أسكن إجباريا من قبل الحكومة .

ولكن مسألة الهجرة ليست مسألة سهلة على العموم . فنصف أو حتى ٦٠٪ من الناس الذين يهاجرون من داخل روسيا إلى سيبيريا أو إلى تركستان أو إلى

١ - راجع حاشية ص (٤٧) .

ولايات يدى صو أو إلى صحارى قازاقستان أيا كان عددهم ، يعودون إلى أوطانهم مرة أخرى .

وإذا كان نصف هؤلاء تقريبا يعودون رغم أن الحكومة أعطتهم مصروفاتهم وهم فى نفس الوقت معززون مكرمون لأنهم فى بلدهم وبين موظفيهم ، فلا لوم على التتار المسلمين المهاجرين إلى تركيا إذا عادوا إلى ديارهم .

وتسمية « آلما آتا » بولاية « يدى صو » راجع إلى أن سبعة أنهر تمر من داخل هذه الولاية . والنواحى التى تتبع ولاية يدى صو ، هى :پشپاك وتوقماق وجاركند وقاپال . وكل ناحية من هذه النواحى واسعة مثل الولاية ، وكل من يسكن فيها عبارة عن قبائل من القازاق والقيرغيز الرحل الذين هم عبارة عن مسلمين . ولكن الروس الذين جاءوا من داخل روسيا فى السنوات العشر الأخيرة إلى هذه البلاد ، يزيدون سنة بعد أخرى .

تحتقر الحكومة فى هذه البلاد « القازاق السارت » بشدة ، لدرجة لا يستطيع أن يتصورها الإنسان ، فقد علمت من مصادر موثوق بها فى پشپاك : أنه إذا أقدم أحد الموظفين الروس أو المهاجرين الروس على قتل رجل من الأهالى المحليين ، فإنه لايجازى على الإطلاق . حتى أن أحد مديرى الشرطة أطلق الرصاص على شخص محترم يدعى « محيى الدين قارى » فى موقع قريب من پشپاك أثناء قيامه بقراءة القرآن فى المكان الذى كان يجلس فيه . وقد جاء القاتل إلى البلدة بنفسه ، وأخبر ورثة محيى الدين قارى ، قائلا : « لقد أطلقت الرصاص على أخيكم فاذهبوا إلى المكان الفلانى لتدفنوه بأيديكم » . سمعت عن استشهاد هذا الرجل بهذه الكيفية عدة مرات من عموم أهالى پشپاك ، فقمت بزيارة قبره خصيصاً .

إذا قتل المسيحيون المسلمين بهذه الصورة فى ولاية يدى صو ، فلا شىء على الجانى ، حيث حدث فى عدة وقائع أن قتل الروس أحد المسلمين وهو يمر من قرية تقع بين پشپاك وتوقماق ، ورغم أن القاتل اعترف بنفسه ، إلا أن الجزاء لم يوقع عليه . وبهذه الصورة أصبح دم المسلمين جميعا يضيع هدرا .

واستعمال السلاح غير جائز قطعياً بالنسبة للمسلمين ، فإذا عثر على سلاح نارى أو على سكن متوسط الحجم فى منزل أحد المسلمين ، فإنه يجازى بدفع غرامة مالية . واستعمال جميع أنواع الأسلحة النارية مباح للمسيحيين ، بل إنهم مكلفون بحمل السلاح . ومع ذلك فالقصور ينسب دائما للمسلمين (١) . كان كافة الأهالى الساكنين فى صحارى ولاية يدى صو من القازاق والقيرغيز الرحل الذين ينتقلون من جبل إلى آخر على الدوام . وكان عملهم وكسبهم يرتكز على تربية الحيوانات كما ذكر سابقا . إلا أن الحكومة بسبب تدخلها فى السنوات الأخيرة جمعتهم فى شكل قرية فى أيام الشتاء وأقامتهم فيها . لقد كانوا يرتحلون عندما يأتى الربيع . أما الآن فإن الحكومة منعتهم من ممارسة كل أشكال الترحال . وتمسكت أيضا بالأسباب التى دفعتها إلى اتباع هذا الموقف ، وأحد هذه الأسباب هو قيامها بتهجير الناس من داخل روسيا وتوطينهم فى أراضى القازاق . لقد عاش هؤلاء القازاق والقيرغيز الرحل منذ القدم على نظام الترحال أبا عن جد . ولما كان الترحال يمثل طبيعة أساسية عندهم فى العادة ، فإن إسكانهم فيما بعد يعد بمثابة موت لهم . ولا يستطيع الإنسان أن ينكر أن التحضر أفضل من البداوة فى الواقع ، لكن تبديل الطبيعة المألوفة أمر ثقيل للغاية .

إسكان القازاق :

اتخذ قرار من قبل رجال الحكومة منذ ثلاثين عاما بخصوص مسألة إسكان القازاق فى روسيا . وإذا كانت قد اتخذت بعض الترتيبات منذ ذلك اليوم حتى الآن ولازالت تتخذ ، فإن القازاق لم يوافقوا على ذلك تماما ، ولايستطيعون أن يوافقوا الآن ، لدرجة أن قسما منهم ترك الترحال فيما بعد وأصبح مدينا ، ومع ذلك فإنه إذا وجد فرصة سانحة الآن ، فإنه سيختار الترحال مرة أخرى ، لأنه يرى فيه رفاهية للحال ، ولا يمكن أن يرى فى الإسكان مثل ذلك . كان القازاقى

(١) فى الأصل ، الإسلام ، وهو مالا يتسق مع المعنى . (المترجمة) .

يمـلك عدة آلاف من الدواب عندمـا كان رحـالا ، أمـا اليوم فـقد أصبح يملك من ٧٠٠ – ٨٠٠ دابة . وهكذا الوضع بالنسـبـة للضـأن . والذين قلت حـيـواناتـهم أصبحوا اليوم جوعى ، وبدأوا فى التنصر بسبب قسوة الجوع ، ومع أن الحكومة سعت وتحمست إلى أبعد حد ، إلا أن القازاق لايمكن أن يكونوا حضرا بالتمام والكمال ، وسيستمر هذا الترحال لأكثر من نصف قرن . إن حياة الترحال حياة طبيعية ولذيذة للغاية . والترحال وضع طبيعى . وإذا نبعت الجبرية من الإنسان فهو أمر طبيعى . فترحال أكثر الأمم تمدنا إلى المصايف اليوم ، ماهو إلا أثر من الآثار البدوية . وهذا القدر من الرفاهية والمدنية أطلق عليه اسم التصييف ، ولكنه ترحال فى حقيقة الأمر . ولأنه أمر طبيعى فإن الناس جميعا يرغبون فيه . فإذا لم يكن هناك خبر عنهم فى أى منزل ، فهذا معناه أنهم خرجوا للترحال . ومسألة إسكان القازاق تعنى تبديل الحال الطبيعى بالحال الجبرى . وبمجرد إسكان الشعوب التى اعتادت على الترحال فإن الدرن المهلك يتملك منهم بسرعة . فإذا نظرت ، فإنك تجد فى كل منزل عدة أشخاص مصدورين ، لا يستطيعون إكمال أعمارهم الطبيعية . واعتبارا من اليوم فإن القازاق أصيبوا بالدرن . أما عن الباشقورت[١] الذين أسكنوا بعد أن كانوا يرتحلون ، فهم اليوم فى طريقهم إلى الانقراض . والروس يعرفون هؤلاء جيدا ، إلا أن مصلحة الحكومات تتعارض مع الترحال . ومالم يسكن الأهالى الرحل ، فإن الحكومات لايقر لها قرار . وبصراحة أكثر لا تستطيع ضمان الأمن الداخلى .

١ – اختلط الباشقورت بالهون مبكرا ، وسكنوا فى الأماكن الممتدة خلال جبال الأورال وعلى امتداد نهر الأورال والمناطق المجاورة ، واختلطوا أيضا بالقيچاق ، ثم تتركوا تماما . ولازالوا حتى اليوم يستقرون فى الأماكن المذكورة .

ومن الجدير بالذكر أن جمهورية روسيا الاتحادية تضم حاليا جمهورية ذات استقلال ذاتى تسمى باشقورستان تشمل عناصر من الباشقورت والروس والتتار ، ويبلغ تعدادها أربعة ملايين نسمة ، وتقع فى الأماكن التى حددناها عاليه . (المترجمة) (حسين كاظم قدرى : تورك لغتى ، تورك ديللرينك اشتقاقى وأدبى لغترى ، ص ٦١٠ استانبول ١٩٢٨)
(Prof . Nadir Devlet : Büyük Islam Tarihi, S.242 Istanbul 1933)

سيمى پولات (يدى طاش)

بعد أن مررت من آلما آتا ببلدتى قاپال وآياكَوز (سيرغيبيوپل) ، وصلت إلى سيمى پولات . والأهالى الساكنون بين هاتين الولايتين هم جميعا قازاق رحل . وإذا كانت هناك قرى من المسيحيين المهاجرين فهى قليلة نسبيا . وفى هذه الأماكن أيضا يوجد نوغاى وسارت وبونكَان صينيون ، ولكن الأكثرية قازاق هم أصحاب البلاد الأصليين .

وإذا كانت الرواية تذكر أن « سيمى پولات » معناها « يدى طاش » أى الحجارة السبعة وتشير إلى أن هناك سبعة حجارة فى موقع هذه البلدة ، فإنهم يكتفون بكلمة « سيمى » اليوم للتعبير عن « سيمى پولات » . ولربما يستعمل أهالى البلدة فيما بينهم دائما كلمة « سيمى » فقط . ولا تستعمل كلمة « يدى طاش » على الإطلاق . وقياساً على ذلك يروج بين المسلمين استعمال كلمة ولاية « يدى صو » دائما للتعبير عن « سيمى ريچينسكى » .

كان أهالى « سيمى پولات » من المسلمين بالكامل منذ ٤٠ أو ٥٠ عاما . جاءوا من داخل روسيا ومن قازان ، وصاروا نوغاى وكان يوجد بخاريون أيضا فى حى واحد من البلدة . واليوم يشكل الروس الأغلبية فى بلدة سيمى پولات ، ويتفوقون فى العدد على المسلمين .

وإن يكن بين المسلمين أيضا أغنياء ورأسماليون حتى أن معدن الذهب فى حوزتهم ، إلا أن أكثر الذين يصرفون الأعمال من بين المسيحيين . وقسم من المسلمين متصوف والقسم الآخر تضيع ثروته من يده بسبب السكر ، وكل الثروة تنتقل إلى أيدى الأجانب .

ياللأسف ومائة ألف آسف فرغم أن « سيمى » بلدة صغيرة إلى حد ما ، إلا أن بها اليوم ستة مصانع كبيرة للبيرة . ورغم أن هذه المصانع تشتغل بطاقة البخار والكهرباء ليل نهار دون توقف ودون هوادة ، إلا أنها لا تكفى أهالى « سيمى » . ولا تخرج قطرة واحدة من بيرة مصانع « سيمى » إلى

الخارج . بل ربما تأتى البيرة من الخارج إلى هنا فى أيام الصيف . ومع ذلك فإن بعض المنازل تشكو من بطء المصانع فى أوقات عديدة خاصة فى الأيام المباركة .

وأهالى « سيمى » متدينون أشد التدين ، ولايحبون تبديل شىء من عاداتهم القديمة أو تغييرها ، حتى أن السيدات فى أيام الصيف ودرجة الحرارة تتراوح بين ٣٥ْ – ٤٠ْ يفتخرن بلبس أنواع من الفراء مثل فراء الثعلب الأسود غالى الثمن وفراء السمور والسنجاب ، ويتزين بسائر الزينات العديدة ففى آذانهن طبقات من الأقراط وفى أصابعهن تزدحم الخواتم .

أما عن العلم والمعرفة فإن أهالى « سيمى » فيها صفر اليدين . وإذا قلنا أنه لاتوجد مدرسة صغيرة أو كبيرة ، فهذا جائز . وإذا كان من الواجب البحث عن المسلمين الباقين من بنى إسرائيل ، فإن « سيمى » يوجد فيها من ٢ – ٤ أشخاص أو ضعفهما .

ولكن شباب « سيمى » اندفعوا فجأة نحو الالتحاق بالمدارس الروسية خلال السنوات الخمس الأخيرة . بينما لم يكن هناك طفل مسلم واحد فى المدارس الروسية منذ عشر سنوات . وفى السنوات الأخيرة يوجد فى المدارس الروسية طلاب مسلمون يتراوح عددهم بين ٣٠ ، ٤٠ تلميذاً وسينقذ هؤلاء مسلمى « سيمى » الأصليين من فساد الأخلاق .

تقع بلدة سيمى پولات على ساحل نهر إريش ، وهى بلدة منتجة للمحاصيل . وتذهب المحاصيل التى تجود بها مناطق سيمى پولات اليوم إلى كل أنحاء روسيا وحتى إلى أوربا . وجلود الحيوانات المختلفة التى يعبر عنها بكلمة « سيريو » تعتبر من أكبر أنواع التجارة الروسية . وهذه التجارة بالكامل أيضا فى حوزة تتار سيبيريا .

ومواقع المسلمين فى بلدة سيمى پولات غاية فى الجمال ومستقبلهم براق . ولكى يحافظوا على وضعهم المحترم هذا ، انصاعوا إلى حكم الطبيعة باذلين الهمة والحمية . واتضح سعيهم فى التخلص من فساد الأخلاق واستعمال

المسكرات منذ مدة . ويسبب فساد الأخلاق أعلن كبار أغنيائهم الإفلاس اليوم . وينبغي على الموجـودين الآن أن ينظروا إليـهم بنظر العـبـرة ، ويفكروا في مستقبلهم هم ويهتموا به .

ســـــيبيريا

تـــارا

ومن « سـيمى پولات » مررت ببلدتى پاولودار (كاراكاو) وأومسكى عن طريق نهر إرتش ، حتى وصلت إلى وطنى الأصلى ومسقط رأسى بلدة « تارا »(١) . وهى بلدة صغيرة إلى حد ما ، يبلغ تعداد سكانها ٦٠٠٠ نسمة ، ويحتمل أن يكون عدد منازل المسلمين فيها ٢٠٠ أو ٣٠٠ منزل .

« وتارا » فى الأصل بلدة قديمة جدا ، كانت مركزا للتجارة طوال عصور حتى أن القوافل كانت تذهب من « تارا » إلى بخارى كل عام عن طريق قزليار وآقمولا وتركستان . وعندما كتب المستشرق الشهير يادرينچف عن تتار سيبيريا أوضح أن تجار تارا كانوا يذهبون من سيبيريا إلى بلاد الهند عن طريق بلاد الفرس . وكتب عن أحد تجار تارا ويدعى « أبلين » الذى أرسلته حكومة موسكو فى مهمة سياسية واقتصادية إلى بكين سنة ١٦٦٤ م . وبهذه المناسبة صدر قرار باعفاء تتار سيبيريا من التجنيد ابتداء من ذلك الوقت ، ووضع الضرائب المفروضة عليهم فى شكل محدود . وإذا كان هذا القرار قد تبدل بخصوص الضريبة اليوم ، فإنه لم يتغير بخصوص التجنيد .

أما الآن فلم تبق هناك أهمية لغرب سيبيريا وخصوصا لبلدة تارا سواء من الناحية الاقتصادية أو من الناحية السياسية . لقد انمحى كل شىء وكأنما بسبب وقوع هذه المنطقة بعيدا عن خط السكك الحديدية .

كان ملحقاً بناحية تارا وهى عبارة عن قرية إسلامية عدد من القرى يقدر بـ ٣٥ – ٤٠ قرية . والمعتقد الآن أنهم جميعا هاجروا إلى تركيا ، وعلى هذا فلن

١ – أثناء طواف عبد الرشيد بمنطقة تركستان وجد نفسه قريبا إلى حد ما من مسقط رأسه « تارا » ، فاتجه إليها كى ينقل أسرته إلى قازان ثم يودعها لإكمال رحلته الطويلة التى استمرت من ١٩٠٧ – ١٩١٠ م .

وابتداء من بلدة تارا دخل عبد الرشيد منطقة سيبيريا بعد أن انتهى من رحلته فى منطقة تركستان ، رغم أنه وضع عنوان سيبيريا فى الأصل بعد حديثه عن تارا وقازان وأوفا وأورنبورج وچيلابى التى تقع كلها فى سيبيريا . ولهذا كان لزاماً على أن أضع عنوان سيبيريا فى مكانه الصحيح أى قبل الحديث عن تارا . (المترجمة) .

تبقى لنا علاقة بهم فيما بعد على الإطلاق . إلا أنه سيبقى فى خواطرنا فى المستقبل سقوط الثلوج ناصعة البياض ، ونزهاتنا لمسافة مائتى كيلو متر فمائتى كليومترفى الليالى المقمرة على الدواب الجميلة ، وصيدنا الذى لا يفرغ ولا ينتهى بين أشجار الصنوبر الممتدة إلى عنان السماء كالمنارات ، ونزهاتنا بالبواخر المنتظمة فى نهر إرتش فى أيام الصيف ، وذلك لأنه وطننا .

* * *

وهكذا بعد أن قضيت ثلاثة أسابيع فى بلدة تارا التى هى وطنى الأصلى ، فارقت أهلى وعيالى هناك ، وذهبت إلى قازان عن طريق توبولسك وتمان وپيرمه . سأبدأ السياحة الطويلة من هنا فى الأصل . أما عن مقصدى فإننى استأجرت منزلا هنا لأترك أولادى فيه . وقد اجتهدت بقدر الإمكان لإنهاء الاجراءات الخاصة بلوازم المنزل الذى بحثت عنه فى قازان . وأكملت إعداد المفروشات اللازمة له .

ومن ناحية أخرى أعددت فى نفسى خطة لسياحة طويلة . وتخيلت أننى سأترك أهلى وعيالى مدة طويلة من الزمن فى أمان الله واجد الوجود الرزاق ذى القوة المتين . خاصة وأننى عندما اخترت لنفسى ديار الغربة ، تصورت أننى سأترك أولادى فى ديار الغربة أيضا .

سأخرج للسفر مدة طويلة من الزمن . فأعددت لوازم المنزل . ودفعت إيجاره لمدة شهر ، وأديت نفقاته . ولكن عدم وجود المال اللازم لى للخروج للسفر كان سيقطع على الطريق ، ومن ثم قررت الاقتراض . اقترضت عشرين روبلا من أحد الأحباء . وكنت قد صممت على الخروج إلى الطريق مباشرة قبل ظهور أى مانع . وفى ذلك اليوم أتى لقاء ريڤال Reval [1] فى صحف العاصمة الروسية بخبر عن صدور قرار قطعى بخصوص المسألة الشرقية . وفى حقيقة الأمر لم يكن هناك

١ - لتفصيل ذلك انظر حاشية ص ١٣٩

شيء في العالم الإسلامي غير اليأس . كانت الثورة التركية [1] غامضة فبماذا ستفضي ؟ ! كنا قد اقتنعنا تماما من خلال ملاحظاتنا العميقة والواسعة في كل وقت بأن المسألة الشرقية ستنتهي بنهاية مشئومة . ولكني كنت أتصور على كل حال بأن الأبطال العثمانيين سيقدمون أرواحهم فداء إلى آخر نفس في حياتهم . وبناء على هذه الفكرة خطر لي بأن طائر الخطاف سيحضر الماء بمنقاره ويلقيه على نار نمرود[2] ، فاخترت التحرك إلى الشرق الأقصى . ولكن مسألة السياحة الطويلة المخبأة في قلبي لايعرفها أحد عداي . أما عن عائلتي فقد اعتقدت أن سفري سينتهي في « أوفا » أو على الأكثر في « تومسكي » . كررت هذا المصراع من الشعر وألم الفراق يتنازعني :

١ – في ربيع ١٩٠٨ م قتلت جمعية الاتحاد والترقي جواسيس السلطان عبد الحميد الثاني وبعض من يشتبه فيهم من الضباط والموظفين ورجال الدين . وهرب من مؤسسي الجمعية الضابطان أنور ونيازي إلى الجبل ومعها بعض الكتائب . وبادر السلطان فجرد بعض الحملات العسكرية لإخضاعهما ، ولكن ضباط هذه الحملات وعساكرها كانوا متأثرين هم أنفسهم بمبادىء لجان الجمعية المنتشرة في الأناضول فانضموا بدورهم إلى الثوار .

واستشعرت جمعية الاتحاد والترقي القوة ، فاستولت في مساء١٧ يوليه ١٩٠٨ م على مكتب البريد في سالونيك ، وأرسلت الرسل إلى أتباعها من الموظفين والعسكر ورجال الدين في المنطقة المجاورة تطالبهم بإبلاغ العمد والأعيان في القرى ببدء الثورة .

وفي فجر ٢٣ يوليو ١٩٠٨ م تدفق أهالي القرى المجاورة على سالونيك هاتفين بالحرية ، ومعلنين تضامنهم مع الجمعية ، وانضم الجيش الثالث كله إلى الحركة ، فأرسلت الجمعية رسالة عاجلة إلى السلطان تطالبه بإعلان الدستور في ظرف أربع وعشرين ساعة ، وإلا تحرك الجيشان الثاني والثالث (٥٠،٠٠٠ جندي) لاحتلال العاصمة . ولم يستسلم السلطان في أول الأمر بل أمرحلمي باشا مفتش الولايات الثلاث (سالونيك ومناستر وقوصوه) بقمع هذه الحركة ، ولكن حلمي باشا نصحه بأن يخضع لإرادة الأمة ، فخضع السلطان على كره وأصدر الدستور ، وافتتح البرلمان في ٤ ديسمبر من نفس العام . (د . أحمد السعيد سليمان : التيارات القومية والدينية في تركيا المعاصرة ، ص ٣٣ ، ٣٤ القاهرة ١٩٦١) (المترجمة) .

٢ – كان نمرود ملكا يعبد الأصنام في زمن إبراهيم عليه السلام . وقد دعاه سيدنا إبراهيم لترك الأصنام والتوجه إلى عبادة الله وحده ، فأبى ، وأمر أنصاره بأن يلقوا سيدنا إبراهيم في النار . ويقال في الأساطير الفارسية أن طائر الخطاف أحضر الماء بمنقاره ورش النار فانطفأت . (المترجمة) .

(د . زهرا خانلری :فرهنك ادبيات فارسى درى ، ص ٥١٩ ، ٥٢٠ تهران ١٩٧٠ م)

عدت إلى الفراش ونار الفراق تكوينى ، فكنت أشبه بالمجنون فى كل أحواله .

أما أولادى فقد كانوا حزانى وهم ينظرون إلى عينى . وأثناء ذلك قال لى ابنى « أحمد منير » بصوت حزين باك وكأنما أحس بشىء : والدى العزيز ! .. وأراد أن يعطينى النقود التى فى يده . كانت عيونه مليئة بالدموع . لقد أظلمت عيناى (زاغ بصرى) أنا بالذات ، فلم أستطع أن أعرف مقدار النقود . ثم قلت : أى بنى ، اهتم بأختيك البريئتين . ولم تبق لدى طاقة لكى أقول كلمة أخرى . ومن ناحية أخرى فرغم أن ابنتى البريئتين لم تبكيا من قبل قط ، إلا أن الجميع كانوا يبكون فى ذلك اليوم .

على كل حال ، سأتحرك فى اليوم الرابع من رمضان المبارك بالقطع . أعددت أسباب السفر وهى عبارة عن بعض الملابس البسيطة وغيرها . ونادت بنتى « قدرية » على سائق العربة . ثم وضعوا حاجياتى فى العربة . إننى أخرج من الباب وكأنما تخرج جنازة حية ، وابنتاى الصغيرتان البريئتان تلفان ذراعيهما حول رقبتى وهما تجهشان بالبكاء .

عندما شرعت فى ركوب العربة قالت بنتى قدرية : يلزمنى أربعة روبلات من النقود ياأبى . فأعطيت ابنتى أربعة روبلات من العشرين روبلا التى كنت قد أعددتها من أجل السفر . ثم ركبت العربة وأنا أقول لهم أستودعكم الله . وغادرت قازان .

كنت أتصور إلى أين أنا ذاهب ولماذا أنا ذاهب . إلا أنه لم يكن معروفا أننى سأعود مرة أخرى أم لا . جئت إلى المرفأ بالعربة . وكانت الباخرة على أهبة الاستعداد . سأتحرك إلى « أوفا » بالباخرة مباشرة .

من قازان إلى أوفا

يتضمن هذا العنوان الموضوعات التالية : مغادرة قازان – حوار مع إمام حول قدر الأئمة واعتبارهم والخدمة التى يؤدونها – تجارة البيض عند التتار .

مغادرة قازان :

غادرت قازان فى ١٦ سبتمبر سنة ١٩٠٨ م ، ووصلت إلى مرفأ بواخر النهر الذى يسمى « بريستان » قاصداً السفر إلى أوفا .

ورغم أن البواخر المتجهة إلى أوفا كثيرة هنا . إلا أننى ذهبت إلى مرفأ شركة « ياكيمسكى » لأنها شركة جميلة ومنظمة ، وركبت الباخرة التى كانت على وشك التحرك . ثم جلست فى المقعد الأول فى إحدى الكبائن الخاصة بأحد الأشخاص . كان الوقت متأخرا وكانت الأيام هى أيام رمضان . وعند رفع آذان المغرب تحركت الباخرة المسماة « آمور » التى كنت أستقلها من المرفأ . وكلما كانت صفارات الوداع المؤلة تدوى ، كلما كانت تؤثر فىّ وكأنما كانت تقطع أكبادى إرباً إرباً . الباخرة تتحرك من قازان ، وكأنما أحست هى الأخرى بألم الفراق ، فالصفارات تدوى وكأنما كانت تصرخ وتصيح . إن عودة هذه الباخرة أيضا إلى قازان مرة أخرى هذا العام مشكوك فيه بسبب مقتضيات الموسم . ولهذا كانت ترفع صراخها الذى لاينقطع ، كلما أحسست بألم الفراق الأبدى . كان الركاب الذين يستقلون الباخرة يلوحون بالمناديل لتوديع أصدقائهم الواقفين فى المرفأ . وكانت بعض السيدات تجففن دموعهن بمناديلهن من آن لآخر ، مما كان يبعث فى نفسى شعوراً عميقاً . وجدت نفسى أنظر تلقائيا إلى مساجد قازان ومناراتها التى تبدو من بعيد ، وكنت أودعها من قلبى الحزين الحزين ...

قدر الائمة واعتبار هم والخدمة التى يؤدونها :

سمعت أثناى صوت سورة الفاتحة يأتى من علٍ يقول : « اهدنا الصراط المستقيم » ، فنظرت ، فإذ بى أجد عدة رجال تجمعوا لأداد صلاة المغرب .

دخلت من الخلف أنا أيضا ، واقتديت بهم . وبعد أن صليت نزلت إلى أسفل ، وجلست لتناول إفطار رمضان . وضعت عدة لقم فى فمى بسرعة ، ثم جاء أحدهم وطرق الباب ، فقلت « تفضل » . دخل أحد السادة من الباب ، وقال :

– كنت سأدعوكم إلى الإفطار فى كبينتى الخاصة .

– قلت : تفضلوا لكى نتناول الافطار سويا هنا .

– قال : حسنا .

وبناء على ذلك جلست على رأس منضدة الطعام . وأثناء الأكل سألت ضيفنا من أنت ومن أين . فتبين لى أن رفيقنا يعمل إماماً لقرية فى ناحية « چيسطاى » بولاية قازان ، وكان يعرفنا من قبل . بعد أن تعارفنا قليلا بدأ ضيفنا العزيز يشكو من أحوال الزمان ، فورد في كلامه :

– قل الاعتبار بالنسبة للعلماء ، وكثر فساد الأخلاق فى البلاد .

فقلت :

– أ للعلماء قل الاعتبار ، أم اعتبار العلماء هو الذى تناقص ؟ !

فقال :

– قل الاعتبار بالنسبة للعلماء . ولا يولى العوام اعتبارا لكلام العلماء ، فلم يعد هناك قيمة أو عزة للعلماء ..

قلت :

– ما السبب ياترى ؟ هل لاحظت أسباب هذا ؟ لايوجد هناك شىء بدون سبب طبعا .

قال :

– كان كلام العلماء مقبولا بين العامة قديما . وكان الواحد منهم عزيزاً مكرماً . وكانت الزكاة والعشور والصدقة تؤدى . أما الآن فإن أغنياءنا

يصرفون صدقاتهم وزكاتهم على المدارس ، ولا يعطون العلماء شيئا(١) .

قلت :

– سيدى ، إن النقود التى كان العلماء يأخذونها من الأغنياء منذ القدم ، كانوا ينفقونها على المدارس وعلى طلبة العلوم(٢) . كان مقصدهم جميعا خدمة الدين الاسلامى . وكانوا يعظون وينصحون فى المساجد . وبهذه الصورة كان الدين قائما . وكان العلماء يحافظون على موقعهم . هل تعرفون كم عدد الطلاب الذين تربوا فى چيسطاى ؟ وكم مدرسة بنيت ؟ والآن ماذا يوجد ؟

تمسك ضيفنا ببعض الإنصاف . وعلى الرغم من أنه لم يصرح بإلحاق جزء من القصور إلى العلماء ، إلا أنه اعترف بعض الاعتراف ، وقال :

– هكذا أصبح الزمان !

قلت :

– ألا تعلمون الحديث الشريف الذى يقول : « لا تسبوا الدهر(٣) ... » لا دخل للزمن أصلا وقطعا . العلماء هم الذين أفسدوا الزمان(٤) فى الأصل أيضا ! حب الجاه وحب الرئاسة مقدمان على الدين لدى العلماء . إن العلماء لم يستطيعوا أن يقدروا النعمة التى فى أيديهم حق قدرها . لقد تخبطوا فى الغفلة . واجتهدوا فى جعل أبنائهم الجهلاء خلفاء لهم . إن الأبناء الجهلاء ورثوا مكانة آبائهم العلماء بالعمامة والجبة فقط . وأصبح الرجال أئمة دون نصيب من العلم والمعرفة . لقد

١ – راجع ماكتب تحت عنوان « العلماء والطلبة والمدارس والتحصيل » ، ص ٥٣ ومابعدها .

٢ – المقصود بالعلوم هو علوم الدين . (المترجمة) .

٣ – حدثنا عبد الله حدثنى أبى ثنا هوذة ثنا عوف عن خلاس ومحمد عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » (مسند الإمام أحمد بن حنبل ، إشراف الدكتور سمير طه المجذوب ، جـ ٢ ص ٥٢١ بيروت ١٩٩٣م) (المترجمة) .

٤ – يستعمل المؤلف كلمة « زمانه » فى الأصل بمعنى الزمان ، وليس إلى الزمان . (المترجمة) .

أصبحت مناصب الأئمة والخطباء وراثية . انتقل إرثا للجهلاء . وضاعت الفرص من الأيادى ، حيث لايوجد لدى العامة خبر . لقد سكتم على هؤلاء وأنتم ترونهم رؤية العين . ولهذا السبب ماذا حل بنا ؟ أصل المصيبة تكمن فى توريث المناصب ، وإيداعها فى غير أهلها ، فيحتل المناصب كل « لكع بن لكع »[1] إنكم لاتلاحظون هؤلاء ، وتشكون من الزمان ، ولا أدرى لماذا ؟! وتقولون دائما : نفسى ! .. خفض ضيفنا رأسه قليلا ، ثم قال منصفا :

– آه ياسيدى ، كلامكم صحيح تماما . فليصلح المولى حالنا . عفوا لقد سببت لكم صداعا فى رأسكم .

قلت :

– لا بأس ، إن الحقيقة تظهر جلية من تصادم الأفكار[2] . لقد مننت أنا أيضا . ودعنى الضيف العزيز ومضى إلى مكانه . وبهذه المناسبة قضيت أنا أيضا وقتاً قصيراً ، كفاصل من ألم الفراق .

وبعد العشاء شغلت ببعض المطالعة . وفى هذه الأثناء جاء إلىّ أحد خدام الباخرة ، وقال لى : سيدى ، هل تأمرون بشىء نعده فى السحور كى نقوم بعمله ..

ولأن خدام الباخرة جميعا من المسيحيين ، فقد أوجب ذلك استغرابى ، فبادرت بالقول سائلا :

– ألا تنام ساعة السحور ؟

– سأنام بالطبع ، ولكن إذا أمرتم بشىء فإننى أنهض من أجله . نحن مستعدون لكل ماينبغى عمله . ونستطيع أن نوقظكم فى وقت السحور ، فهذه وظيفتنا وهذا واجبنا ..

١ – هكذا قال بالحرف الواحد ، وهو مايدل على تبحره فى العربية ومعرفته بالعامية وتنوقه لها . (المترجمة) .

٢– هذامثل تركى ، نصه : مصادمة افكاردن حقيقت ميدانه كلور . (المترجمة) .

– أشكرك ، أكون ممتنا لو أحضرت لى قليلا من الشاى وقليلا من الطعام أيضا .

بدأت أفكر بينى وبين نفسى :

– يارب كل خدم الباخرة من المسيحيين ، وسوف يوقظوننا من أجل السحور ، ويقدمون لنا الطعام . وسيبقون يقظين من أجل أن يكسبوا قليلا من النقود ..

وبينما أنا أفكر هكذا جاء إلى ضيفى ، وقال :

– هل تتفضلون بتشريفنا فى كابينتنا من فضلكم ياسيدى ؟ سنشرب فنجانا من الشاى عدة مرات ، ونتحدث قليلا أيضا ...

قلنا:

– حسنا .

وصلنا إلى كابينة ضيفنا التى تقع بالدرجة الثانية . وفهمنا أنه سوف يكرمنا ، فقد أحضر إلينا الفواكه والحلويات والمربى . ثم بدأنا نتسامر من جديد ، فسألته :

– سيدى ، منذ متى وأنت إمام ؟

– صار لى ١٨ سنة .

– عفوا .. إذاً ماذا فعلتم من أجل الحى خلال الـ ١٨ سنة هذه ياسيدى ؟

أى نوع من الخدمات قدمتم ؟ وخلال ١٨عاما أمن أهالى الحى لكم معيشتكم ونفقة أهلكم وعيالكم . وعلى كل حال عشتم مستورى الحال . ولم يفتش أحد على أحوالكم . بل إنكم قضيتم وقتكم أيضا وأنتم فى كامل الراحة . فأى الخدمات حققتم لأهالى حيكم فى مقابل هذا ؟ وأى الفوائد نالتهم منكم ؟

– أعددت جنازاتهم ، وقيدت أطفالهم فى الدفاتر ، وعقدت زيجاتهم .. وهذه هى وظيفتى .

– أنا لا أسأل عن الأشياء التى فعلتموها لقاء منفعتكم الشخصية . بل إننى أسأل عما فعلتموه من أجل نفع الوطن . مثلا قبل مجيئكم إلى الحى لم تكن به

مدرسة صغيرة أو كبيرة ، وعند مجيئكم هل افتتحتم مدارس ، أو هل أسديتم موعظة جميلة فى الجوامع ؟ هل عملتم على منع فساد الأخلاق فى البلاد ؟ أم أن أهل قريتكم كانوا فقراء ، فدفعتموهم إلى الكسب والعمل ، فأصلحوا أمور معاشهم وإدارتهم الآن ؟ تحدثوا إلى عن مثل هذه الجهود والخدمات إذا كنتم قد قمتم بها ..

– ينبغى الاعتراف بالحقيقة . لم أقم بشىء من هذا حتى الآن . ولكنك أرشدتنى ، وأنا أشاركك نفس هذا الفكر . سأقوم بعد الآن بإلقاء المواعظ فى المسجد إن شاء الله ، وأدفع أهالى الحى إلى الكسب والعمل وأرغبهم فيهما . لقد لطفتم بى أشد اللطف . رضى الله عنكم وأرضاكم وأحييتمونى بكلامكم الحلو هذا .

وبهذه الصورة انتهى السمر مع هذا السيد بعد نصف ساعة ، وبعد ذلك توجهت إلى كابينتى وخلدت إلى الراحة .

تجارة البيض عند التتار :

بينما كنت أجلس فوق سطح الباخرة بعد ظهر يوم السبت ١٧ سبتمبر سنة ١٩٠٨ م ، اقترب منى أحد الأشخاص وألقى السلام . كان يعرفنا شخصيا . اكتسبت معرفته ، فقد قال لى أنه أصلا من « أوفا » . فسألته :

– بأى شىء تشتغل ؟

– بالتجارة .

– أى نوع من التجارة ؟ وأين تمارس البيع والشراء ؟

– تجارتنا كبيرة تقوم على البيض . نجمع البيض من ولايتى « أوفا » و « بيرمه » ، ثم نبيعه فى بطرسبورج ولندن وبرلين .

استوجب حيرتى بشدة قيام تاجر تترى بنقل البيض إلى لندن وبرلين وبيعه

هناك ، فسألته :

– كم يبلغ ثمن البيض ؟

– نبدأ فى شراء البيض اعتبارا من أوائل أغسطس . ويبلغ ثمن الألف فى ذلك الوقت ١٥ روبلا (١٨٠ من الغروش) ، وقد يصل ارتفاع ثمنه عند شرائنا له إلى ٢٠ روبلا .

– هل يجود البيض فى أغسطس ؟

– يجود أصلا فى أغسطس . ولايمكن إرسال البيض إلى الأماكن البعيدة فى بداية الصيف لأنه يجف . ومع أن تجارة البيض فيها بركة ، إلا أنها تجارة تعبها كبير .

– كم تبلغ كمية هذا البيض ؟ لا يتصور عقلى أنها يمكن أن تكون تجارة كبيرة .

– تتعامل معنا شركة روبنسون فى لندن بما مقداره ٣٥,٠٠٠,٠٠٠ روبل سنويا . وتعطينا شركة فى برلين ٨٠,٠٠٠ روبل سنويا من أجل مستودع البيض فقط . وهذه الشركة لها فروع فى روسيا يقدر عددها بـ ٧٠ فرعا . وهذه الفروع تجمع البيض من هنا وتقوم بإرساله إلى برلين .

لايوجد شىء عادة فى التجارة مثل تجارة البيض . وقد كنت أتصورها على أنها خيال عادة . وكلما أحيط الإنسان علما بأحوال كهذه ، أصيب بالحيرة .

لا أستطيع أن أمكث طويلا فوق سطح الباخرة ، لأن الطقس لم يعد ملائما . ولهذا بدأت أقضى معظم أوقاتى فى الكابينة للقراءة ليس إلا .

أوفـــا

وصلنا إلى « أوفا » ساعة آذان المغرب من يوم ٣٠ سبتمبر ١٩٠٨ م ، ونزلنا فى دار ضيافة يقال لها « بالشوى سيبرسكى » ، وأثناء الليل تجولت قليلا فى المدينة . كانت كل ناحية تبدو مضيئة كالنهار بفعل الكهرباء . و« أوفا » الحالية لاتشبه « أوفا » التى رأيتها قديماً على الإطلاق . لقد أصبحت بلدة مختلفة تمام الاختلاف فى ظرف ١٤ عاما . ولكى أقضى الليل ذهبت إلى منزل « أبو السعود افندى أحتاموف » الذى كنت قد تعرفت عليه بطريقة ودية .

وأبو السعود افندى رجل خدم البلاد أيام كان أحد أعضاء البرلمان « دوما » السابقين .

وهو أحد أبناء العلماء المسلمين فى روسيا الذين أكملوا تعليمهم فى « دار الفنون »[1] الروسية بادىء ذى بدء .

وتعتبر بلدة « أوفا » مركزا للتتار داخل روسيا فى الأصل ومرجع ديانتهم . وتوجد فيها المحكمة الشرعية الخاصة بإدارة الشئون الدينية للمسلمين الذين يتجاوز عددهم ٥,٠٠٠,٠٠٠ نسمة .

١- دار الفنون ، تعبير يدل على المكان الذى يتم فيه التعليم العالى فى الدولة العثمانية ، ويقابل كلمة الجامعة حاليا ، ويعتبر النواة الأولى لجامعة استانبول . تقرر إنشاء دار الفنون لأول مرة فى ١٨٤٦ م (٢٢ رجب ١٢٦٢ هـ) « لاكتساب كافة العلوم والفنون ليلا ونهارا » . وتم إنشاء مبانى دار الفنون ١٨٦٥ م (١٦ ذو القعدة ١٢٨٢ هـ) وبدأت أولى مدارسها ، وفى أول أغسطس ١٨٩٨ م افتتحت « دار الفنون الشاهانية » التى تحتوى على شعب الآداب والعلوم الدينية العالية والعلوم الرياضية والطبيعية . ونتيجة لصدور تعديلات بقانون فى ١١ أكتوبر ١٩١٤ م ظهرت المدارس العالية كمدرسة الحقوق ومدرسة الطب ومدرسة الآداب والعلوم . وفى ٢١ أبريل ١٩٢٤ م ألغيت دار الفنون باستانبول لكى تحل محلها جامعة استانبول التابعة لنظارة المعارف . (المترجمة) .

(Mehmet Zeki Pakalin, Cilt 1, S.397, 398)

(Midhat Sertoglu,S.79)

المحاكم الشرعية فى روسيا (الإدارة الروحية) :

يوجد فى روسيا كلها باستثناء تركستان وقازاقستان ٤ محاكم شرعية (إدارات روحية) . وأكبر هذه المحاكم الشرعية هى « محكمة أورنبورج » التى يوجد مركز إداراتها فى بلدة « أوفا » .

والثانية بالقيرم وتسمى « دوخاوناى براولينيه » ، ومركز إدارتها فى بلدة « آق مسجد » .

والثالثة هى « إفتاء ماوراء القوقاز » ، ويوجد مركز إدارتها فى بلدة تفليس .

والرابعة هى « مشيخة إسلام ماوراء القوقاز » ، ويوجد مركز إدارتها أيضا فى بلدة تفليس .

أما هذه الأخيرة فهى عبارة عن محكمة شرعية خاصة بالمذهب الشيعى ، والثلاثة الأولى المذكورة خاصة بأهل السنة . وهكذا فأنا الآن موجود فى بلدة أوفا مركز محكمة أورنبورج الشرعية هذه المرة .

المدارس الصغيرة والمدارس الكبيرة والتجارة :

جئت إلى هذه البلدة سنة ١٨٩١ م ، وقضيت فيها عامين فى ذلك الوقت . وكان يوجد فيها فى تلك الآونة من العلماء آخون خير الله أفندى ، وذلك فضلا عن القضاة الذين كان يطلق عليهم العلماء . وقد تأسست بهمة آخون ومساعيه مدرسة تحمل اسمه . وكانت مدرسة صغيرة يبلغ عدد الطلاب الموجودين فيها من ٢٠ - ٣٠ طالبا . وكان يوجد فى هذه البلدة تاجر مسلم صغير أو تاجران مسلمان صغيران . ومع ذلك لم يكن لأحد منهما منزل أو متجر . وكان يوجد فى هذه المدينة مسجد صغير أيضا .

استيقظت فى الصباح الباكر ، واستقليت عربة على الفور ذهبت بها لزيارة المدارس الصغيرة والكبيرة . كما ذهبت إلى كل المساجد وشاهدتها . وسواء المساجد أو المدارس كلها أبنية تستحق الاستحسان والإطراء . فالمساجد مضيئة بالكهرباء . والمسجد ذو المنارتين يحتل موقعا ممتازا فى مركز المدينة خاصة .

يوجد فى كل مدرسة من ٣٠٠ – ٤٠٠ طالب . ولكن الدروس لم تكن قد بدأت بعد فى الأيام التى كنت فيها فى هذه المدينة ، وكان الطلاب على وشك التجمع .

التقيت ببعض المعلمين والمدرسين . وسألت عن المناهج المدرسية وطرق التدريس ، واطلعت على المناهج . فضلا عن دروس العلوم العربية والدينية والتفسير والحديث والفلسفة الإسلامية ، تلقى أيضا دروس الحساب والجبر والتاريخ العام والأحياء والجغرافيا والهندسة والفلسفة والطبيعة والكيمياء والاقتصاد . ويوجد معلمون مقتدرون للغاية ، ألتقى بمعظمهم كلما جئت إلى هذه المدينة .

والجهة التى تستحق التقدير والتقديس ، هى جهات الإدارة الخاصة بكل أنواع المدارس هذه ، لأنها تدار بهمة أصحاب الحمية ليس إلا . إنهم من ٣ – ٥ رجال يتنافسون على الانفاق الكثير جدا على المدارس . ألا يمكن تقديس من يفتحون خزائن حميتهم ابتغاء إعلاء كلمة الله ليس إلا ؟! لقد التزموا بصرف آلاف الروبلات من النقود احتسابا لوجه الله يدفعهم تدينهم .

تجولت حتى المساء ، وزرت بعض الأحبة أيضا مثل : سليم كَيراى ميرزا جانتورين ناظر المدرسة العالية ، وصوفيا هانم مديرة مدارس البنات ، والثالث هو صابر حسنى أفندى مقرىء المسجد ومدرسه ، ومن التجار المرموقين صدر الدين نذيرى ، كما التقيت بشخصيات أخرى كبيرة . وحصلت على بعض المعلومات . وفى المساء وصلت إلى دار الضيافة ، وقضيت الوقت فى قراءة الصحف .

وفى صباح اليوم التالى عاودت التجول . فوجدت بلدة « أوفا » وقد استحقت عن جدارة أن يطلق عليها اليوم بلدة الإسلام خاصة ، فالمنازل الضخمة المنظمة التى ترى ، ماهى إلا منازل المسلمين . وإذا كانت توجد متاجر كبيرة فى أى مكان ، فأصحابها مسلمون أيضا . كما أصبح سوق « أوفا » سوقا إسلاميا فى العادة . وعدا المدارس الكبيرة ، توجد أيضا مدارس ابتدائية كثيرة . وكذلك

توجد مدرستان كبيرتان للبنات . وهناك دار كبيرة للصناعات أيضا . والخلاصة أن بلدة « أوفا » نهضت فى السنوات الأخيرة من يوم إلى يوم وليس من شهر إلى شهر فقط .

ومع ذلك ينبغى علينا التكرار حرصا على الخواطر ، فكما تم بناء كافة المدارس بهمة المسلمين وحماسهم ليس إلا ، فقد أمنت إداراتها أيضا من قبل أهل الإيمان أصحاب الحمية .

وإذا كان من غير المعلوم لدينا عدد المسلمين فى بلدة « أوفا » يقينا ، فإن عددهم عموما يبلغ ١٣٠٠٠٠٠ نسمة تقريبا .

توجد مدارس صغيرة وكبيرة كثيرة جدا فى النواحى والأقضية والقرى التابعة لولاية « أوفا » . وهناك عدد كبير جدا فى القرى التى التزمت بتربية مايتراوح عدده بين ٢٠٠ – ٣٠٠ طالب .

رأيت أشياء كثيرة جدا خلال الأيام الثلاثة التى قضيتها هذه المرة فى « أوفا » . وقد لاحظت بنفسى أن المسلمين هنا فى « أوفا » سوف يكونون فى المستقبل المرجع الفريد والسند الوحيد لمسلمى روسيا عادة . ولو أنهم عاونوا ولو قليلا المحاكم الشرعية التى تعتبر مرجع المسلمين فى عموم روسيا بما لهم من غيرة وهمة وحمية إسلامية ، لاكتسب مستقبل « أوفا » بريقا ولمعانا وأملا مشرقا دون أدنى شك . ولكن هذه المحكمة تعتبر جسدا بلا روح بالأسف .

محكمة أورنبورج الشرعية .

سأقدم معلومات قليلة عن هذه المحكمة أيضا . تعتبر هذه المحكمة المرجع الدينى لما يزيد على ٥,٠٠٠,٠٠٠ نسمة من المسلمين كما سبق القول . ولاشك أن هذه الوضع يجعل لها أهمية نظراً لذلك . والمعلومات التى ستقدم بخصوص هذه المحكمة ، إنما هى عبارة عن معلومات تتعلق بالحياة الروحية لـ ٥,٠٠٠,٠٠٠ مسلم .

تأسست المحكمة وهى محكمة شرعية إسلامية سنة ١٧٨٧ م أثناء حكم كاترينا الثانية (١) . وكانت المشار إليها هى مؤسسة هذه المحكمة . ولأن الآمال السياسية لكاترينا الثانية تنصب على بسط يدها على استانبول بعد الاستيلاء على القيرم ، لذا سعت إلى حيلة وحيدة من أجل تأمين الجبهة الداخلية ، وهى تنفيذ شىء يضمن راحة المسلمين فى الداخل ، وبناء على هذا الفكر السقيم أنشأت هذه المحكمة الإسلامية ، بينما كانت تنوى عمل دسيسة (خدعة) سياسية فى حقيقة الأمر .

ورغم أن الحقوق التى منحت للمحكمة المذكورة فى ذلك الوقت كانت قليلة جدا ، إلا أنها صارت مرجعا للمسلمين على كل حال . وقد اتضح أنها جمعت لنفسها بصورة تدريجية قوة جامعة ، واتخذت شكلا مركزيا .

وبعد انقراض كثير من الخانات (٢) ، فإن المسلمين المشتتين الذين أصبحوا بدون حماية كفرخ الحجل عندما رأوا أن المحكمة الشرعية ستحافظ على دينهم ، أحاطوها بالرعاية الكاملة فجأة ولم يتدخلوا فى إدارتها ، باستثناء التتار وحتى القازاق الذين اشتركوا فى التدخل .

١- ولدت كاترينا الثانية ١٧٢٩ م فى بولندا . وتزوجت بطرس الثالث قبل أن يتولى حكم روسيا بقليل ، وبعد أن تولى الحكم بفترة ليست طويلة ، تمكنت كاترينا من عزله سنة ١٧٦٢ م . وبعد موته توجت امبراطوره على روسيا باسم كاترينا الثانية . وقد اتبعت خطة بطرس الأكبر فى الحكم وبدأت تنفذ سياسته فاستولت على بلاد القيرم وقلعة آزاق وغيرها . واقتسمت مملكة بولونيا مع النمسا وبروسيا ، وضمت أجزاء من ليتوانيا ومدت نفوذها حتى سواحل البحر الأسود . توفيت فى بطرسبورج ١٧٩٦ م .

(محمد فريد المحامى : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٥٣ بيروت ١٩٧٧ م)

(Türkiye Gazetesi : yeni Rehber Ansiklopedisi, cilt 11, S.269 Istanbul 1993)

٢ - خان : كلمة تركية قديمة تطلق كلقب على الحكام الأتراك والعثمانيين . وقد كان شكلها الأقدم هو « قان » . وقد استعملت كلقب بمعنى حاكم لدى العثمانيين ، كما استعملت لدى الولايات الشرقية بآسيا الوسطى بمعنى البكوات المحليين وخانات القيرم الذين كان يطلق عليهم كَيراى . أما فى إيران فكانت تستعمل كمقابل لكلمة بك أو باشا أكثر . (المترجمة)

(Midhat Sertoglu,S .133, 134)

وعند افتتاح المحكمة المذكورة فإن مجلس الإدارة تم تعيينه من قبل الحكومة . وافتتحت بمبلغ ضئيل جدا ، لأن الجانب الذى ركزت عليه كاترينا هو التأثير على الأفكار الإسلامية العامة عن طريق التظاهر فقط لضمان الأمن الداخلى .

ومع ذلك كان المسلمون المتمسكون روحيا بحبل الشريعة الغراء المتين يرجعون إلى المحكمة المذكورة مباشرة إذا ظهر بينهم أى نوع من المشكلات بعد افتتاحها رسميا . وكان المسلمون كذلك لايقبلون شيئا تكلفهم الحكومة به مالم تصدر به فتوى من المحكمة المذكورة .

لم تكن هناك طرق فى ذلك الوقت أو بواخر أو واسطة مواصلات ، ومع ذلك كان المسلمون المقيمون فى الأماكن البعيدة يقطعون المسافة فى شهور من أجل سطر واحد من الفتوى . وكانوا يعتبرون الفتاوى التى تصدر عن المحكمة المذكورة بمثابة فرمان عال عادة . وفضلا عن ذلك ، فبرغم أن التتار كانوا يوزعون تجارتهم على النواحى والأطراف ، إلا أنهم كانوا يربطون علاقاتهم الدينية بها . وبناء على ذلك حصلت هذه المحكمة الصغيرة على قوة معنوية غير محدودة بالتدريج . ويمكن القول بأنها أخذت شكل وزارة تقريبا .

إلا أن هذه المحكمة مع الأسف لم تظهر خلال المائة عام التى تجاوزتها من عمرها ، على أنها صاحبة رسالة تنصب على خدمة المسلمين ونفعهم بحق .

كانت إدارة المحكمة تقوم على أصول الشورى . وعلى الرغم من إعطاء حق انتخاب رئيس واحد وثلاثة أعضاء لمسلمى أورنبورج وقازان فى ذلك الوقت ، إلا أن مسلمى أورونبورج لم يستطيعوا أن ينتخبوا أحد المفتين رئيسا ، ولا استطاع مسلموا قازان أن ينتخبوا قضاة كأعضاء .

وبهذه الصورة كانت هذه المحكمة تتخبط (تتردى) وهى بين الحياة والموت .

وقد عاونت جهالة الروس على بقائها . وظلت كلمة التوحيد تتردد حتى اليوم ، حتى استمرت قوة المسلمين المعنوية خارقة للعادة بفضل هذا . وإذا كان من المتصور وجود مركز واحد لمسلمى روسيا عموما فيما بعد ، فإنه بالقطع هنا .

ومنذ ستين عاما وقازاق الصحراء بكاملهم جميعا تابعين لهذه المحكمة ومرتبطين بها . وفى تلك الفترة كان المسلمون التابعون للمحكمة الشرعية يتجاوز عددهم ١٢ مليون نسمة .

وإذا قلت أنها عبارة عن حكومة عظيمة عادة ، فهو جائز . ولكن حدث ماحدث ، فقط تضافرت عدة عوامل ، هى : إهمال رئيس المحكمة المذكورة وأعضائها من ناحية ، ومن ناحية أخرى جهالة القازاق ، بالاضافة إلى الدسائس الحقيرة للحكومة المستبدة . وفى سنة ١٨٦٤ م اتهمت الحكومة ٧ مليون قازاقى بالكفر والضلال ، وكأنهم لم يكونوا مسلمين . وحجتها فى ذلك « أنهم لم يحكموا بموجب الشريعة ، ولكنهم كانوا يحكمون بموجب العادات القديمة والتقاليد » . وهاجم كثير من معتوهى الحكومة الحقوق الإسلامية كالكلاب ،. وفى النهاية وفقت فى التفريق بين القازاق المساكين وبين المحكمة المذكورة .

أما الآن فإن قصد الحكومة هو غلق هذه المحكمة ، وتشتيت عش المسلمين جيمعا . فمنذ ٥٠ عاما ورجال الحكومة السياسيين جميعا يتبعون هذا المسلك فى الداخل . وعلى مدى ٤٠ عاما والحكومة تفرض جبراً رئيسا على هذه المحكمة الشرعية ممن لايعرفون القراءة والكتابة بالتركية . فاليوم رئيس المحكمة المذكورة ومروج أفكار الحكومة هو المفتى « محمد يار سلطانوف » لايعرف ماهو الدين ، ولا يعرف ماهى الشريعة ، وليس لديه علم بالقراءة أو بالكتابة ، لكنه رئيس المحكمة الشرعية ومفتٍ . ويشتغل بالإفتاء منذ خمسة وعشرين عاما .

وقد انتخبت لفترة عضوا فى هذه المحكمة . ثم عينت رئيسا للمحكمة لمدة ثمانية أشهر أثناء غياب « سلطانوف » . وبعد أن فهمت تماما خفايا دسائس الحكومة التى تبثها فى هذه المحكمة ، قدمت استقالتى منها ، وذهبت إلى استانبول . ثم ألفت كتابا بصورة غير رسمية بعنوان « چولپان يلديزى » أى كوكب الزهرة ، يتعلق بهذه المحكمة وبمستقبل المسلمين فى روسيا . ولما كانت البلاد ترزح تحت الاستبداد الدامى ، والمخابرات تحاصر المطابع من اليمين ومن

واليسار (يقصد من كل ناحية) ، قمت بطبعه فى مطبعة محمود بك[1] ذات ليلة بفضل همة أرباب الحمية . وقد جعلته يتجاوز حدود « أودسا » وينتشر بين عموم المسلمين فى روسيا .

وقد بسطت القول فى « چولپان يلديزى » عن المعلومات التى تخص الإدارة الداخلية للمحكمة المذكورة أيضا . ولهذا السبب لا أرى حاجة للتفصيل أكثر هنا .

لكنى أريد أن أكرر هنا ما يأتى : إن المحكمة الشرعية فى أونبورج تحتاج إلى إصلاحات أساسية للغاية لتأمين مستقبل المسلمين فى روسيا .

وللحصول على الإصلاحات اللازمة أرى أنه من الضرورى التركيز على التربية الروحية للأمة وأرى أنه من الألزم لنهضة الأمة أن يكون رأس مال أصحاب الحمية امتلاك المعلومات الواسعة والاطلاع على الأفكار العامة .

وأثناء وجودى هذه المرة فى « أوفا » تباحثت مباحثات طويلة وعميقة مع « عناية الله قاضى » عضو المحكمة الشرعية الذى قضى فيها حوالى عشرين سنة . ومن الجدير بالذكر أن الحكومة كانت دائما تروج للأفكار التى كانت تتبناها منذ القدم من خلال المحكمة المذكورة . ولابد أنها تبحث دائما عن منفعتها الشخصية . إلا أن الأمة ينبغى عليها ألا تهمل المحافظة على حقوقها المشروعة أيضا .

الأمـراء:

يوجد هنا نوعان من الأمراء . نوع منهما أكمل تحصيله فى المستويات العالية بالمدارس الروسية وأكثرها مدارس عسكرية ، وعمل فى الوظائف الكبرى فى تلك الفترة . وبهذه الصورة أصبحت له أملاك واسعة فى ولايتى « أوفا » و « واتكه » . وأكبر هذا النوع وأشهره أولاد « توكلى » الذين ظلوا يشتهرون حتى اليوم باسم « توكيلوف » . حكم أولاد « توكلى » الذين يسمون فى رواية أخرى « چوكمالدين »

١– كانت هذه المطبعة توجد فى استانبول فى عهد الدولة العثمانية . (المترجمة) .

فى سيبيريا . وهم ينحدرون من سلالة خانات « كَرچوم » . وعندما اعتدى عليهم « يارمق » فروا ، والتجأوا إلى باشقورت الأورال »[١] .

وقد بقى اليوم من هذه الأسرة رجل مسلم واحد ، يقال له « قوتلوغ محمد ميرزا توكيلوف » وهو الآن نائب بالبرلمان دوما » فى بطرسبورج . وقد التقيت بهذه الشخصية عدة مرات ورغم أنه رجل ظريف ، إلا أن نسل آبائه الذين لا يعرفهم قد محوا الدولة ، ولم يستطيعوا أن يحافظوا على موقعهم أيضا . أما أخوه فقد فتن بفتاة روسية ، حتى أنه غير دينه .

وفضلا عن أن أسرة « توكيلوف » تعتبر من أكبر الأسر فى روسيا منذ ثلاثين عاما خلت ، فإنها حصلت على مواقع كبيرة للغاية لأنها فى نظر الروس ليست أسرة مسلمة وحتى فى نظر الحكومة أيضا . ويعتبر « باطر كَيراى » وأخوه « سليم كَيراى » من أبناء « قوتلوغ محمد ميرزا » ، وكلاهما مشهور ومعروف جدا . وقد صاهرا « جهانكير خان » أحد خانات القبيلة الذهبية « آلتون أوردو »[٢] .

وعدا ذلك يوجد أمراء من بعض أولاد « قانطون[٣] فى « أوفا » تخرجوا جميعا فى المدارس العالية . وأصهار أسرة « توكيلوف » من سلالة « جهانكير خان »

١ – راجع حاشية ص ٨٢ .

٢ – دولة القبيلة الذهبية « آلتون أوردا » . دولة تركية مغولية ساد حكمها فى « دشت قپچاق » من سنة ١٢٤١ – ١٥٠٢ م . وكلمة آلتون تعنى الذهب ، أوردا كلمة مغولية تعنى خيمة .

أسس هذه الدولة باطوخان الذى كان يزين خيمته البيضاء بالذهب ، ولهذا سميت هذه الدولة « آلتون أوردا » أى الخيمة الذهبية أو « آق أوردا » أى الخيمة البيضاء . وقد عرفت فى العربية بدولة القبيلة الذهبية أو « آلتون أوردو » ، فقد تحرفت « أوردا » إلى « أوردو » ، فتغير معناها فى العربية واشتهرت بذلك .

وقد ظلت هذه الدولة تتوسع بعد أن اعتنقت الإسلام فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى حتى أصبحت تشمل خانيات القيرم وقازان ونوغاى بالإضافة إلى خانيات استراخان وسيبيريا . ثم دب الضعف فى أوصالها بسبب النزاع على الحكم ، فتقسمت وانهارت ١٥٠٢ م فى عهد « شيخ أحمد خان » . (المترجمة) (دائرة المعارف الاسلامية (أوقاف الديانة التركية) م ٢، ص ٢٥٣٨ .

٣ – القانطون ، هم قبائل الباشقورت القاطنة فى ولايات « أوفا » و « بيرمة » و « أورنبورج » وقد كانوا يتمتعون فى الإدارة بنوع من الحكم الذاتى منذ خمسين عاما . وكان رؤساؤهم يسمون « قانطون » بناء على ذلك . وأبناء هؤلاء « القانطون » يعتبرون من الأمراء . وإذا كان يوجد منهم الآن أحد فى بعض الولايات ، فإن أهميتهم قد تلاشت .

وأصحاب الجاه الذين تعلموا فى المدارس العالية من بين مسلمى « أوفا » أكثرهم من بين هؤلاء .

أما النوع الثانى من الأمراء فيقال لهم « أمراء قارغالى » ، وقد كانوا يتعلمون اللغة الروسية حتى السنوات الأخيرة فى المدارس الابتدائية والإعدادية . إلا أنهم أصبحوا أمراء بقراءتهم للغة الروسية وكتابتهم بها . وكانوا يقنعون براتب قدره عشرة روبلات وفى النهاية براتب قدره عشرون روبلا (٢٠٠ من الغروش) نظير عملهم فى المحاكم . وكانوا يفتخرون بإمارتهم . ولكنهم فى السنوات الخمس الأخيرة بدأوا يتعلمون فى المدارس العالية أيضا .

التجارة :

منذ خمسة عشر عاما أو عشرين عاما لم يكن هناك من الروس أو المسلمين تجار كبار فى بلدة « أوفا » . وعلى أى حال لم يكن هناك من يشتغل بالتجارة من الوجهاء سواء كانوا من أصحاب الأملاك الكبيرة أو من أصحاب العقارات . والشوارع بعامة موحلة ، وإنها لمشكلة صعبة جدا فى بعض المواسم أن ينتقل الإنسان من منزل إلى منزل أو يدخل عند الجيران أو يخرج من عندهم .

وقد اتسع مجال التجارة عندما مرت سكك حديد سيبيريا من هنا منذ عشرين عاما . وتعتبر بلدة « أوفا » اليوم من أكثر البلاد عمرانا فى روسيا . وقد توسعت التجارة فى « أوفا » لدرجة أن المسلمين يوجد من بينهم أيضا رجال يتعاملون بالآلاف . والذين يتعاملون مع الأقطار الخارجية كثيرون . وإذا كان أكثر أهالى هذه البلدة من الروس على أى حال ، فإن موقع المسلمين فى التجارة كبير جدا ومستقبلهم لامع أيضا . وتوجد محاصيل جيدة جدا فى ولاية « أوفا » . وقد اتسع مجال تجارة الحبوب ، كما توسعت تجارة أخشاب البناء أيضا إلى أقصى درجة . وتجود تربية الحيوانات أيضا بجميع أنواعها . واليوم تبتاع الحكومة الحيوانات بجميع أنواعها من ولاية « أوفا » من أجل العساكر الخيالة . وزيت سيبيريا مثل العسل من الأشياء التى توجد بوفرة . وعسل « أوفا » مشهور فى عموم روسيا ، وهو عسل لذيذ للغاية ويتمتع برائحة جميلة .

ولأن التصدير فى ولاية « أوفا » واسع المجال ووسائل النقل من السكك الحديدية والأنهار وطرق العربات عامرة ، فإن التجارة سترتقى من يوم إلى يوم أيضا .

وإذا كانت الاستفادة قد بدأت من معادن جبال الأورال أيضا ، فمن المحقق أن المسألة تحتاج إلى عدة رجال من أصحاب مئات الملايين .

وبعد أن أقمت ثلاثة أيام فى « أوفا » ، عزمت على التوجه إلى « چيلابى » حيث أول خط سيبيريا الكبير . وتقدر المسافة من « أوفا » إلى « چيلابى » بـ ٤٦٠ كيلو مترا .

من أوفـــا إلى چيلابى (چيلابينسكى)

حوار مع أحد الفرنسيين عن المسألة الشرقية :

بدأت من « أوفا » استقل قطار السكك الحديدية ، فجلست بالدرجة الثانية . وبعد أن وضعت حاجياتى ، دخل إلى الكابينة الشخص الذى كان يقف أمامى ، فرجوته أن يهتم بحاجياتى حتى أعود ، فلم يقل شيئا ، واكتفى بأن هز رأسه . ذهبت لقضاء مشاغلى ، وبمجرد أن عدت إلى مكانى مرة أخرى تحرك القطار . قلت لرفيق الطريق شكرا بالروسية ، فأفهمنى أنه لا يعرف الروسية ، فقلت له بالفرنسية " grand merci " شكرا جزيلا كان رفيقنا فرنسيا ، فأبدى امتنانه ، وقال : العفو ومع ذلك سألنى من أين أنت ومن أنت وإلى أين أنت ذاهب . فأخبرته أننى لا أعرف الفرنسية . فلم ييأس الرفيق المحترم ، وسألنى : هل أنت تترى ؟ فأجبته بالإيجاب ونصف الكلام بالفرنسية والنصف الآخر بالروسية .

أخرج رفيقى من جيبه دفترا صغيراً . إنه ترجمة فرنسية روسية[١] . استعنت بمعرفتى بعدة كلمات قليلة من الفرنسية ومعرفته أيضا ببعض الكلمات

١- يبدو أن المؤلف يقصد أنه معجم فرنسى روسى (المترجمة) .

القليلة من الروسية لبعض الوقت .

وبدأنا الحوار مع صديقنا الفرنسى ، وكتابه سيقوم بالمعاونة فى الترجمة .

الفرنسى : – لماذا يوجد بين التتار فقراء كثيرون ؟

أنا : – الأمة الأسيرة فقيرة وذليلة كذلك ، لأنها لا تستطيع أن تملك مالها .

الفرنسى : – أظن أن التتار نسل تركى واحد ، إلا أن الأتراك يهتمون بشدة بمسألة النظافة ، والأمة التترية لاتهتم بها .

أنا : –واجب على الأتراك العثمانيين أن يهتموا بالنظافة ، لأن النظافة من أركان الإسلام . واعتبارا من اليوم الذى تسلط علينا فيه الروس ، فقد تلوثنا بأصباغهم .

الفرنسى : – من أين تبدأ جبال الأورال ؟

أنا : –الأورال فى هذه النواحى . الأورال توجد فى المكان الذى مررنا به فى « أوفا »

الفرنسى : – مدام الأمر كذلك فإننا لن نستطيع أن نشاهد الأورال كثيرا ، فقد حل المساء . فى أى ناحية توجد نهايتها ؟ هل نستطيع أن نرى قسماً منها فى الصباح ياترى ؟

أنا : – تصل نهايتها حتى « مياس » . سوف نصل صباحا إلى أماكن جميلة فى الأورال . ثم بدأ صديقنا الحديث فى السياسة مرة أخرى ، قائلا :

الفرنسى : – كنا نظن أن الترك أمة قد انتهت . كنا نتصور أن الأوربيين سيقسمونها عما قريب . حتى أن كثيرا من الرجال كانوا يقولون : فليمسحوا الحكومة العثمانية من الوجود من أجل راحة دنيا الإنسانية . وقد شغلت مثل هذه الأفكار عالم

المطـــبـوعات لفترة من الزمـــن إشغـــالا كبـــيرا . إلا أن « العثمانيين الجدد[1] » تحركوا موحدين هذه المرة . واقتلعوا الاستبداد من الجذور ، ولم يريقوا قطرة دم واحدة . ولعبوا دورا لايمكن تصوره . ماأحسنهم لقد قاموا بثورة لامثيل لها ! ..

أنا : – وحتى إذا استطاع الأتراك أن يخلعوا عبد الحميد ، فإنهم لن يستطيعوا محو المسألة الشرقية [2] . وسوف تكون نتيجة المسألة الشرقية نتيجة ثقيلة على الحكومة العثمانية .

الفرنسى : – فلتقم (يقصد أوربا) جنازة المسألة الشرقية إذن .

أنا : – مالم تسفك دماء كثيرة ، فإن المسألة الشرقية لن تنمحى فى أى وقت من الأوقات .

الفرنسى : – لماذا لم تحدث تغييرات فى روسيا ؟

أنا : – حدثت تغيرات فى روسيا . فقد أعلن قيام البرلمان « دوما » ، وصدر الدستور .

الفرنسى : – لا .. لا .. أقصد أنه لم يحدث شىء شبيه بهذا .

يريد صديقنا أن يتحدث كثيرا جدا ، ولكن الوقت يمر بسرعة ، ولابد من الاستعانة بالقاموس للتعبير عن المراد .

بعد أن تتوقف القطارات فى كل محطة فى روسيا لمدة تتراوح بين ١٠ – ١٢ – ١٥ دقيقة ، يدق الجرس ثلاث مرات ، ثم تنطلق الصفارة مرتين فضلا عن ذلك .

وبمجرد أن سمع رفيقنا الفرنسى هذا انفجر بالضحك .

قلت له :

– الروس عندنا محتاطون ، ويحرصون على ألا يتخلف أحد .

١– ، ٢ – راجع حاشية ص ٩١

قال وهو يضحك :

– الروس جميعا عندكم ناموا . والجرس والصفارة يدفعانهم على القيام ويوقظانهم .

وعلى كل حال لعبت المصادفة دورها فى تخلف أحد المسافرين بالمحطة ، فبعث هذا على ضحك الفرنسى أكثر .

ورغم أن فرنسيا وتتريا لايعرف أحدهما لغة الآخر جيدا ، إلا أنه لم تحدث كلفة من قبل الفرنسى رغم هذا القدر الذى يعرفه من الروسية . ولم يكن بالكابينة أحد غيرنا ثم حل المساء ، فخلدنا للنوم .

وفى باكر اليوم التالى فتح جارنا عينيه . وضحك نحوى من المكان الذى يرقد فيه ، وهو يقول : – دق الجرس ثلاث مرات ، فانهض .

يدخل القطار محطة « زالاتاوست » . وسيتوقف هنا لمدة ساعة كاملة . نزلت أنا والفرنسى و بعد أن شربنا الشاى وغيره عدنا إلى مكاننا . ثم جاء معنا مسافر جديد . إنه شاب اتضح من ملامحه أنه من غير الروس .

عندما رأى الضيف الجديد محاورتنا مع الفرنسى ، تدخل بيننا بصفته ترجماناً فخريا بلغة ثالثة . كان ضيفنا الجديد نمساويا ، ولغته الروسية مكتملة . وكنت قد عرفت أن فريقنا القديم يعرف كثيرا من اللغات الأوربية فى الواقع .

والآن بدأنا نتحدث بثلاث لغات :

الفرنسى : – هل يوجد تتار كثيرون فى المدارس الروسية ؟

أنا : – واحد فى المليون .

الفرنسى : – يالشدة العجب ! لماذا يكون العدد قليلا إلى هذا الحد ؟

أنا : – لانريد أن نُرَوسَّ ، وسوف لايحدث ، فالمناهج الروسية لاتربى الإنسان بل تهدف إلى الإكثار من الأرثوذكس .

الفرنسى : – هل مدارسكم كثيرة .

أنا : – مدارسنا الابتدائية كثيرة ، والمدارس الأعلى من ذلك لاتوجد .

الفرنسى : – كم عدد الذين يستطيعون القراءة والكتابة فى أمتكم[1] ؟

أنا : – خمسة وخمسون بالمائة أو ستون بالمائة فقط .

الفرنسى :– حسنا ، أكثر من الروس . مدام الأمر كذلك فلماذا لاتؤسسون مدارس إعدادية ومدارس عالية ؟

أنا : – لن تساعد الحكومة على ذلك . ومع ذلك فقد افتتحت مدارس فى هذه السنوات الآخيرة بالقدر الذى يسد احتياجاتنا .

الفرنسى : كم نائبا من عندكم فى البرلمان « دوما » ؟

أنا : – ثمانية .

الفرنسى : – ياالشدة العجب ! ، شخص واحد لكل مليونين ، كم يعد ظلما !

قلت لرفيقى مستفيدا من هذه الفرصة :

– لا يسأل عن الحق مع وجود القوة . إنكم معشر الفرنسيين تسوقون الجزائريين المسلمين كالحيوانات ، وتحتقرون معتقداتهم ، وتستهينون بحقوقهم الإنسانية كذلك . إذا كان الظلم يجوز إلى هذه الدرجة وينعدم الوجدان الحى إلى هذا الحدلأمم متمدنة كفرنسا ، فلا يمكن أن نقول شيئا عن الروس إذن .

غضب رفيقنا أشد الغضب ، إلا أننى استطردت قائلا :

– إن الشىء الذى يقال عنه لدى الأوربيين المدنية ماهو إلا قناع . المدنية آلة للظلم . وعندما قلت له : كلما تحكمت القوة لم يستطع الضعفاء أن ينالوا قسطا من الراحة ، كان القطار قد وصل إلى « چيلابى » . جمعت حاجياتى أنا أيضا ، ثم نزلت من القطار بعد أن ودعت صديقى وداعا حارا .

١– المقصود بكلمة أمتكم ، المسلمين فى روسيا (المترجمة) .

چيلابى (چيلابينسكى)

چيلابى بلدة صغيرة إلى حد ما ، إلا أن خط سكك حديد سيبيريا يبدأ منها . وهو الخط الذى يأتى فرع منه من موسكو والفرع الآخر من بطرسبورج . ولأنها تعتبر نقطة التقاء خطوط السكك الحديدية ، فإنها سترتقى يوما بعد يوم . ومن المحقق أنها ستكون مدينة شهيرة وكبيرة للغاية عما قريب .

وإذا كان عدد المسلمين حاليا قليل جدا على أى حال ، فلا شك أن عددهم سيزيد فيما بعد ، وهو الآن فى زيادة حقيقية .

المدارس :

يوجد للمسلمين مسجد ومدرسة جميلة جدا ومنظمة . وإذا كانت المدرسة حاليا فى مستوى المدارس الإعدادية ، فإن الفصول الأعلى ستنشأ بالطبع كلما زاد عدد الطلاب سنة بعد سنة . وإدارة المدرسة يتولاها ذاكر افندى وابراهيم افندى وهما أخوان تتوفر فيهما الحمية الإسلامية .

المكتبة :

توجد مكتبة غاية فى الجمال أيضا ملحقة بالمدرسة . وفضلاً عن الكتب الكثيرة النفيسة والقيمة التى توجد فى المكتبة ، توجد أيضا الصحف والجرائد العربية والتركية والروسية والفرنسية . وإذا كان المسلمون هم المؤسسون الحقيقيون لهذه المكتبة ، فإنها مفتوحة للروس أيضا .

ورغم أن هذه المكتبة مفتوحة طوال النهار ، إلا أنها مفتوحة حتى الساعة العاشرة ليلا أيضا ، حيث يقضى شباب چيلابى أمسياتهم فيها .

ووجود مؤسسات مدنية كهذه فى بلدة صغيرة إلى حد ما ، يستحق الشكر فى حقيقة الأمر .

التجارة :

مع أن هذه البلدة صغيرة إلى هذا الحد ، إلا أن التجارة فيها رائجة جدا . وقسم من التجار هنا مسلمون ، يوجد بينهم رأسماليون أيضا .

وأكثر التجارة هنا تقوم على محصول الأورال . وتوجد مناسج ضخمة ومصانع كما توجد المعادن والحبوب الكثيرة . ويتوقع المراقبون لچيلابى أن تبرز كمركز تجارى ضخم فى المستقبل .

بعد أن أقمت ليلة واحدة فى چيلابى ، أسافر بسكك حديد سيبيريا إلى قزليار (پترو پاولسكى) وأومسكى وتومسكى ، مسافة ١٧٠٠ كم تقريبا .

وصلت إلى محطة چيلابى وهى بداية خط سيبيريا الكبير . ويوجد هنا دائما مسافرون لايحصون عددا ، بسبب وجود تحويلة لثلاثة اتجاهات . المحيط صغير فى الواقع ، إلا أن الشىء الذى يجذب الأنظار هنا خاصة ، هو قطارات المهاجرين من داخل روسيا إلى سيبيريا ، حيث لايستطيع الإنسان أن يمر دون أن يقول شيئا كلما رأى هذا المنظر .

وإن يكن هناك اختلاف بين قطارات هؤلاء وقطارات المسافرين على أى حال ، إلا أن الناس من هؤلاء يعدون بالآلاف دائما . ويندر أن توجد محطة فى خط سيبيريا بالذات لايوجد فيها من هؤلاء . ولأن چيلابى تعتبر مركزا ، فإن القطارات المجهزة تبقى فيها منتظرة دورها لعدة أسابيع . هذا الشتاء قارس البرودة ، وقد حشر فى كل عربة من عربات القطار أربعون شخصا ، فوصلت القذارة حتى الحلق . وأوضاع كهذه تولد كل أنواع الأمراض .

تصاحبت هنا مع مهاجر قادم من ولاية « پارسلاف » ، فسألته عن أحواله .

المهاجر : — فى هذا العام هاجر ٢٥٠,٠٠٠ مهاجر من سيبيريا إلى ولاية توبولسك .

ويبلغ عددنا ٣٠٠٠ منزل ، وقد فقدنا مائتى ميت فى ظرف شهر حتى وصلنا

إلى چيلابى . والمرضى لدينا أيضا كثيرون جدا .

سألته : – هل أنت سعيد بهجرتك ؟

قال بصوت باك :

– هل هناك إنسان سعيد بترك وطنه ؟ هل يترك الإنسان وطنه بمحض اختياره ؟ لكن ما الحيلة ، وقد أجبرتنا الحكومة على تنفيذ ذلك . فذهب ، ولكن لا ندرى إلى أين نذهب ! نصف المرحلين يعودون أدراجهم . هاهو ذا القطار يحمل العائدين .

ثم أشار المهاجر إلى القطار الذى يقف هناك ، فقلت له :

– توبولسك جميلة جدا . أنا أورالى . إذا جئت إلى هناك فإنك ستستريح ... هل يوجد بينكم أغنياء؟

وبينما يرد قائلا : « الأغنياء عندنا يجدون خلاصهم ، أما الفقراء فهم كثيرون » ، دق الجرس ، فاضطررت إلى ترك هذا المهاجر ، ودخلت عربة القطار ، ثم جلست وكان المسافرون كثيرى العدد ، فدخلت الكابينة مع ثلاثة أنا رابعهم .

تحرك القطار ، وكان المسافرون جميعا من الروس ، وقد فهمت من كلامهم أنهم تجار . والتجار الروس متعصبون وأكثرهم جاهلون ، ولهذا السبب آثرت السكوت حتى أصل إلى « قزليار » . وكان من الضرورى تمضية الوقت ففضلت المطالعة .

بعض المعلومات عن سيبيريا

سأقدم بعضا من المعلومات الخاصة بسيبيريا بادىء ذى بدء هنا : كثير من الجغرافيين يعرفون أن هذه البلاد فائقة البرودة . كما يعرفونها بأنها موطن الغابات والدببة والسمور . ثم تنتهى معلوماتهم بهذا القدر البسيط .

ماذا كانت سيبيريا ؟ مسكن من ، وماذا يوجد فيها ؟ يبدو أن الأشياء التى تسترعى النظر هنا نادرة جدا .

تعتبر سيبيريا وطن التتار الأصلى . وهى موطن الأقوام التورانية أساساً كانت تدار على شكل إمارات عبارة عن خانيات لفترات من الزمن .

أما عن مقر حكوماتهم المتعاقبة فقد كانت بلدة « إيسكر » الواقعة عند التقاء « نهر إرتش » و« نهر توبول » . و« إيسكر » اليوم عبارة عن خرائب ، وقد كانت موقعا خاصا على هضبة عالية تبعد مسافة اثنى عشر كيلو مترا تقريبا عن بلدة « توبولسك » الموجودة حاليا .

استطراد عن
بداية الإسلام فى سيبيريا

كانت قافلة التجارة تأتى من بخارى وخيوه وأوركانجه وحتى من بلاد العجم إلى منطقة سيبيريا قبل الاستيلاء الروسى . وبهذا الشكل كان أتراك آسيا الوسطى يسيطرون على مواقع التجارة فى سيبيريا لفترة طويلة . وكانوا يمارسون البيع والشراء على نطاق واسع تحت حماية خانات سيبيريا .

هذا ، وقد جذب انتباه خانات سيبيريا الصدق والأمانة اللذين شوهدا على التجار المسلمين فى تلك الأوقات ، ولوحظت أحاسيس الهداية فى قلوبهم ، فوفد

على توبولسك شخصان محترمان أحدهما من العلماء والآخر من المشايخ بفرمان من عبد الله خان المعروف بلقب « پدرخان » فى بخارى لتعليمهم الدين الإسلامى ، بناءً على دعوة كَوجم خان الكبير سنة ١٠٦٨ هـ [1] فى بادئ الأمر على ماأعتقد . أحدهما هو « دين على خواجه » الذى تعرف سلالته فى سيبيريا وتوجد شجرته فيها . والآخر هو « شيخ » الذى يعرف نسبه ويشتهر أيضا . ومن الجدير بالذكر أن هناك قرى تعرف باسم « شيخلر » .

وهكذا بدأ انتشار الدين الإسلامى بادئ ذى بدء فى سيبيريا بهمة هذين الرجلين .

وفى هذا الخصوص قدم المؤرخ الشهير « مولر » " Moller " تفصيلات مسهبة . كما أن « يادرينسوف » قدم معلومات كثيرة أيضا . ولاشك أن بداية الإسلام جاءت من جهتين هما بخارى وخيوه قبل الاستيلاء الروسى ، بناء على المعلومات التى استقيت من آثار المؤرخين الأجانب من مثل هذين ، أو الحكايات التى قيلت شفويا من قبل أهالى سيبيريا المسلمين . وتوجد عائلات كثيرة تعرف بلقب « بخارى » فى ولايتى توبولسك وتومسك اليوم ، ويؤكد ذلك أيضا وجود عدد يقدر بـ ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ نسمة منهم .

وعندما استولى الروس على سيبيريا سنة ١٥٨٢ م ، أرسل كثير من المسلمين منفيين من ولايتى الأورال وأورنبورج من داخل روسيا إليها ، وجاء كثير من العلماء أيضا بمحض إرادتهم . وبهذه الصورة كثر عدد المسلمين هناك ، وقد تشرف المواطنون من الأهالى باعتناق الإسلام . ولم يكن هناك سيف ولامدفع أو بندقية أيضا ، بل إنهم قدروا سماحة الإسلام ، وقبلوا الدخول فيه بمحض إرادتهم .

واليوم فقط يوجد فى ولاية توبولسك وحدها ما يقدر عدده بـ ١٠٠,٠٠٠ نسمة من المسلمين .

* * *

١- فى الأصل سنة ١٤٦٨ هـ وهو خطأ مطبعى . (المترجمة) .

والتتار الوطنيون الأصليون فى سيبيريا كانوا يسكنون جميعا على السواحل اليمنى لنهر إرتش قبل الاستيلاء الروسى . وكانت معيشتهم تتوقف على الصيد . ففى أيام الصيف كانوا يصطادون الأسماك ، وفى أيام الشتاءكانوا يصطادون أنواعا من الحيوانات المتوحشة مثل الدببة والذئاب والثعالب والسمور . وكانوا يبيعون جلودها إلى تجار بخارى وآسيا الوسطى . ولم يكن هناك فى سيبيريا فى ذلك الوقت شىء قط يمكن أن يقال عنه موارد عدا هذا .

وتعتبر سيبيريا اليوم إحدى مناطق الممالك الروسية الواسعة . وهى تنقسم إلى قسمين ، قسم غربى وآخر شرقى . وتعتبر بلدة « قورغان » التى سوف أنكرها فى هذا المقام بداية سيبيريا الغربية هذه . ويعبر عن سيبيريا كلها بالمنطقة الممتدة من أسفل بلدة « قورغان » حتى حدود منشوريا . ومدنها المشهورة ، هى : بلاد توبولسك وأومسك وتومسك وإيركوتسك . وقد قل عدد سكان سيبيريا كثيرا منذ الاستيلاء الروسى على بلدة توبولسك فى البداية . ولما رأوا أن الأراضى كلها أصبحت خالية ، اتخذوها منفى للمجرمين قاصدين بذلك شغلها وإفراغها من حالتها المدنية . وقد نفوا إلى سيبيريا كل من اتهم بجريمة فى داخل روسيا أيا كان وأيا كانت الجريمة . وأصبحت فى العادة بلاد قهر بالتدريج . وقد تلقت مسامع العالم أخبار سيبيريا على أنها تمثل جهنم روسيا . وأصبح الرخاء والأراضى الخصبة والتجارة فى سيبيريا كلها عدما فى نظر الإنسان .

وبعد أن يقضى المنفيون من داخل روسيا عدة سنوات هناك ، يفكرون فى الاستفادة ، فتتوقف لدى غالبيتهم فكرة العودة إلى الوطن الأصلى بعد أن أكملوا المدة المحددة لهم . بل إنهم كانوا يستدعون إخوتهم الذين يقيمون داخل روسيا . وعندما يؤمنون معيشتهم متخذين سيبيريا وطنا لهم جميعا ، يبدأون فى تكوين ثروة كبيرة .

وسنعرض مدى مابلغته سيبيريا من تقدم اليوم ومقدار الأمل فى المستقبل فيها فى الموضع المناسب كلما سنحت الفرصة .

قورغان بلدة صغيرة إلى حد ما على خط قطارات سيبيريا الكبير ، وتبدأ سيبيريا منها ، والمسلمون غير موجودين فيها تقريبا . وقد ورد بخاطرى عندما توقف القطار الذى استقليته من « چيلابينسكى » فى محطة قورغان ، مايأتى :

سوف تكون سياحتى على خط سيبيريا ، ولهذا سألت الآنسة التى تبيع الكتب والصحف فى مقصف المحطة عن كتاب أشتريه يتضمن معلومات عن هذا الخط الكبير ، قائلا :

– ألا يوجد كتاب أشتريه يحوى معلومات عن إنشاء خط سيبيريا الكبير ؟

أخرجت الآنسة كتابا ، وقالت : ثمنه خمسون كاپكا[1] . اشتريت الكتاب . ومن الملاحظ أنه توجد مكتبات خاصة ببيع الكتب والصحف فى محطات قطارات السكك الحديدية فى عموم روسيا .

وهنا أدرج خلاصة أسعار خط سيبيريا من الكتاب الذى اشتريته :

١– القاپيك أو الكاپيك أو الكاپك : عملة روسية فضية قديمة ، نوردها مع الروبل لمعرفة قيمتها مقارنة به .

اسم العملة	قيمتها بالفرنك		وزنها		عيارها
	سانتيم	فرنك	مليجرام	جرام	فى الألف
روبل واحـد	٦٠	٤	٠,١٢٠	٢٦	٧٩٢
٢٠ كـاپيكا	٨٠	–	٠,٧٩٨	٤	٧٥٠

(أحمد رفعت : لغات تاريخية وجغرافية ، م ٦ ، ص ٢٥٤ استانبول ١٢٩٩ هـ) (المترجمة)

خط سكك حديد سيبيريا

يبلغ طول خط سيبيريا كاملا ٥,٦٢٧ چاقرماً (الچاقرم قياس مسافات فى روسيا يقال له بالروسية ڤيرست وهو أطول من الكيلو متر بقليل) . ويبلغ سعره ٣٨٤,٦٠٤,٧٤٣ روبلاً .

١ – تبلغ المسافة من محطة چيلابينسكى إلى محطة «أوب» ١,٣٢٧ چاقرماً .

وكل چاقرم سعره .... ٣٨,٤٨٧ روبلا

والمجموع .... ٥١,٠٧٢,٢٤٩ روبلا

٢ – تبلغ المسافة من محطة أوب إلى بلدة إيركوتسكى ١,٧١٥ چاقرماً .

وكل چاقرم سعره .... ٥٩,١٧٣ روبلا

والمجموع .... ١٠١,٤٨١,٦٩٥ روبلا

٣ – تبلغ المسافة من إيركوتسكى إلى بايقال ٦٤ چاقرماً .

وكل چاقرم سعره .... ٤٩,٥٥٥ روبلا

والمجموع .... ٣,١٧١,٥٢٠ روبلا

٤ – تبلغ المسافة حول محيط بحيرة بايقال ١٨٩ چاقرماً .

وقد ذكر الكتيب أن أسعار هذه المسافة غير معروفة بسبب المصاريف العسكرية وحسابات زمن الحرب .

٥ – تبلغ المسافة من محطة تانحوى وراء البايقال إلى كريمسكى ١,٠٣٦ چاقرماً .

وكل چاقرم سعره .... ٧٩,١٧٠ روبلا

والمجموع .... ,١٢٠ ,٠٢٠ ,٨٢ روبلا

٦ -المسافة من كريمسكى إلى النقطة التى تتحد فيها مع سكك حديد الصين فى محطة منشوريا .... ٣٢٤ چاقرماً .

وكل چاقرم سعره .... ٩٧,٤٢١ روبلا

والمجموع .... ٣١,٥٦٤,٤٠٤ روبلا

وقد بدأ العمل فى خط سكك حديد سيبيريا من بدايته فى چيلابينسكى إلى أومسكى فى ٧ يوليو سنة ١٨٩٢ م .

وعدا ذلك فإن المسافة حتى أقصى الشرق عن طريق «أوسورية» تقدر بـ ٧١٧ چاقرما

وكل چاقرم سعره .... ٦٤,٥٢٩ روبلا

والمجموع .... ٤٦,٢٦٧,٢٣٩ روبلا

وتبلغ المسافة من محطة تايغه إلى تومسكى مع ملاحظة أن هناك تحويلة ٨٩ چاقرما

وكل چاقرم سعره .... ٢٨,٩١٢ روبلا

والمجموع .... ٢,٥٧٣,١٦٨ روبلا

وهذه الطرق كلها تم عمل الإصلاحات اللازمة لها خلال الثمانية عشر عاما الأخيرة . وعدا ذلك ، فإننا أذا أضفنا إلى ذلك مسافة ٢٠٠٠ چاقرم نفذت خلال العشر سنوات الأخيرة لربط أورنبورج بطشقند عن طريق السكك الحديدية لأمكن لنا معرفة مدى اهتمام الروس فى هذا المجال . لقد ربطت الحكومة الروسية بهذه الصورة أبعد نقاط البلاد بالمركز .

وصلت إلى قزليار بعد أن قطعت مسافة ثمان عشرة ساعة من چيلابينسكى . وكان ينتظرنى بالمحطة كثير من الوجهاء الكرام من بين الأحبة . وبعد السلام والمصافحة وصلنا إلى منزل أحد الأصدقاء ويدعى « سيد مرادوف » وقد جئنا إليه مع عدة رجال من المحطة . وهذا المكان يشبه موطنى تماما ، حيث يوجد فيه اخواننا من العلماء وكافة الأهالى .

قزليار (بتروپاولسكى)

قزليار بلدة ليست كبيرة ، يقدر عدد سكانها بـ ٣٠,٠٠٠ نسمة . ولأن القسم الأعظم منهم مسلمون فإن هذه البلدة تعتبر عادة بلدة إسلامية .

وأهالى قزليار ليسوا سكانها الأصليين ، لأنها مدينة أنشئت فى الأزمان الحديثة . فقد تجمع فيها أناس من كل أنحاء روسيا ، من قازان وقاسم خان وپنزه وتامبوف وأوفا ومن الولايات الأخرى ، واختلطوا وامتزجوا وكونوا بلدة .

وقد أصبحت لغاتهم لغة واحدة بعد استيطانهم مع القازاق الرحل أهالى البلدة الأصليين . فبينما كانوا يملكون لهجات منفصلة منذ القدم تكونت اليوم لهجة جديدة قريبة من مجموع هذه اللهجات ومن لهجة القازاق ولسانهم .

ويستقر المسلمون جميعا فى ستة أحياء . ويوجد بالبلدة ستة مساجد وست مدارس . ولكن يجرى تعليم الطلاب وتربيتهم فى حيين اثنين أو ثلاثة أحياء بشكل منظم . وإذا كان أغنياؤنا أيا كان عددهم قد بذلوا الهمة فى إعمار المدارس ، فإن العلماء[1] لم يهتموا بإصلاحها . نعم ، يتم التعليم على الأصول الدعائية ، فالمدارس موجودة لكن التربية ليست بالدرجة الكافية . ومع ذلك فهى موجودة . وبهذا الشكل لا يصح ولايجوز أن تبقى بلدة كقزليار على هذا النحو .

أقاموا المبانى الضخمة من أجل المدارس ، وأوقفوا عليها أوقافا ليست قليلة . إلا أنهم لم يستطيعوا أن يضعوا لها أصولا للتدريس بدرجة مقنعة . إن أهل الخيرات يفكرون فى صرف أموالهم بهذا القدر ، إلا أن أهم نقطة تتلخص فى أنهم يضعون أنفسهم أسرى للفكر السقيم للعلماء الجهلاء .

وتعتبر قزليار مركز سيبيريا التجارى . ورغم أن أكبر حجم للتجارة والثروة يتركز فى يد المسلمين ، إلا أن هناك قصورا كبيرا يكمن فى حرمانهم من

١- المقصود بالعلماء ، علماء الدين (المترجمة) .

الدراسة في المدارس التي تأسست من أجل المحافظة على الدين .

وأكبر قصور هنا أيضا يكمن في العلماء ، كما هو الحال في عموم روسيا أساساً . فالعلماء لايفسحون المجال أمام التعليم أو تربية الأطفال بطريقة مناسبة لأحوال الأمة . وربما يستغلون جهل العوام ، فيتحكمون في السذج ، ويخدعون الكثير من الناس تحت ستار الدين . ورغم أن أفراد الأمة البسطاء يقدرون قيمة العلم والمعرفة ، إلا أن العلماء يبذلون جهدهم في إهمالهم حتى الآن . وكلما كنت أجيء إلى هذه البلدة أو أمر بها في أي وقت كنت أشجع الناس الذين يقدرون معنى الكلام على خدمة المعرفة . وكثيرا ماكانوا يقبلون كلامي . ومع ذلك لم أستطع أن أحقق نجاحاً بدرجة تدعو إلى القناعة حتى الآن .

وسوف أوضح هذا الموضوع هنا : بذل العلماء والحكومة كذلك أقصى الجهد لمنع انتشار العلوم والمعارف بين المسلمين في روسيا ، ولازالوا يبذلون . وكما أن العوام يعتبرون آلة في يد العلماء الجهلاء ، فإن العلماء النفعيين يعتبرون كذلك آلة في يد الحكومة . ومثلما لايعلم العوام شيئا عن دسائس العلماء . فإن علماءنا أيضا لايعرفون شيئا عن دسائس الحكومة حتى الآن .

ومع ذلك فإن حال المسلمين في روسيا يستحق الشكر . فالأفكار العامة لاتقع تحت الحصر . وكل شخص يفكر كما يريد وكما يرغب . ويستطيع أن يعبر عما في فكره كما يريد . وبناء عليه فالقروي يستطيع أن يعبر عن فكره بين أقرانه بحرية كأحد أفراد الشعب . إلا أن أحوالنا الداخلية فقط ممنوعة عليه . ويستطيع كبير القرية نفسه عند تطرقه إلى المسألة الشرقية ومسألة المسيحية أن يقيم الحكم عليها ويوازن بين الأفكار . حتى أن الناس الذين لايعرفون القراءة والكتابة كثيراً يستطيعون أن يعبروا عن أفكارهم الجميلة . وتكمن هنا أكثر أحوال المسلمين في روسيا بريقا وأملا . فما دامت هناك قوة التوازن وقوة التحكم ، فسيأتي يوم يفرق فيه الإنسان بين الحسن والقبح وبين العدل والظلم بالتأكيد . ومن ثم لن تكون هناك شبهة في إمكانية التفريق بين العلم والجهل ، فتتوسع القوى الفكرية فوق العادة لدى المسلمين .

وسوف يعير أهالى قزليار النصائح سمعهم إن شاء الله . وسوف يأتى اليوم الذى يعملون فيه يدا واحدة ، ويفرقون بين أصدقائهم وأعدائهم ، ويستفيدون من مدرسيهم ومعلميهم .

ويوجد هنا من أعيان البلاد شخصية كبيرة محترمة نافذة الكلم ألا وهى شخصية « محمد جان حاجى دولت جيلرييف » . ولأن هذه الشخصية شخصية متدينة وعالية الهمة ، فالأمل ألا تعير كلام الرجال التافهين أى اعتبار . وهو يجتهد فى إحياء الأوقاف الكبيرة التى عمرها ، كما يعمل على إزالة العداوات البغيضة التى تحدث بين مسلمى قزليار ، لأنه إذا كان هناك شىء يؤدى إلى هلاك المسلمين اليوم ، فهو الفرقة والعداوة . ورجل مثل هذا يعتبر من الرجال الذين يعرفون ذلك تمام المعرفة .

وأصحاب الحمية بين تجار قزليار ليسوا قليلى العدد ، مثل ، حمزة حاجى وعبد اللطيف افندى وعارف افندى ، فإذا كانوا يسعون ويهتمون كمواطنين أصحاب حمية من بلدة واحدة ، فإنهم سيوفقون فى كل شىء دون شك .

طاحونة ضخمة :

لاتوجد أشياء تستحق المشاهدة فى قزليار . وإذا كان هناك شىء يجذب الأنظار ، فهو الطاحونة الضخمة التى أنشئت حديثا من قبل « مرادف تومينوف » وشركاه . ولاتوجد فى قزليار وحدها ، بل ربما تشاهد أبنية نادرة مثل هذه فى سيبيريا . وهذه الطاحونة تعمل كاملا بطاقة الكهرباء . أما عن مكائنها فكلها على أحدث نظام وتعمل بسرعة فائقة . لاتحترق بالنار رغم ضخامة البناء ، وليس هناك احتمال لاشتعال الحريق فيها وأكبر وظيفة تحققها هذه الطاحونة هو أنها المنافس الوحيد للنقابات فى عموم سيبيريا ، حيث يمكنها إيصال الدقيق الفاخر لقرى سيبيريا وبلادها كلها .

وعلى هذا فإن هذه الطاحونة تخدم المنفعة العامة ، ووجود أصولها فى يد المسلمين يستحق التقدير حقيقة .

التجارة:

لاتشبه تجارة سيبيريا ماعداها من ممالك شبها كبيراً . ومن ناحية أخرى توجد فيها جميع أنواع التجارة المختلفة . أما عن تجارة أهالي قزليار ، فأكثرها لايتعلق بقزليار وحدها ، بل إن كبار تجارهم يتعاملون مع تركستان الصينية . وعلى سبيل المثال يوجد وكلاء لكل تاجرمنهم في كل مكان من بلاد « خوتين » و«أيله » و « قولجه » ومنغوليا (بلاد المُغُل) بتركستان والصين . ويشترى هؤلاء الوكلاء العجول والأبقار والثيران منهم ، ثم يربون العجول هناك ويسمنونها . وعندما يحل الصيف تتحرك الأبقار من هناك مع رعاة مخصوصين . فتمر من ولاية « يدى صو » إلى صحراء قازاقستان سيرا على الأقدام وهي ترعى ، ثم تصل إلى قزليار خلال شهرين أو ثلاثة أشهر . وبمجرد أن تصل في أوائل شهر سبتمبر في فصل الخريف يخصص لها مكان للتربية . وبعض التجار يربون من ٧٠٠ - ٨٠٠ رأس ، والبعض الآخر يربي ١٥٠٠ رأس وآخرون يربون ٢٠٠٠ رأس من الأبقار . وهي تربى لمدة شهر أو لمدة ٤٠ - ٥٠ يوما على أقصى تقدير . وعندما يحل البرد ويهطل الثلج يذبحون هذه الحيوانات ، ويوجد لدى كل غنى مكان يشبه المزرعة لذبح الحيوانات . ثم يبيعون لحوم هذه الحيوانات وجلودها وسمنها كلاً على حدة ، ويبيعون حتى المصارين والأكباد والقرون أيضا . ويشكل هذا النشاط تجارة ضخمة في قزليار .

وعدا ذلك يتداولون تجارة بعض الحيوانات الأخرى مثل الضأن والخيل وغيرها بهذه الصورة . فيشترون الخيول من سيبيريا ، ويذهبون بها إلى أورنبورج . ويجمعون الضأن ، ويذهبون به إلى تركستان . ويشترى الضأن في الربيع بعشرة روبلات أو أقل للواحد . ومعلوم أنه يباع في الخريف في أسواق طشقند وفرغانة بما قيمته ٣٠ روبلاً إلى ٥٠ روبلا . ومعنى ذلك أن الضأن الذي يشترى بخمسة أو ستة مجيدى[1] ، يمكن أن يباع بخمسة وعشرين إلى ثلاثين

١- العملة المجيدية ، عملة عثمانية سكت لأول مرة سنة ١٨٤٤ م (١٢٦٠ هـ) بمرسوم سلطاني لتصحيح السكة التي يقال لها « باره » . وهي عملة فضية تحمل اسم السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ . ١٨٦١ م) = (١٢٥٥ - ١٢٧٧ هـ) يساوي الواحد منها ٢٠ غرشا . وقد سك منها نصف مجيدي ويساوي ١٠ غروش وربع مجيدي ويساوي ٥ غروش . وقد ظلت هذه العملة متداولة حتى قيام الجمهورية التركية ١٩٢٣ م . (المترجمة)

(Mehmet Zeki Pakalin, ciLt. 2 .S 428)

(Midhat Sertoglu, S.213)

مجيدى . وهذا النوع من الضأن يعطى ما مقداره ٣٥ أقة من الدهون أو يعطى ٤٠ أقة فى أندر الأحوال . والضأن العادى تحمل ليَّته ما مقداره ٢٥ – ٣٠ أقة من الدهون .

ومثل هذه التجارة أيضا تجود فى قزليار ، وأكثرها كذلك فى يد المسلمين . وميدان هذا الاقتصاد هو مجال التسابق من أجل مستقبل المسلمين فى روسيا كلها ، حيث تقوم تجارتهم على هذا النشاط .

وتعتبر قزليار مركزاً للتجارة فى سيبريا منذ القدم ، حتى أنها كانت لفترة طويلة من الزمن مقراً لإدارة الجمرك على الأمتعة الداخلة إلى آسيا الوسطى . وقد ألغيت إدارة الجمرك هذه بعد ضم صحراء « كناسار خان » إليها . أما الآن فهى فى بلدة فى حكم الولايات التى تشملها روسيا .

ثم عزمت على التوجه من قزليار إلى أومسكى ، والمسافة بين المدينتين تقدر بـ ٣٥٦ چاقرماً .

بلدة أومسكى

تعتبر أومسكى مركز سيبيريا العسكرى ، وفيها تتواجد عساكر كثيرة من الروس على الدوام . وقد اتخذت مركزاً عسكريا ١٨٣٨ م ، وصدر قرار من الحكومة بتخصيص قوة عسكرية فيها من أجل سيبريا كلها .

ومبانى هذه البلدة ليست قديمة . وإذا كانت قد ظهرت إلى الوجود ١٧١٦ م على أنها قرية صغيرة ، فقد هُجِّر إليها « قازاق الطون » لعدم وجود سكان فيها وقد نقلوا هناك إجباريا ليصبحوا شوكة فى ظهر القيرغيز[1] . وفى تلك الفترة لم

١– القيرغيز شعب من الشعوب التركية التى وفدت من شمال شرق آسيا الوسطى عبر التاريخ واستقرت فى المنطقة التى تشكل قرغيزستان الحالية . وعدا ذلك يوجد القيرغيز فى منطقة واخان بأفغانستان ، وفى باكستان عدة مئات من الأفراد ، وفى الصين ومنغوليا ألفان من القيرغيز الخوتون وبضع مئات من القيرغير القلموق .

وقد دخل القيرغيز فى الإسلام فى وقت متأخر حيث دخلوا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين عبر وادى فرغانة ، ولم يمتد إلى الإسلام القرغيز الساكنون فى المنطقة الوسطى والشمالية إلا فى القرن الثامن عشر الميلادى . وقد تم دخول القيرغيز عموما فى الإسلام على يد الجماعات الصوفية بصفة أساسية (المترجمة) .

(Yilmaz Oztuna : Bugünkü Sövyetler Birligi,S.244 Ankara 1991)

(أليكسندر وشانتال : المسلمون المنسيون ، ترجمة عبد القادرضللى ، ص ٩٨ بيروت ١٩٨٩ م)

تكن هناك طرق أو بواخر تجوب الأنهار . ولأن مدة التجنيد كانت تمتد إلى ٢٥ عاما ، فإن الأفراد الذين كانوا يجندون ، ويرسلون إلى مكان ما طوعا أو كرها ذات مرة ، كانوا يبقون هناك ويعيشون كمواطنين . ومع ذلك أمكن تحويل هذه البلدة إلى قصبة سنة ١٧٨٢ م . وأطراف هذه البلدة كلها عبارة عن صحارى ، والقيرغيز الرحل يرتحلون إلى كل مكان صيفا ، إلا أنهم يستقرن بأومسكى فى أيام الشتاء . وفى سنة ١٨٢٤ م أصبحت ولاية فى الوقت الذى لم يكن هناك أى شخص عداالعساكر المجندة من المسلمين .

أما الآن فإن خط سكك حديد سيبيريا يمر من هناك ، وقد أصبحت بلدة عامرة تبلغ صادراتها ملايين (روبل) .

المعارف :

بنى مسجد واحد من قبل الحكومة هنا فى عهد ألكسندر الأول (١٧٧٧ - ١٨٢٥ م) . ولم يكن يوجد للمسلمين منذ عشر سنوات مدرسة ابتدائية . ومنذ خمس سنوات أنشئت مدرستان جميلتان ، يتعلم فيهما اليوم مايربو على مائة طالب مسلم .

وكما أن أبنية المدارس فى أومسكى منظمة ، فكذلك الحال بالنسبة للتربية فهى منظمة للغاية .

والتجار المسلمون فى أومسكى ليسوا كثيرى العدد . وربما يوجد تاجر واحد فقط من تجار الدرجة الأولى من بين هؤلاء . إلا أنه أمكن تأسيس هذا القدر من المدارس بهمة شرذمة قليلة من هؤلاء . وقد تم ذلك بفضل همة بعض الرجال وحميتهم الدينية خاصة .

وتوجد مدرستان إعداديتان أسستا من قبل الحكومة للروس خاصة ، كما توجد مدرسة إعدادية عسكرية كذلك . وتوجد مدرسة للتبشير لاصطياد أبناء قرغيز الصحراء أيضا .

التجارة :

يشكل العسكر القسم الأعظم من الأهالى الساكنين فى أومسكى ، لأنها تعتبر مركز عسكريا كبيرا لسيبيريا . عدد الضباط والموظفين كثير جدا ، أما عدد التجار والحرفيين فقليل جدا مقارنة بهؤلاء . وأومسكى محاطة بالصحارى من كل جانب ، ولأن سكان هذه الصحارى جميعا من القيرغيز والقازاق الرحل ، فإن الحكومة تعين لإدارتها دائما حاكما عسكريا (قومندانا)[1] كبيرا . ولأن الجنرال « غوبير ناطور » كان قومندانا فوق العادة ، فقد كان يحكم هذه المنطقة حكما عرفيا أحيانا وأحيانا أخرى يحكمها عن طريق الإدارة العسكرية . ولهذا السبب يصعب على التجار التواجد فى مثل هذه المناطق .

ورغم ذلك يوجد التجار الأجانب بكثرة فى أومسكى . وأكثرهم من الداينمرك والبلجيك خاصة . وأكثر تجارة هؤلاء تتركز فى شراء الزبد من قرى ولاية توبولسكى بسيبيريا ، وإرساله إلى انجلترا . وكان الزبد يشترى من سوق أومسكى بما قيمته ٣,٠٠٠,٠٠٠ روبل سنويا لكى يرسل إلى انجلترا . وقد اكتسبت تجارة الزبد أهمية كبيرة جدا فى السنوات الأخيرة .

١- القومندار ، ضابط برتبة كبيرة فى الدولة العثمانية يتولى إدارة الجيش أو إحدى المفارز العسكرية أو منطقة مفتوحة . وهو تعبير يستعمل مكان « السردار » أى قائد الجيش وهذا المصطلح انجليزى الأصل من كلمة Commander ، وقد تحرف إلى قومندان على لسان الشعب وفى لغة الوثائق . (المترجمة)

(Mehmet Zeki Pakalint, cillt . 2 , S.332)

فى القطار من أومسكى إلى تومسكى

عزمت على التوجه إلى بلدة تومسكى بعد أن أقمت يومين فقط فى بلدة أومسكى .

ذهبت إلى المحطة لمغادرة أومسكى . وقد جاء إلى المحطة أحد الأحبة لتوديعنا وهو إمام أومسكى الشيخ « نيازى افندى سليمانوف » . ذهبت إلى مكان بيع التذاكر وسألت عن تذكرة بالدرجة الثانية كما تعودت ، ولكنى لم أجد مكانا خاليا . فوجدت نفسى مجبرا على الركوب بالدرجة الأولى ، لكن النقود فى جيبى لاتساعد على ذلك . بارك الله فى الشيخ نيازى افندى فقد كان بجانبى فى ذلك الوقت ، ولهذا أخذت تذكرة بالدرجة الأولى .

تقدر المسافة حتى تومسكى بـ٨٩٠ چاقرما . وكانت قيمة التذكرة بالدرجة الأولى ١٩ روبلا ، ٣٥ كاپكا . وقد حجزت كابينة بالدرجة الأولى لى وحدى .

وعربات السكك الحديدية فى سكك حديد سيبيريا منظمة ، خصوصا بالدرجة الأولى حيث يخصص لكل شخص كابينة تسمى « كوپى » .

ودعنا الشيخ نيازى افندى وداعا حارا ، ثم تحرك القطار . والبرد فى هذه الأيام قارس ، ولكن الانسان يستطيع أن يجلس متخففا من ملابسه إن أراد ، لأن عربات القطار محكمة .

وسكك حديد سيبيريا طويلة جدا . والقطار يقطع مسافة ٢٥ كيلو مترا فى الساعة . وكلما وجد الإنسان نفسه فى مكان ما فى العربة ، فإنه يستطيع أن يكبح جماح الضيق والضجر . فالمسافرون شاءوا أم أبوا مجبرون على أن يتحدثوا مع بعضهم البعض لاكتساب المعرفة .

قرأت كل ماتحتويه الجرائد التى اشتريتها من محطة أومسكى حتى الإعلانات نفسها . ولايوجد لدى عمل آخر بعد ذلك ، ولهذا شُغلت بتلاوة القرآن قليلا .

وفى تلك الأثناء فتح باب الكابينة المجاورة لنا فجأة ، ولا أدرى ماذا حدث . نظرت فإذا برجل هناك ، يجلس فى مواجهتى وفى فمه سيجارة إفرنجية . ولم يكد الباب يفتح حتى قال جارنا :

– معذرة ، أنا لم أمس الباب قط . ولكن الباب لطف بى . لقد كنت أفكر فى نفسى ، من يكون جارنا ياترى ! ماذا يقرأ وبأى لسان ؟ وبينما كنت أفكر فى ذلك فتح الباب . ماذا تقرأ بكل هذه السرعة رجاءً ؟ أنا لا أرى الكتاب الذى بيدك . نظرت من ثقب مفتاح الباب ، لكنى لم أحاول فتح الباب . أعتقد أنه فتح مصادفة . يحتمل أن يكون قد فتح من تأثير اهتزاز القطار .

قلت :

– هذا هو نفس مافكرت فيه أنا أيضا . من يكون جارنا ياترى ؟ ومن أين تأتى رائحة هذه السيجارة الطيبة ؟

قال :

– حسنا ، أقدم إليك سيجارة إن كنت تقبل .

ثم أخرج من تضاعيف جيبه واحدة ، وقدمها إلى باحترام بالغ .

قلت له :

– نحن فى رمضان و لانستعمل شيئا قط أثناء النهار . وإلا لما كنت رفضت إكرامكم .

ثم سأل ، قائلا :

– من تكون ؟ ومن أى البلاد أنت ؟

قلت له :

– أنا تترى .

قال :

- جميل جدا ، وأشكرك على هذه الصدفة . أنت إذن من أصل تركى .

كيف تنظر إلى الثورة التركية [1] الحالية من فضلك ؟ هل تنظر إلى الأحداث التى نقرؤها فى جرائد اليوم على أنها حقيقية ؟

قلت :

- أنا لم أهتم بالأمور السياسية قط ، وليست لدى معلومات فى هذا المجال .

ولا أستطيع أن أقول شيئا فى هذا الخصوص ، فأرجو المعذرة .

قال :

- ألم تزر الدولة العثمانية قط ؟ ألا تعلم مدى استعداد الأتراك أو عدم استعدادهم ألا توجد لديك معرفة بذلك ؟

قلت :

- حتى وإن كان الإنسان يعرف ، فإنه لايستطيع أن يقول شيئا فى مثل هذه المسائل الهامة مالم يكن واقفا على المعلومات السياسية . والأمم التى تحرم من التعليم فى المدارس مثلنا ، فإن معلوماتها فى مجال السياسة تعتبر مشوشة فعندما تقدم الأمم المغلوبة على أمرها (المحتلة) خاصة أفكارها فى المسائل التى تحير ألباب دبلوماسيى دول معظمة كهذه ، فإنها تكون عادة مثل بائع البيض الذى يبحث عن المجوهرات .

قال :

١- الثورة التركية هى ثورة ١٩٠٨ م التى قامت بهاجمعية الاتحاد والترقى ضد السلطان عبد الحميد الثانى كما سبق أن تحدثنا فى إحدى الحواشى السابقة ، ص ٨٩ .

ومن الجدير بالذكر أن كلمة « الترك » بدأت فى هذه الفترة تكتسب نوعا من الاحترام والقداسة بعد أن كانت موطن سخرية فى تركيا ، وذلك بسبب إهتمام مفكرى أتراك آسيا الوسطى مثل اسماعيل غاسبيرنسكي وحسين زاده على بإحياء فكرة القومية التركية والتورانية : (المترجمة)

(د . أحمد السعيد سليمان :المرجع السابق ، ص ٢٩ ، ٣٠)

– كلامك صحيح . ولكن أهمية المسألة التركية تكمن فى أنها ثورة ربما لم ير مثلها التاريخ بكل صراحة . فالرجال الذين ليسوا مثلكم تربطهم روابط دينية وقومية مباشرة ، ولكنهم مثلنا أمة ليست لها علاقة أو رابطة بالأتراك قط ، أقلقها ذلك . فعوام مسيحيينا هنا وهم « الموجيك » يصيبهم القلق ويقولون كيف حال البلغار إخوتنا فى العرق والدين . ويتساءلون قائلين « ألا توجد حروب بين البلغار والأتراك ؟ » وذلك عندما يذهبون إلى هيئة الشيوخ (كبار السن) المسماة « فولص » والتى لاتعرف القراءة أو الكتابة . ألا يوجد لديك إحساس لهذه الدرجة ؟! خاصة وأننى أرى أنكم ستكونون عضوا مهما لدى التتار . إنكم تتقدمون نحو المركز الأول وفى رأسكم عدة جرائد لكم ، خاصة ماكان يقول فيها السلطان عبد الحميد عن نفسه « أنا خليفة المسلمين فى العالم أجمع » . يوجد أحد الأتراك فى بلدنا لندن ، إنه رجل غنى . كنا نلتقى أحيانا ونتصاحب . وعندما كان يأتى مجال الكلام ، كان يقول مفتخرا : عدد المسلمين يبلغ ٤٠٠ مليون نسمة » . كيف تتلقى هذا بكل هذا البرود ؟! لا أستطيع إلا أن أتعجب منك ! ..

– عفوا ، يفهم من كلامك أنك من لندن ، وصديقك التركى يوجد فى لندن أيضا . أما لندن فإنها تحتل موقعا هاما فى وسط أوروبا . وأعتقد أننى لو كنت فى لندن أنا أيضا . لكنت أهتم مثلك بالمسائل السياسية وأشاركك الفكر . لولا أننى تترى سيبيرى ، يأتى البريد إلى بلاده مرة كل أسبوع . وعندما تأتى إلينا جرائد العاصمة يكون قد مر عليها من ١٥ – ٢٠ يوما . وعلى هذا الوضع فإن كانت المسألة هامة إلى هذا الحد أصلا ، فإنها تفقد أهميتها بمجرد أن تأتى إلينا ، لأن الخبر يأتى إلينا بعد أن يحدث وينتهى . فالأحداث تكون قد مضت وانقضت ولم يمض عليها وقت قصير . وكبار قريتنا سمعوا بحرب اليابان التي استمرت شهورا بعد حدوثها وانقضائها [١] .

١– حرب اليابان هى الحرب التى قامت بين اليابان وروسيا سنة ١٩٠٥ م وهزم فيها الروس . (المترجمة) .

قال :

– إننى أتعجب من تغافلك إلى هذا الحد ، خصوصا إزاء مسألة تركيا الحالية التى تسمى المسألة الشرقية . إنها تعتبر مسألة حياة بالنسبة لكل المسلمين . وعلى هذا فهل تتساوى الحياة مع الممات فى نظرك ؟! إن وضعك هذا يدعو للحيرة حتى لمن يملكون فكراً محدوداً . وعلى أى حال فإن كلامك هذا خارج عما كنت أتوقعه ، إنه حال أغرب من الثورة التركية . ولكن ورد بخاطرى الآن ، أنك تتعامل معى بهذه الطريقة من منطلق الحرص . وأنا الآن مجبر عفوا أن أقول لك لاتتهمنى بأننى من المخابرات حيث أننى لا أقبل مثل هذه الرذالة ، فأنا تاجر ابن تاجر . ومع ذلك شغلت ذهني أنا أيضا الثورة التركية التى شغلت أفكار العالم أجمع والمعاملة السيئة للدول الأوربية . إننى لا أستطيع أن أشك البتة أن لك علاقة أكثر منى بهذه المسألة .

وعلى كل حال ، فإن كانت هناك أشياء تدعونى إلى الحيرة بل وتدعو كل الناس للحيرة ، فإنما هى الخوارق التى تشاهد فى الأمة الشرقية : فمن ناحية سرعة حدوث الثورة التركية .. وليس بالشىء البسيط اقتلاع الاستبداد من جذوره خاصة مع عدم السماح بإراقة الدماء حتى من أنف أى إنسان . لقد واجه ثلاثة أو خمسة أشخاص قوة مستبدة استمرت ثلاثين عاما[1] . وبهذه الصورة حدثت الثورة . وتعتبر هذه خارقة بكل صراحة . ومن ناحية أخرى ، استمرار قلاقل بلاد العجم لعدة سنوات . أعتقد أن هذا دليل التشدد حقيقة . ويمكن أن يقال هذا على الشرق خاصة . ولا يصح أن يكون عمل كل أمة الاستمرار فى مجال سفك الدماء بهذه الصورة . هناك بعض الأشخاص فى روسيا صاحوا وهتفوا لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر ، وحينما رأوا قوة الحكومة آثروا الصمت .

١– يتحدث التاجر مع المؤلف فى هذا الحوار عن ثورة جمعية الاتحاد والترقى التى حدثت ١٩٠٨ م ضد السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ – ١٩٠٩) = (١٢٩٣ – ١٣٢٧ هـ) كما سنوضح في الحاشية التالية (المترجمة) .

قلت

– أنا لا أستطيع أن أوافق تماما على كلا المسألتين اللتين تدوران فى ذهنك . حدثت الثورة التركية فى زمن قصير ، ولم يكن هذا راجعا إلى استعداد الأتراك بل إنه من المحتمل أن يكون تأثير لقاء ريفال Reval (١) على هذه الثورة قد خدم أكثر خاصة وأن مذكرة روسيا وانجلترا قد أجبرت السلطان عبد الحميد أيضا على إعادة النظر . ويحتمل أن تكون الجمعية اليوم قد أصبحت حكومة ، والحكومة أيضا أصبحت جمعية ومثل هذا التوحد يمكن أن يؤخر قرار لقاء ريفال . إلا أن أفكار ساسة أوربا لايمكن أن تتبدل . أما عن مسألة العجم فقد غرقت فى بحار الدم كنتيجة لسياسة روسيا وانجلترا أيضا . لا أسف على تواجدهما هناك ، فما كان ينبغى أن يمهل الوحش لكى يتوحش .

قال جارنا بصيغة النقد :

– كنت تقول أنك غير مولع بالسياسة . والآن كيف تظهر أنك تملك فكرا خاصا تماما ؟ ولكن لأننى أنظر للمسألة التركية فى ضوء المسألة الشرقية ، فما كانت تركيا (الرجل المريض) لتستطيع أن توفق فى الحفاظ على حيثيتها مالم تكسب الحرب .

١– لاحظ أعضاء جمعية الاتحاد والترقى سيطرة الضباط والخبراء الأوربيين على الجيش وعلى المالية فى مقدونيا ، مما ألهب شعورهم وزاد شقة الخلاف بينهم وبين السلطان عبد الحميد الثانى .

وكانت المنظمات البلغارية لأسباب قومية ودينية تعمل على الإكثار من الأوربيين فى مقدونيا وكانت تعمد أحيانا إلى الإضرار بمصالح الدولة الأوربية لترغمها على التدخل فى شئون المنطقة وإضعاف نفوذ العثمانيين . وبهذا القصد أعلنت كبرى المنظمات وهي « المنظمة الداخلية » الثورة على العثمانيين (فى يوليو سنة ١٩٠٣ م . ولم يكن بد من أن يتصدى الجيش العثمانى لقمع الحركة ، ومن أن تبادر الدول) الأوربية فتتبادل المذكرات . ثم اجتمع امبراطور النمسا وروسيا فى أكتوبر ١٩٠٣ م . وتقرر فى هذا الاجتماع المطالبة بأن يعين وكيلان مدنيان أحدهما نمسوى والآخر روسى للعمل مع حلمي باشا مفتش عام الولايات الثلاث بالروملى (سالونيك ومناستر وقوصوه) ، والمطالبة أيضا بأن يعين جنرال أجنبى لإعادة تنظم الجاندرامة التركية وأن يساعده ضباط أوربيون . ولم يجد الباب العالى بداً من الرضوخ لهذه المطالبة .

وكان من الطبيعى أن يقاوم الموظفون العثمانيون بالروملى هولاء الأجانب مقاومة سلبية مظهرها هو عدم التعاون . ولكن انجلترا بادرت إلى الرد على موقف الموظفين العثمانيين من هذه البعثة العسكرية فطالبت بتوسيع سلطاتها وبزيادة أعضائها . وكانت مطالب انجلترا تتحق حين تم التقارب بينها وبين روسيا فقد التقى ادوارد السابع ملك انجلترا مع قيصر روسيا فى « ريفال » . وراجت الشائعات بأن أوربا ستعمل على تقوية البعثة العسكرية وبأنها ستطالب السلطان بتعيين حاكم عام مسيحي على بلاد الروملى .

وقد كانت هذه الشائعات بالإضافة إلى موقف السلطان عبد الحميد من جمعية الاتحاد والترقى من العوامل التى دفعت الجمعية إلى أن تستبق الحوادث وتبادر بإعلان الثورة ١٩٠٨ م . (المترجمة د . أحمد السعيد سيمان : المرجع السابق ، ص ٣١ – ٣٢).

قلت :

– كسبت تركيا حرب اليونان الأخيرة بتوفيق كامل . ولكن الأتراك لم يحافظو على حيثيتهم . وإذا ما أظهرت تركيا حقيقتها للأوربيين ، فإن الحرب بين الصليب والهلال ستقوم .

رد جارنا وهو يضحك ، قائلا :

– إنها مدنية القرن العشرين ! ! .. ها !. ها !. ها ! .

قلت له

المسلمون متوحشون[1] ، يحتمل أن يتوجهوا ضد المسيحيين ! أما الأوربيون فإنهم لا يصلون إلى هذا المجال فى ظنى .

وبينما يقول جارنا ::

– « قيل فى اجتماعات أعضاء فرقة أكتوبر فى موسكو فى الثالث من أكتوبر ما يأتى : إذا أخذت بعين الاعتبار خطابات كل من الجنرال كاماروفسكى وشامشوف التى مؤداها أنه إذا لم يتم الحصول على الأسلحة بقدر كبير فإنا يبدو أنهم (أى المسلمين) يسيرون نحو محاربة المسيحيين فكريا ، نعم للإنسان أن يأمل فى كل شىء من مدنية القرن العشرين » .

اقترب القطار من المحطة . نظرت ، فإذا بها محطة « چوليم » . ولأن المساء على وشك الحلول ، أحضرت الماء لإعداد الشاى ، ونزل رفيقنا لتناول الطعام .

تحرك القطار من « چوليم » ، فجلست لتناول طعام الإفطار (إفطار رمضان) وفى تلك الأثناء جاء إلى جارى مرة أخرى . تلطفت به قائلا : « مرحبا بك فلأقدم لك الشاى إن أردت .. » كان جارنا هذا من أهل الفضول ، فقد طرح السياسة جانبا هذه المرة ، وفتح موضوع الدين ، قائلا :

– لماذا كلف الله بأشياء ثقيلة هكذا ياترى ؟! كيف يكون صيامكم ، وماهى المأكولات الممنوعة ؟

قلت :

– أنا لست فيلسوفا . لا أستطيع شرح وبيان حكمتها بالتمام . لا يؤكل شيء قط في صيامنا من الصبح الصادق حتى الغروب .

قال متعجبا بشدة :

– أنا لا أعرف الإسلام قط ، ولا علم لي بالمسيحية أيضا . ومع ذلك فالطريق طويل هنا (المقصود طريق السفر) . فلنمض الوقت . هل تستطيع أن تعطيني معلومات مبسطة عن الاسلام رجاءً .

قلت :

– هاي .. هاي .. أقول لك بقدر ما أعرف .

قال :

– كنت لفترة من الزمن على « مذهب لوتيران » . أما الآن فأنا على المذهب الكاثوليكي .

سألته :

– لماذا غيرت مذهبك ؟

قال :

– لست أدري . وعلى العموم كان هناك موضوع زواج . وعلى أي حال أقنعني القس الكاثوليكي بذلك . وليست هناك أهمية لهذا الموضوع بالنسبة لي في الواقع ! هذا ما حدث ..

قلت له :

– إن تفضيل مذهب على آخر يعتبر مسألة لها سبب ، إنها مسألة هامة .

١– يتهكم المؤلف على نظرة الغرب المسلمين واتهامهم إياهم بالوحشية (المترجمة)

قال :

– نعم ، إن أهمتيها كانت تكمن فى الشباب . ولكن هذا الموضوع مضى وانقضى . إننى الآن أريد أن أستفيد منك . ماذا يلزم للإنسان لكى يكون مسلما من فضلك ؟ أنا الآن مثلا كاثوليكى ، فإذا أردت أن أغير دينى وأكون مسلما ، فمن ينبغى على أن أتصل به ؟ وبأى معاملة يمكن أن يعاملنى بها ذلك الرجل ؟

قلت :

– لا يوجد لدينا فى الإسلام معاملة كمراجعة شخص ما . فالإيمان عبارة عن رغبة وجدانية . والإنسان الذى يهتدى للإسلام ، يعتقد فى وجود خالق للكائنات .

وبعد أن يثبت الوحدانية لواجد الوجود ، فلن يلزمه شىء آخر إذا صدق بحاجة البشرية إلى الأنبياء . يمكن أن تكون هناك وسيلة بين الله والعبد تتمثل فى الأنبياء العظام فقط . ولا حاجة للاستعانة بوسيلة أخرى عدا الأنبياء لتبليغ الأحكام . إن أيا من يصدق بوجود الله الواحد بوجدانه يعتبر ذلك كافيا منه إذا صدق بالأنبياء العظام ومن جملتهم سيدنا محمد . وعندنا أن ذلك الرجل يعد مسلما .

قال :

– كم عدد الزيجات اللازمة ؟

قلت :

– أظن أنك تهزأ . وليس من حقك أن تحقر من شأن النبى أو الدين .

قال :

– معذرة ، وأرجو المغفرة ، فلم يرد بفكرى موضوع التحقير أصلا وقطعا . لماذا أفكر فى الاحتقار ؟ إننى أفكر فى التعلم بكامل الاحترام .

قلت :

– إن الدين الإسلامى لايتدخل فى الحرية الشخصية للناس فى أى وقت من الأوقات . ومسألة النساء مسألة حياة طبيعية بالنسبة للإنسان وليست مسألة دين . ولكن حقوق النساء قبل الإسلام كانت ضائعة عند العرب ، فقدكان الرجل يتزوج العدد الذى يرغب فيه من النساء . كان يجيز لنفسه أن يتزوج مئات النساء . وعندما جاء الإسلام حدد هذا العدد . وحرم الزواج بأكثر من أربع نساء . إلا أن الأربعة ليست واجبا ملزما ، ولكنها جائزة عند الضرورة وحتى بعد أن أكد القرآن على اتباع العدل فى هذا الجواز ، عاد وقال : « ولن تعدلوا ...(١) .

قال :

– ومع ذلك فمسألة النساء مسألة هامة . كان ينبغى أن يكون الحق لدى النساء حقا مكتسبا . فقد يتوفى زوجها ، وينبغى أن تعطى من الصلاحيات بحيث تستطيع أن تقوم بالتصرف بنفسها عند الحاجة .

قلت :

– عفوا نحن نبحث فى موضوع الدين ولانبحث فى موضوع العادات . وأنت الآن تريد أن تتحدث عن موضوع العادات . وهكذا العادة غالبا فى الأمم الشرقية لدينا .

قال :

– ينبغى أن يكون هناك تأثير للدين أيضا . لا اعتبار قط للنساء فى تركستان . إنهن محرومات تماما من الأحاسيس البشرية . أعتقد أن التجاوز الذى حدث لهن تم باسم الدين .

قلت :

– هذا محتمل ، إلا أنك غيرت قليلا أساس المسألة .. إن حقوق النساء شىء والعادات شىء آخر . نساؤكم اليوم أحرار تماما ، ويتساوون مع الرجال فى كل تعامل . ولكن بالنسبة للحقوق فسواء كن متساويات أو غير متساويات فهذه

مسألة أخرى . ولكننا لم نر جنرالا واحداً من بين نساء أوربا بعد . ولم نر دبلوماسيا واحداً . أما مسألة الميراث فحصتهن فيها السُّبع . أما فى الإسلام فحصتهن النصف . ولست أدرى أيهما أحق ؟!

وبينما نتحدث سويا جاءتنا سيدتان . وبدأتا كضيوف الإصغاء لحوارنا ، فقلت وأنا أستمر فى الحديث :

– إذا فتحنا مسألة النساء ، فإنهن يستفدن من ضعفهن ، ولكن لايعرفن حقوقهن . ومدنية اليوم تغفل النساء تحت ستار الإنسانية . أما إذا كانت معرفة الحقوق ترتكز على الرغبات النفسية والجسدية ، فإن الإسلام لدينا لايوافق على مثل هذه الأمور .

وأثناء ذلك تدخلت إحدى السيدتين ، قائلة :

– إن الضعيف لايستطيع أن يدافع عن نفسه ضد القوة فى أى وقت من الأوقات . وأنا أشاركك الفكر . إننى دخلت فى تجارب كثيرة . وعندنا فى أوربا رفعت أستار النساء ، وضاعت حقوقهن أيضا . الرجال حقيقة لايتزوجوننا وإنما يتزوجون أموالنا . أولا عندما يتزوجوننا يسألون آباءنا دون حياء قط :

« سأتزوج ابنتك ، ولكن ماذا تستطيع أن تحضر من جهاز ؟ » والبنات اللاتى لايستطعن إحضار الجهاز محرومات من حق الزواج .

قالت السيدة الأخرى :

– إن مسألة تستر النساء فى الإسلام مسألة صعبة جدا بالنسبة لنا . ومع ذلك فمعيشتهن داخل منازلهن أكثر انتظاما . لدينا جيران من المسلمات نختلط بهن كثيرا . هن صاحبات كل الأمور داخل المنزل ، تستطعن عمل كل ماترغبن فيه ، فهن حرائر . إلا أنهن لايختلطن بالرجال ، ومع ذلك فهن ممنونات من هذا الوضع ، ولايشكين قط . ولكن هذا غير ممكن بالنسبة لنا ، لأننا تعودنا على الاختلاط .

١– .. فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ... (الآية رقم ٣ من سورة النساء) ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما . (الآية رقم ١٢٩ من النساء) .

قلت :

– كل أمة تنظر إلى عاداتها نظرة طيبة . كان كلامنا ينصب أساسا على الدين مع جارنا ، أما الآن فعلينا أن نترك ذلك .

قلن :

– كلا ، استمر ، ونحن سنستفيد أيضا .

قلت :

– الدين موجود ، إلا أن هناك أشياء كثيرة ترتكب باسم الدين . وينبغي على الإنسان أن يفرق بين هذا وذاك .

وفي ذلك الوقت دخل من باب الكابينة عدة أشخاص ، وبدأوا في التدخل في الكلام . وبهذه الصورة أصبح هناك مؤتمر يضم مللا مختلفة عادة وقد اضطررنا إلى الخروج إلى الممر لأن الكابينة أصبحت لاتسعنا .

وبينما كنت أتحدث تطرق الموضوع إلى البرلمان « دوما » ، وظهرت مسألة القومية ولم تكد مسألة مستقبل الأمة تفتح ، حتى اتضحت ماهية كل شخص وقوميته على الفور كان يوجد في عربتنا : أربعة من البولونيين ، ويهوديان ، ونمسويان ، وتترى واحد ، وسيدة واحدة بيلوروسية ، وثلاث سيدات روس ، وواحد من آستونيا وبنت فرنسية واحدة . كان كل واحد من هؤلاء مرتبطا بأمته لدرجة أنه كان يريد أن ينسب كل الحسنات إليها .

بينما كنا في مسألة القومية أفكار متعددة ، تطرق الكلام إلى مسألة الدين ثانية ، فإذا بهذه الفرق المختلفة تتوحد جميعها في هذا الموضوع ، أما أنا فقد كنت مسلما .

وأغلب الظـن أنه لايوجد بين رفاقنـا من أكمل دراسـته فـي دار الفـنون (الجامعة)[1] فهم لايختلفون عنى ، ، وقد أصبح هذا معلوما من كلامهم . لا ينبغى على كل واحد منهم أن ينصب كلامه على دينه وحده . ولكن كل واحد كان يجتهد لأقصى درجة فى توضيح مدى تقديسه لدينه كما كان لا يتردد أصلا فى الدفاع عنه .

وأنا بدورى بدأت أتحدث عن مزايا الإسلام ..

وفى تلك الأثناء وصلنا إلى محطة « أوب » ، فنزل الجميع لتناول الطعام ، وقطع الكلام . وقد أصبح الوقت متأخرا فى الحقيقة . فذهبت لإعداد فراشى ونمت . وفى ذلك الوقت جاء جارنا . وساد الصمت بيننا ، ثم ضحكنا ، وقدمت له عذرى ونمت .

وعندما فتحت عينى فى الصباح الباكر ، وجدت جارنا قد نهض قبلى ، وقد كان فى حالة قلق واضطراب فى كابينته ، فقلت له :

– أيها الجار ماذا رأيت من رؤى ؟

قال :

– رأيت رؤيا غريبة جدا ، فنهضت قبل موعدى المعتاد لأننى كنت خائفا .

قلت :

فليكن خيرا !

قال :

– لست أدرى . أى خير يكون . كنت فى صخب عال فى رؤياى . والناس كلهم فى مأتم . وبين هؤلاء جميعا يوجد معمم يدخن . وقد كان الدخان يلف المكان لدرجة أنه لم يستطع أن يرى صور الحاضرين بالمجلس .

١- راجع حاشية ص ١٠١

قلت له :

– إنه خيال ، ولا يليق برجل محترم مثلك خيال كهذا . لو كان هناك شخص آخر قال شيئا من هذا القبيل لك لضحكت بقهقهة عالية . ويحتمل أنك تقول لى : إذا قلت لك شيئا شبيها بذلك فهل تقتنع ؟ لايوجد مأتم فى ديننا . يقولون عندنا على مثل هذه الرؤى ، خيال .

قال :

– إننى أقول لك ما رأيته بالضبط . كما أننى خفت خوفا شديدا فى الحقيقة . ورؤية المأتم لدى الروس عندنا شيء سيىء للغاية .

ضحكت أنا والجار ، ثم جاء مسافر آخر من الخارج ، وقال لى :

– هل يوجد مكان هنا ؟

قلت له :

– تفضل ، يوجد مكان .

مع أن جارنا يتضح من ملامحه أنه ينتمى إلى أمة شرقية ، إلا أنه ليس من الواضح من هو . ولهذا سألته :

– من أنت ؟ فأجاب قائلا :

– ياقوتى[1] :

١– الياقوت أحد الشعوب التركية التى تسكن منطقة شمال شرق سيبيريا ، حيث البرد القارس . والشتاء فى ياقوستان يستمر من ١٨٠ – ٢٢٠ يوما فى السنة . وتبلغ درجة الحرارة فى شهر يناير من ٣٤ – ٤٥ درجة تحت الصفر فى المتوسط . وقد تصل أحيانا إلى ٦٨ درجة تحت الصفر .

ويتحدث الياقوت اللغة الياقوتية وفى إحدى اللغات التركية القريبة إلى حد ما من اللغة التوائية.

وياقوتستان أكبر البلاد الإسلامية قاطبة من حيث المساحة حيث تزيد على ٣ ملايين كم٢ . ويدين سكانها الأصليون بالإسلام ، إلا أن الضغط السوفيتى الرهيب تمكن من تحويل الكثير من الياقوت إلى الأرثوذكسية أو الشامانية . كما أن هجرات الروس والأوكران المتوالية جعلت نسبة تعداد السكان الذين يبلغون أكثر من المليون قليلا ، مختلة لصالح الروس . (المترجمة)

(Prof . Nadir Devlet , S.89)

قلت له :

– جميل جدا ، أنا لا أعرف أحدا من الياقوت . أرجو أن نتعرف ببعضنا اسمى عبد الرشيد ، تترى الأصل .

رد قائلا :

– أنا ياقوتى ، ولقبى (اسم عائلتى) « ميخايلوف »

دفعنى هذا إلى الاستغراب الشديد ، فقلت له :

– هذا لقب روسى خالص .

رد ميخايلوف ، قائلاً :

– لقد صار الياقوت عندنا روسا وانقضى الأمر . ولا يوجد ياقوت لم يقبلوا المذهب الأرثوذكسى حاليا . ولهذا أصبحت ميخايلوف إن طوعاً أو كرها . توجد لدى الروس قاعدة ، وهى أنهم يغيرون أسماء الذين يقبلون المذهب الأرثوذكسى . إلا أنهم لا يغيرون اللقب .

الياقوت عندنا ليست لهم ألقاب فى الأصل ، وكل شخص يخاطب باسمه الشخصى . والآن منذ أن جعلوا ياقوتنا أرثوذكساً ، فقد علقوا لنا فى ذلك الزمان ذيولا إذن . إنها ليست ذيولنا ، بل هدايا الروس لنا .

سألته :

– هل الذين يقبلون المذهب الأرثوذكسى سعداء ؟

رد بقوله :

– جاء قسيس ومعه الشرطة ثم قال للناس : هذا هو الدين ، وهذه هى الشرطة . وبناء على ذلك أصبح الناس أرثوذكسا . والذين اعتنقوا المذهب الأرثوذكسى فى السابق كانوا منبوذين فى نظر الأمة . لكن الحكومة روجت لهذا المذهب بالتدريج . ولو كان هناك اثنان من الياقوت دعيا لاعتناق الأرثوذكس لما استجاب أحد منهما قط فى حقيقة الأمر . وقد أعطيت امتيازات خاصة للذين اختاروا الأرثوذكسية ، كما منحوا الاحترام كله . ورغم أن عموم الياقوت اعتنقوا الأرثوذكسية الآن رسميا ، إلا أنهم بقوا على الشامانية[1] أيضا بصورة غير رسمية .

ورغم أن الياقوت عندنا أخلصوا للأرثوذكسية بقدر كبير حتى ليوجد منهم متعصبون لها ، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يتركوا الشامانية تماما . وسيأتى يوم يراجعون فيه الشامان عندما يصيبهم الضيق والضجر من جهة ما ، ويلقون بالأصنام والألواح التى أعطاها لهم قساوسة الروس جانبا ، ثم يطلبون الشفاعة من « لياق توس »

١ – الشامانية : الشامان نوع من رجال الدين الذين يلعبون دور الوساطة بين الإنسان والروح فى الشامانية . والشامانى فى نظر العالم هو من يقع تحت تأثير الأرواح الخيرة والأرواح الشريرة . والشامان وحده هو الذى يملك القدرة على الاتصال بالأرواح الشريرة التى تؤذى البشر والحيوانات . لا يستطيع الإنسان أن يعرف طبيعة الأرواح وأنواع الطباع ومن أى الطرق توجه وتنتظم قبل كل شىء ومن أى الأشياء تسعد ومن أى جنس أو نوع من القرابين تفرح وتسر . والشامان وحده هو الذى يعرف هذا كله كما يعرف مدى القوة والإلهام الذى يحتاج إليه البشر من أرواح الأجداد والأقرباء . وهو وحده أيضا القادر على أن يسخر أرواح الخير لفائدة البشر ونفعهم من ناحية ، وأن يمنع الأرواح الشريرة من أن تؤذى البشر بوسائل مختلفة من ناحية أخرى . والشامان يعمل على الوصول إلى النتيجة التى تتطلبها الأرواح لكى ترضى وتطمئن عن طريق الاتصال بها بواسطة الطقوس والمراسم التى أعدت لهذا الغرض .

وتعتبر الشامانية الديانة الشائعة فى منطقة سيبيريا ، وتتركز أكثر بين الياقوت والبورات والألتاى . وهى ديانة شعوب أورال ألتاى القديمة باختصار شديد . وتشكل الشامانية صفحة هامة فى تاريخ الحضارة التركية المغولية .

وإذا كانت الشامانية بكامل معناها لا يعتبرها البعض دينا ، فهى فى مقام الدين من حيث المساحة الشاسعة التى انتشرت فيها . (المترجمة)

(دائرة المعارف الاسلامية التركية ، م ١١ ، ص ٣١٠ – ٣٢٠)

قلت له :

– هل تقدم لى بعض المعلومات عن هذه الشامانية رجاء ؟ ومامعنى كلمة شامانى ؟ وماذا يكون الشامان ؟ وماهو « ياﭘاق توس[١] » ؟

قال :

– الشامانية لدينا فرع من المذهب البوذى ، والشامان رئيس مذهبنا .



صورة رئيس المذهب الشامانى

١ – ياﭘاق توس : رغم أن ياﭘاق توس يعتبر أكبر معبودى الشامانيين ، إلا أن كلمة « ياﭘاق » بمعني « واسع » فى اللغة التركية . و« توس » بمعنى « صدر » . وقد سألت عنها لأننى لا أعرف المناسبة التى قيلت فيها .

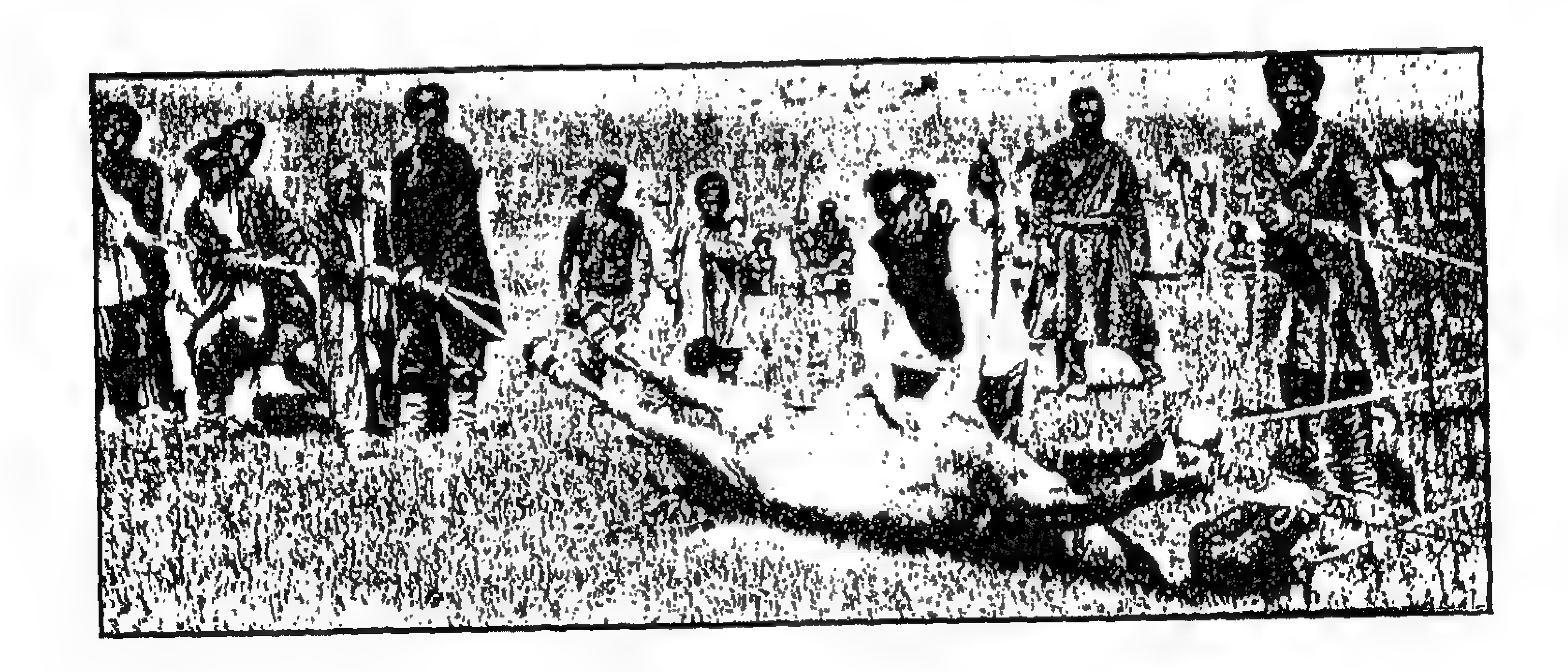
و« ياليپاق توس » هو معبودنا المقدس . ونحن نطلب الشفاعة منه . وننحر القرابين من أجله عند الضرورة .

قلت له :

– لا يجوز ذبح كل ذى روح فى المذهب البوذى . إنكم تذبحون القرابين ، فكيف ذلك ؟ إن هذا لا يدخل عقلى .

قال :

– لا يجوز ذبح كل ذى روح إذا كان من أجل الطعام . أما من أجل الفدو فهو جائز . حتى القربان فإنه فدو . ومع ذلك اعترى المذهب البوذى تغير وتبدل كثير . ولا يوجد لدى اللاما قربان . ولكن القبائح التى عندهم أشنع مما عندنا . إذا دخلت معابدهم وشاهدت مابها أصابتك الحيرة . ويعتقد أن هذه عبادة باسم الدين والمذهب .



صورة مراسم القرابين لدى الشامانيين

سألته :

- هل تستطيع أن تقول لى ماهى هذه الشنائع ؟

قال :

- لا ، لا أستطيع أن أقول ، حيث توجد هنا سيدة معنا .

(كانت واحدة من السيدات اللائى معنا تستمع إلى كلامنا فى هذا الحوار)

قالت له :

- هناك أشياء كثيرة لايمكن أن تقال أمام النساء . وهل يحتمل وجود آلهة ومعبودين ؟

قال :

- ماذا تقول ياسيدى ، أى شىء يوجد أى شىء؟ !

قلت :

- أشياء كثيرة (ثم نظرت إلى السيدة) وقلت لها : إننى راغب فى وجودك معنا ، ولكنك حرمتينا من الاستفادة .

ولم أكد أقول ذلك حتى نهضت السيدة واقفة على قدميها ، فقال :

- هناك خوف لدى الآلهة منا .. ثم اندفع منصرفا . فقلت له : اجلس ، فجلس .

قلت لجارنا الجديد .

- لقد انصرفت الفتاة ، والآن اعطنا معلومات عن آلهة اللاما ..

قال :

- إن صورة المعاملة الشنيعة التى يمكن تصور حدوثها بين الزوجين توجد فى المقام المقدس بالمعابد ، حيث يقبلون ويقدسون مايظن أنه المعبود . والفضائح الموجودة فى المذهب البوذى لايمكن الحديث عنها كلها ، حتى أنهم يخفون هذا فى الواقع . ولا يستقبلون أى شخص لاينتمى إلى مذهب اللاما فى هذا الجزء من معابدهم .

قال جارنا القديم العجيب :

– إذا كنت تريد صراحة أكثر من ذلك ، فإن هذا المذهب كان تسلية لكبار السن .

سألت :

– عزيزى ميخايلوف ، هل يوجد لدى الياقوت عندكم من أكمل تحصيله :

قال :

– عندنا قليل جدا ممن أتموا تعليمهم بالمدارس العالية لدرجة يمكن أن يقال معها أنه لايوجد من أكمل التعليم بالمدارس العالية . لايوجد لدينا مدارس وطنية فى الواقع . وكل المدارس التى افتتحت أقيمت من قبل المبشرين ومقصدهم معروف طبعا . لقد تم التعليم عندنا بدون مدارس . ولهذا لم تعد هناك حاجة لافتتاح مدارس الآن .

سألته "

– كيف تكون مسألة الأراضى عندكم ؟ وهل لديك أراض خاصة ؟ هل يمكن أن يكون لك ملك خاص من الأراضى ؟ وهل يمكن تخمين مقدار الأراضى عند كل السكان ؟

رد قائلا :

– كل الأراضى عندنا عبارة عن أراضى مستنقعات (أراضى سبخة) . والأراضى الخصبة قليلة جدا . وقد أتى إلينا مهاجرون كثيرون ولازالوا يأتون من داخل روسيا . وإذا كنا لا نحتاج الآن إلى الأراضى ، فسوف يأتى الوقت الذى نحتاج فيه إلى الأراضى .

وفى هذه الأثناء جاء مفتش التذاكر ، وجمع التذاكر ، ثم قال : على الذين يريدون السفر إلى تومسكى أن يقوموا بتغيير القطار هنا . فجمعنا حاجياتنا ، ولم يعد لدينا وقت للحديث أكثر من ذلك .

قال جارنا الياقوتى :

– أنا أعرفك منذ زمن بعيد . وقد قرأت عنك بعض المقالات ، وأشاركك الفكر تماما ، فكل العناصر الأخرى من غير الروس محكوم عليها بالموت جميعا . وسياسة روسيا الداخلية تتركز على هذا الموضوع .



صورة عائلة ياقوتية

وعدا ذلك فإن الياقوت والبورات[1] فى طريقهم إلى الموت ، ونسلهم فى طريقه إلى الانقراض . ونسل من هم من غير الروس جميعا فى سيبيريا فى انقراض مستمر. إلا أن الياقوت لدينا قد أصبحوا يشرفون على الانقراض أسرع .

سألته :

– ماهو سبب هذا الانقراض ياترى ؟

قال :

– أعتقد أنه من كثرة استعمال المسكرات ، لأن المسكرات كثرت بعد استيلاء الروس .

قلت :

– ألم تكن هناك مسكرات قبل استيلاء الروس ؟

قال :

– كانت موجودة ، إلا أن خمرنا الوطنى المسمى « راقى » يصنع من اللبن ، ولا ضرر منه . أما الآن فإن السبرتو الخالص شاع استعماله ، وبهذا اصطادنا القساوسة .

وصل القطار إلى محطة « تايغه » ، وهنا سنغير القطار ، ونترك هذه الصحبة الجميلة مع الأسف .

وتعتبر محطة « تايغه » أحسن محطة فى سكك حديد سيبيريا . وقد تحركنا فى اتجاه تومسكى بعد أن استرحنا لمدة ساعة واحدة . والمسافة من هنا

١ – االبورات فرع من أقوام المغول على المذهب الشامانى . ويقال لهم فى دائرة المعارف الإسلامية التركية (م ١١ ، ص ٣١٣) البويرات . (المترجمة) .

ليست بعيدة حيث تستغرق ثلاث ساعات . وعربة القطار مزدحمة بالناس ، لأنه يوجد كثير من المسافرين ممن يطلق عليهم تعبير « طاوشان » أى الأرنب[1] . وعندما رأيت « الأرانب » سألت الشخص الذى يجلس بجوارى :

– إلى متى تظل سكك الحديد الروسية تحمل مثل هؤلاء « الأرانب » ؟

قال :

– الروس قالوا عنهم « الثعالب »

ضحك الموجودون هناك بقهقهة عالية ، ونقدوا « الأرانب » كثيرا ، مما أثار كثيرا من الكلام .

وفى هذه الأثناء جاءت المناسبة على أى حال ، فقد سأل أحدهم قائلا :

– لماذا يبتعد خط سكك حديد سيبيريا كثيرا عن بلدة هامة مثل تومسكى ؟ لو عمل مقياس آخر لوصل الخط الكبير إلى تومسكى مباشرة ومر بها . ألم يكن ذلك جائزًا ؟!

أجاب أحد الضباط قائلا :

– إن المهرة فى الهندسة وجدوا هذا الطريق مناسبا هكذا . لو كانت بلدة تومسكى قد استطاعت أن تبذل همة ولو بسيطة ، وقدمت هدية قدرها ٥٠٠٠٠ أو ٦٠٠٠٠ روبل على الأقل ، لكان مهندسونا حولوا المحور إلى هذه النقطة دون شك . وكلما استمرت دولة فى ممارسة الرشوة ، فإنها لاتستطيع أن ترى الطريق الصحيح .

١ – طاوشان أى الأرنب : يقولون عن الهاربين الذين يستقلون سكك الحديد الروسية بدون تذكرة ركوب « الأرانب » . وهؤلاء « الأرانب » كثيرو العدد . وطبيعة الأمة تميل إلى هذه التسمية . فبقدر سوء الأخلاق الموجود فى السكك الحديد ، يقال ذلك لهذا السبب .

تومســـكى

تومسكى مركز تجارى شهير جدا منذ القدم ، وكان فيها سوق كبير فى فترات من الزمن ، يتجمع فيه كل تجار سيبيريا فى موسم الشتاء لممارسة البيع والشراء .

ولما لم تكن هناك سكك حديد فى فترات من الزمن ، فقد كان التجار يأتون ويذهبون راكبين لمسافة تقدر بـ ٢٠٠٠ - ٥٠٠٠ چاقرم . وفى تلك الفترة من الزمن كان فى كل مكان فى روسيا طريق يسمى « طريق پرافون » . وكانت كل البلاد ترتبط ببعضها البعض بواسطة هذا الطريق الذى كان يقسم إلى محطات . فقد كانت هناك محطة فى كل عشرين أو خمسة وعشرين أو ثلاثين چاقرما على أكثر تقدير . وكانت توجد خيول معدة فى كل محطة من هذه المحطات دائما . وكان أصحاب المحطة على أهبة الاستعداد وفى انتظار المسافرين على الدوام . ومايكاد المسافر يصل حتى تنطلق الخيول . وعندما يركب كان يشد اللجام . وفى أيام الشتاء كانت الخيول تسير بصعوبة حتى أن مسافة ٢٥ چاقرما كانت تستغرق ساعتين . كانت الخيول البديلة معدة على أهبة الاستعداد . ولم يكن هناك توقف ليل نهار حيث كانت الخيول تغير باستمرار .

وكانت مسافة ٣٠٠ كم من الطريق تستغرق ٢٤ ساعة من الزمن على الأقل. وأسعار هذا الطريق تبلغ من ٣٠ - ٤٠ پارة[١] من النقود على الأكثر لحصانين فى كل چاقرم . وإذا انطلق ثلاثة من الخيول فإن سعرهم كان من ٥٠ - ٦٠ پارة من النقود . وهكذا فإن تجار روسيا عندما كانوا يستقلون هذا الطريق إلى تومسكى كانوا يستقلونه مرة واحدة فى العام ويعودون منه . أما الآن فبعد أن أنشىء خط السكك الحديد أصبح من الممكن الذهاب والإياب عدة مرات فى السنة .

١ - راجع حاشية ص ٦٠

وعلى الرغم من أن بلدة تومسكى الآن تعتبر مقرا تجاريا ، إلا أنها صارت منبعا للعلم أيضا ، حيث تمتلك داراً للفنون (جامعة) مجهزة . وعندما أقيمت دار المعارف فيها ، أصبح يطلق عليها مملكة المعارف . وكل طرف فى هذه المدينة موضوع تحت نظام . والآن أريد أن أقدم بعض المعلومات عن أحوال المسلمين فى هذه البلدة .

المسجد والمدرسة والكتّاب :

مسجد تومسكى مسجد منظم تنظيما رائعا . وهو يعتبر أكبر مسجد وأجمل . مسجد موجود فى كل سيبيريا حتى اليوم . وقد أسس بناء المسجد بهمة الأهالى ليس إلا . وتوجد بجوار هذا المسجد مدرسة جميلة ومنظمة للغاية أيضا .

ويوجد فى بلدة تومسكى ٣٠٠٠ نسمة من المسلمين ، يشكل مجموعهم حيا واحدا ، يوجد فيه ثلاثة كتاتيب لكل واحد منها إدارة مختلفة توجه برعاية عدة رجال من أصحاب الخيرات . فيصرف « آخون » من ماله الخاص على المسجد الشريف وملحقاته . ويربى من عشرين إلى ثلاثين طالبا نصفهم جائع والنصف الآخر شبعان فى تلك المبانى الضخمة .

ومن ناحية أخرى فإن « كريم حميدوف » أحد أغنياء تومسكى تضامن مع عدة أشخاص فى تربية من ٧٠ – ٨٠ طالبا . ثم أن « شاهى حاجى سيداشف » فتح كيس حميته أيضا ، واهتم بتربية مايقدر عدده بـ ٥٠ – ٦٠ طالبا من أولاد المسلمين .

وبهذ الصورة فعندما نرى هذه القوى الثلاثة وقد توحدت فى شكل ثلاثة اتجاهات ، نحس فى كل واحد منها بحسن النية . وقد بذلت كل قوتى فى توحيدهم واجتهدت فى جعلهم قوة واحدة . وبذلت النصح كثيرا . وقد قيل كلام كثير فى تأليف قلوبهم سواء فى المجالس العامة أو الخاصة ، كما بذلت الهمة وأنفقت المساعى فى ذلك السبيل . والحمد لله أن ظهرت درجة من التوفيق وأصبح الرجال الذين لايحيون بعضهم البعض يظهرون الأخوة ويستضيفون بعضهم فى منازلهم على أنهم ضيوف .

مسلمو تومسكى :

مسلمو تومسكى صافو القلب تماما ونقيو السريرة ، يخلون من التعصب . ولكن ليس بينهم من يتمتع بالعلم والمعرفة . ورغم أنهم ليسوا كثيرى العدد على أى حال ، إلا أن بينهم من هم أصحاب الثروة .

ويعبر عن تومسكى بـ « إينا روديس[1] » . والتتار الوطنيون كأنما انقرضوا تقريبا ، فقد بقى منهم عدد قليل جدا . وإذا ظهر بينهم أغنياء على أى حال ، فإنهم ليسوا كثيرى العدد . أما عن البخاريين فقد انقرضوا تماما . وكانوا قد جاءوا من بخارى إلى تومسكى واستوطنوا فيها منذ ٤٠٠ - ٥٠٠ عام تقريبا ، وأصبح المساكين أصحاب وطن ، إلا أن جذورهم على وشك أن تجف اليوم . ويقدر مجموعهم الآن بـ ١٥٠ نسمة ، ومع ذلك توجد لهم هيئات إدارية خاصة . وأنسابهم فى طريقها إلى الانقراض .

وكما لايوجد بين مسلمى تومسكى رجال فقراء على درجة كبيرة من الفقر ، كذلك لايوجد بينهم أغنياء شديدى الغنى . وكلهم أهل صنعة وتجارة .

وأكثر هؤلاء يعملون بالخياطة ، وسبب ذلك أن مهنة الخياطة أصبحت صنعة للتتار عموما ، لأن أكثر الروس يقبلون على ارتداء الملابس التترية عادة .

وكما أظهر الأغنياء والفقراء بعامة من المسلمين سعادتهم أثناء مقامى فى بلدة تومسكى ، فقد أبدى كثير من الروس أيضا اهتماماً خاصا .

فأقاموا مآدب الضيافة الخاصة . واكتسبت معرفة السادة الأساتذة أمثال « صوبولوف » و « مالينوفسكى » والرحالة المشهور « پاتانين » وغيرهم من كبار رجال الدولة .

١ - إينا روديس ، كلمة روسية الأصل تطلق على ماعدا العنصر الروسى (المترجمة) .

القرى التى تحيط بتومسكى :

القرى الإسلامية حول تومسكى قليلة جدا ، يبلغ عددها ٢٥ قرية تقريبا . وإذا كان القسم الأعظم من أهالى القرى من تتار سيبيريا الوطنيين ، فإن القادمين من داخل روسيا إليها ليسوا قليلى العدد . وغالبا ما جاءوا منفيين ، أو بمحض اختيارهم . إلا أنهم تزاوجوا جميعا مع التتار الوطنيين ، وحدثت بينهم أخوة تامة . وبهذه الصورة حدثت منافع مادية ومعنوية مشتركة . وفى ظل هذا ، أولا : بدأت تظهر كثرة فوق العادة فى أعداد تتار سيبيريا المحكوم على نسبهم بالانقراض . ثانيا : اجتهد المسلمون القادمون من داخل روسيا فى المحافظة على الدين الإسلامى : ففتحوا كتاتيب فى كل مكان ، واهتموا ببناء المساجد . وأصبح يوجد كُتأّب فى كل قرية صغيرة إعلاء لشعار الإسلام . وظهرت مشاعرمعنوية كبيرة بسبب اختلاط الدين ببعضهما . وتتار سيبيريا مسلمون خلوقون وأناس طيبو القلب . أما عن الذين جاء وا من داخل روسيا فهم رجال فعالون وجوالون . وقد حدث من توحد العرقين اعتدال سواء فى الملامح أو فى الأخلاق والأطوار . ويظهر من بعض الكتب القديمة أن التتار الوطنيين ، الأصليين الموجودين هنا بيض العرق .

ويوجد بين التتار مجوس أيضا . ويبدوأن هناك علاقة قوية بين لغة هؤلاء المجوس ولغة المسلمين . وهناك تسمية شائعة تطلق على هؤلاء المجوس وهى «أبغاى »[(١)] .

ويطلق الروس كلمة « إيناروديس » على هؤلاء كافة . وتستعمل هذه الكلمة فى الواقع للدلالة على ماعدا العنصر الروسى فى روسيا عموما ، وتفيد معنى غير الروس .

١ - الأبغاى هم المجوس من التتار (المترجمة) .

استيلاء الروس على تومسكى :

كانت تومسكى تمثل صحراء الله الواسعة فى تلك الأزمان ، حيث لايوجد أحد ، بل توجد بضعة آلاف من التتار الرحل . وجاء الروس ، وقالوا « إن هذه الأراضى أصبحت لنا » . وكان حق الاستيلاء كله عبارة عن هذا (الادعاء) فخرج عليهم بعض الناس فى ذلك الوقت ، وقالوا : « لا، هنا ملكنا نحن » ثم سألوا عن حدودهم دون أن يقولوا شيئا . فقام الآخرون بتوضيح الحدود من نقطة تدل على إظهار الغرور . وتركوا مكانا محدودا لهؤلاء ، وتم الاستيلاء بمعرفة بضعة رجال (من ٣ – ٥ رجال) على الباقى ، وهى أرض الله الواسعة التى لا تنتهى ولا تنفد .

وتوجد سندات أراض واسعة جدا فى حوزة بعض التتار اليوم مصدق عليها من قبل الروس ، ومن المحتمل أن يكون هذا دليلا كافيا . إلا أن العبارات التى كتبت فى هذه المستندات ، يبدو أن القصدمنها هو تخدير الأذهان ..

قرية قالتاى :

استرعت هذه القرية التى تقع فى نواحى تومسكى انتباهى إلى أقصى درجة . ولهذا السبب أرى أنه من المناسب تسجيل ذلك على حدة . وهذه القرية قرية كبيرة لأن القسم الأعظم منها يسكنه الروس . وفيها واحد وعشرون بيتا يسكنها فقراء شديدو الفقر من المسلمين . ومع ذلك يوجد للمسلمين مسجد خاص ومدرسة صغيرة ومكتبات . ويتعلم فى هذه المدرسة خمسة وأربعون تلميذا من أولاد المسلمين . وأصول التعليم منتظمة للغاية وبناء هذه المدرسة وافتتاحها تم فى سنة واحدة . وقبل هذا لم يكن هناك طفل واحد من هؤلاء يعرف القراءة والكتابة . وعندما تواجدت هناك ، عقدت لهم امتحانا . ولأنهم أصبحوا يجيدون القراءة والكتابة جميعا ، فإنهم يعرفون العمليات الأربع فى الحساب فضلا عن معرفتهم لأركان الإسلام والفرائض والشرائع . ويدرس هنا ٤٥ طفلا من الواحد

والعشرين منزلا . كان الأولاد فى عمر الحادية والعشرين والبنات فى عمر الثامنة عشرة . ولكنهم كانوا يقسمون إلى مجموعتين . وكان ظاهرا وواضحاً مدى الدقة فى تربيتهم على صورة تتفق مع الآداب الإسلامية وكان شيوخ القرية أيضا يداومون على الدروس المسائية وحدهم ويترددون على المكتبة .

ولا يوجد فى القرية شىء يخص الروس الذين يقطنون فى مائة منزل ولاتوجد لهم كنيسة أيضا . وبينما كان بعض الروس على وشك أن يرسلوا أطفالهم للدراسة فى مدرسة المسلمين هذه ، إذ برجال الحكومة يمنعون ذلك .

كانت المصروفات السنوية الى تنفق على مدرسة القرية هذه تقدر بـ ٥٥٠ روبلا (مايعادل ٦٣ ليرة) . وكانت هذه النقود تجمع من الواحد والعشرين منزلا: وكانت الحمية الدينية تأتى من إمام واحد ومعلم واحد ليس إلا .

عند آبائنا مثل معناه : « اجتهاد السواعد يخلق العظماء » .

نتيجة سفرى :

لم أفاتح أحدا حتى الآن عن نتيجة سفرى . وأثناء وجودى فى منزل « پاتانين » فى تومسكى ذات يوم ، حضر أناس كثيرون ، ورجونى أن أكتب مقالات فى جريدة « سيبرسكى ژيزين » بعد أن سألونى نتيجة سفرى . وعندما قررت أن أعطى الصحافة الأجنبية مقالا عن نتيجة سفرى ، لاحظت أن هذه الواقعة ستؤثر على أفراد عائلتى بنوع خاص ، فأخطرتهم برسالة منفصلة . وأرسلت مقالات إلى صحافتنا أيضا أبين فيهاخط سير سفرى .

ـ وقد كتبت بشكل مفصل عن مدة سفرى والأماكن التى سأذهب إليها فى مقالى الأول الذى نشر فى العدد رقم ٢٦٥ من جريدة « سيبرسكى ژيزن » .

نيكراسيف نائب تومسكى :

قررت أن أرحل من تومسكى فى ٣ نوفمبر ١٩٠٨ م ، فذهبت إلى منزل الرحالة الشهير « پاتانين » من أجل الوداع . وعندما وصلت إليه قال لى :

« سيقدم نائبنا » نيقولا نيكراسيف كشف حساب مساء غد للناخبين عن الأحوال الجارية فى البرلمان فى دورته الثالثة ، فأخر سفرك يوما واحدا لكى تحضر هذا المجلس .

أخرت سفرى وأنا سعيد . وفى هذه الأيام كان يوجد فى تومسكى « ذاكر افندى إيش محمد » الذى جاء مع الهيئة القضائية إلى تومسكى ، فذهبت إليه . وكنت ألتقى بذاكر افندى وأتسامر معه كلما جئت إلى تومسكى . وقد ذكرت له هذه المرة أننى سوف أحضر معه جلسة نيكراسيف .

وفى مساء اليوم التالى جئنا إلى المكان المقصود . كان الصالون مكتظا ، حيث كان يوجد به حوالى ٣٠٠٠ رجل . وبعد خمس دقائق على الأكثر من جلوسنا صعد نيكراسيف إلى منصة الحديث . إنه شاب فى الثالثة والثلاثين من عمره على الأكثر ، مشهور بطلاقة اللسان .

بدأ نيكراسيف الكلام ، قائلا : « أيها السادة .. إننى أعد إعطاء معلومات خاصة بالأحوال الجارية فى البرلمان الروسى « دوما » لكم هذه المرة شرفا عظيما لى شخصيا . لأنكم عندما انتخبتمونى ، فإنكم قد أوكلتم إلى وظيفة صعبة لأنها مهمة تتعلق بحقوق الإنسان حقيقة .

معلوم لديكم أن رجال البرلمان لابد أن يكونوا تحت المراقبة دائما من قبل رجال الولاية الذين انتخبوهم . وعلى هذا الوضع انتخبتمونى ، وإذا لم تضعونى فعلا تحت المراقبة على أى حال ، فمن الضرورى من الناحية الوجدانية أن أعتبر نفسى تحت مراقبتكم . ولهذا السبب فإننى أعد إعطاءكم كشف حساب ومعلومات عن أحوال البرلمان فى الحاضر والمستقبل دينا ودافعا وجدانيا . أمنونى ، فأنا لا أريد أن أسيىء استعمال أمنكم . أسترحمكم قبول عذرى فى المكان الذى يمكن أن تقبلوه فيه .

يوجد فى بلدنا اليوم برلمان « دوما » . ولكنكم جميعا تعلمون تمام العلم أن

المجموعة التى تشكل الأغلبية فى البرلمان تعتبر آلة فى يد الحكومة وما دامت الأغلبية فى يديها ، فما تريده اليوم تستطيع أن تصل إليه .

وعلى هذا الوضع ماذا تكون وظيفتنا ؟ إن النقطة التى سأعرضها عليكم تتركز فى هذا الموضوع . ومدام الأمر كذلك فإن مهمتنا فى البرلمان تصبح صعبة حيث من الضرورى الاهتمام بمستقبل الأمة رغم حجم الأقلية .

إن آمال أنصارنا كلها تتركز فى النقطة التالية وهى : أن واجبنا الوحيد الآن هو المحافظة على اسم المشروطية (١) . ينبغى أن تنحصر كل آمالنا فى هذا الموضوع . وينبغى أن نعد الأمة بعد هذا للانتخاب القادم . يمر هذا العصر على أى حال ، وقد مضى منه جزء . والنقطة الهامة هى تلك النقطة . فإذا أمكن مقاومة الحكومة أيام الانتخاب فى وجود الأمة كلها ، لما يئسنا ، ولاستطعنا أن ننقذ البلاد بعد أربع سنوات إذا انتخبنا نوابا مستعدين لبذل الجهود ومتحلين بالحمية والشرف .

ستعمل الحكومة الحالية على إعداد قوات كبيرة وستهدد بالبوليس لجعل انتخاب النواب مضمونا إلى جانبها فى هذا الوقت . وبناء على ذلك ينبغى علينا أن نكون جاهزين . إذا أبدت الأمة الغيرة واستطاعت أن تغلب الحكومة ، فإنها بهذا تنقذ الوطن من الهلاك . والأمة التى تكون غير ذلك فإنها تسرع فى طريق الضياع . فإن تكاسلتم عن صرف العمر ولو لمدة شهر واحد فى سبيل الوطن والبلاد، لأصبح مستقبلنا جميعا بلا أمل تماما . ولاتعيش الدول العظيمة حياتها على الصدفة . وبقاؤنا كدولة فى هذه الحالة مشكوك فيه . والآن ينبغى تدقيق النظر بكل اهتمام فى هذا الموضوع . وينبغى الاجتهاد لاستدراك كل مايلزم .

ماذا استطاع البرلمان أن يفعله حتى الآن ؟ وعلى أى وضع يمكن أن يكون

١ – المشروطية هى الحياة النيابية أو الدستورية . وقد أعلنت المشروطية فى روسيا ١٩٠٥ م .

نظر المراقبين ؟ وفق البرلمان حتى الآن فى نظر الحكومة نفسها فى إثبات مكانته (كلما كان ضعيفا) . وفضلا عن ذلك أظهر أيضا تنظيمات كثيرة فى الجمعيات . وإذا لم يكن تصديقها جميعا اليوم على أى حال ، فسيكون كل شىء معدا لأنه مرهون بوقت ما .

وعندما نأتى إلى وضع البرلمان فى نظر المراقبين ، يمكننا أن نقول أنه معدوم الحيثية حاليا . ومع ذلك لايمكن لنا أن نقول عنه أنه معدوم تماما فلابد من تتبع الحسابات المتعلقة بالأمور الجارية الخاصة بالمراقبين بدرجة ما .

والمراقبون يوجهون نقدا عنيفا لوزارة البحرية ووزارة الطرق بنوع خاص ، خاصة وأن حسابات وزير الطرق سيئة للغاية ، حتى أن الإنسان لايستطيع أن يمسك نفسه عن الحيرة إذا اطلع على الحقائق وسأوضح لكم مسألة واحدة فقط هنا كنموذج . تضيع سكك حديد شرق الصين على حكومتنا الروسية ٣٥ مليون روبل سنويا . وهذه الخسارة تزداد كل سنة . ولم تتخذ التدابير قط من قبل وزارة الطرق لمواجهة ذلك . وأعمال هاتين الوزارتين كليهما سيئة للغاية ، حيث لايمكن إصلاحهما فى الوقت الحالى ، ودفاترهما غير منظمة ، وهكذا وفق البرلمان حاليا فى التفتيش على دوائر هاتين الوزارتين اللتين ذكرتهما هنا . وإذا أمكن تحميل المسئولية على هذين الوزيرين ، فإن هذا يعتبر خطوة إلى الأمام .

كنت سأذكر خبرا عن مستقبل البرلمان . إذا أبديت ملاحظة هنا ، نستطيع أن نفهم مستقبله إلى حد ما . ينبغى أن نترقب زمن الانتخابات ، لكى نضع مستقبله فى الطريق الصحيح حقيقة طبقا للمطلوب تماما . وسوف أكرر القول ، قائلاً إن أمل الأمة جميعا يكمن فى هذا الموضوع . إذا خدعت الأمة بالمظاهر ليس إلا ، أو إذا انتخبت (الأمة) الرجال الذين تتقدم بهم الحكومة ، فلن يكون هناك خير فى البرلمان إذن . ومن ثم فإن إدارة « المشروطية » يمكن أن يقال عنها غير موجودة إذا فتحت الأمة عيونها فى زمن الانتخاب واستطاعت أن

تنتخب الرجال الذين تتمناهم حقيقة ، لاستطعنا إنقاذ البلاد من الهلاك فى هذه الحالة .

سياستنا الخارجية حاليا متدنية للغاية . وسبب تدنى وضعنا السياسى عند الدول الكبرى يرجع إلى هزيمتنا فى حرب الشرق الأقصى(١) .

والآن سأقدم لكم بعض المعلومات عن أنشطة نواب سيبيريا . أول وظيفة لنواب سيبيريا هى وضع أصول الانتخابات فى عموم سيبيريا موضع التنفيذ . أما عن هذا الموضوع فهو تحت ملاحظة النواب جميعا ، ومن المقرر أن يقبلوه بالاجماع . وقد نسقوا قانون الانتخابات وأصول الانتخابات بصورة لائقة .

والآن أرجو أن نأخذ عشر دقائق من الراحة . وإذا ورد شىء بخاطركم فاكتبوه وأعطوه إلى ، حتى أجتهد فى الرد عليه » .

تحرك كل شخص من مكانه . وقد استفدنا نحن أيضا من فترة الراحة هذه فذهبنا إلى « نيكراسيف » ، وتعرفنا عليه عن طريق البروفيسير « صوبلوف » الذى قدمنا إليه . قال لنا نيكراسيف بكل احترام :

– نفتخر بوجودكم فى سيبيريا . لقد ذكرنا اسمكم عدة مرات بين نواب سيبيريا فى البرلمان هذه المرة . وأنا شاكر لمعرفتكم التى اكتسبتها . قلت له مستفيدا من الفرصة :

– استعطفكم أن توضحوا رأيكم بخصوص أراضى مسلمى سيبيريا فى خطابكم .

وقد سجل نيكراسيف هذه الملاحظة فى دفتره مفتخرا ..

كان خطاب نيكراسيف مفصلا للغاية ، لدرجة أن تدوينه كله أصبح خارج إمكانية عاجز مثلى . ومع ذلك سأعرض عليكم القدر الذى استطعت أن أدونه .

صعد نيكراسيف إلى منصة الخطابة . وقد استقبل بالتصفيق من جانب الحاضرين مرة أخرى ، ثم بدأ الكلام ، قائلا :

١ – هى الحرب التى قامت بين روسيا واليابان سنة ١٩٠٥ م ، وهزم فيها الروس (المترجمة).

« سأعرض عليكم فكرة أنصارنا فى البرلمان بخصوص وضع بلادنا المحرومة تماما من المعارف . ومعلوم لديكم أن أنصارنا مهما كانوا يشكلون أقلية فى البرلمان ، إلا أنهم اكتسبوا احترام الأغلبية فى نظر الأمة .

ومهما كان عدد الموظفين الذين كانوا يلزمون لحكومتنا حتى الآن ، فإنها كانت تهتم باتباع سياسة تربية الرجال بالعدد الذى تريده . وعندما رأت أن تزيد من هذا العدد ، وجدت جهلة العوام أنسب لسياستها على ما يعتقد ولهذا السبب ، إذا كانت لدينا وزارة توصف بأنها أفقه وزارة ، فهى وزارة المعارف .

وهكذا إذا كانت هناك حاجة ملحة فى الوقت الحاضر لبلادنا ، فإنها تتمثل فى الحاجة إلى المعارف . وتظهر عندنا حتى الآن ندرة شديدة فى افتتاح مدارس من قبل وزارة المعارف فى بلادنا[1] وليس فى قرانا فقط ، بارك الله ، ففى السنوات الأخيرة حدث اجتهاد بدرجة ما فى مجلس المعارف لدينا ، وافتتح كثير من المدارس الإبتدائية فى القرى . أما سيبيريا لدينا ، فلا يوجد بها مجلس للمعارف . ولهذا السبب يمكن أن يقال أن سيبيريا كلها محرومة تماما من المعارف . وتضم سيبيريا كلها عشر ولايات ، لايوجد فى أى منها دار للفنون (جامعة) عدا تومسكى . أما روسيا ، فتتكون من ٧٠ – ٨٠ ولاية ، فى ثمان منها دار للفنون (جامعة) . وهل يكفى لدولة كدولة روسيا هذا القدر من دور الفنون (الجامعات) وتعداد سكانها يبلغ ١٤٠ مليون نسمة ؟ ..

وضع أنصارنا هذا الموضوع فى اعتبارهم حاليا ، وجعلوه مهمتهم على وجه الخصوص ، وسوف يبذلون أقصى قوتهم . وإذا لم يلح أمل فى التوفيق حاليا على أى حال ، فإن الوقت سيأتى ومن المقدر أن تحين الفرصة دون أدنى شك » تصفيق ..

وفى وقت الراحة أخذ نيكراسيف الأوراق التى وضعت على المنضدة التى أمامه والتى كتبت من قبل الحاضرين ، وبدأ يجيب على كل الأسئلة سؤالا تلو

١ – المقصود ببلادنا ، مدننا (المترجمة)

الآخر . كانت الأسئلة التى قدمت كثيرة جدا ، لم أستطع أن أدون أكثرها . إلا أننى سأعرض بعض الأسئلة التى جنبت اهتمامى ، وهى :

١ - « السؤال الأول بخصوص المجموعة الإسلامية فى البرلمان : لم تستطع المجموعة الاسلامية أن تظهر جدية وفعالية حتى الآن . إلا أنه ظهرت مساع جزئية فى مسألة أراضى القيرغيز .

٢ - سؤال يدور حول انفصال الجناح اليسارى من أنصار « أوكتبريست » الذى يشكل الأغلبية : إذا كان قد بقى شىء فى فكرى من هذا الموضوع فهو أن هذا الموضوع مستحيل الوقوع . وانفصال هذا الجناح لايشكل فائدة بالنسبة لنا ، ولكنه يسبب ضررا لهم .

٣ - يسألون عن مدى قوة البرلمان : وضح هذا فى القسم الأول من خطابى . لم تعد هناك غيرة أو حمية قومية فى بلادنا .

٤ - يسألون عن أفكار البرلمان بخصوص الشرق الأدنى أى المسألة التركية : أستطيع أن أعبر عن فكرى الخاص عن هذا الموضوع .

إن تصرف النمسا فى مسألة الهرسك هذا العام ، يعتبر احتقارا لنا عادة . ولكن ما الحيلة ؟ ! لاتوجد لدينا قوة عسكرية كى تستطيع أن تحافظ على حيثيتنا فى هذا المجال . وضعفنا فى مجال العسكرية تابع من ضعف اقتصادنا . لابد من العمل من أجل الصالح العام . ولابد من إصلاح أخلاقنا أيضا ، من أجل إصلاح أحوالنا . تجارة بلادنا كلها اليوم فى أيدى الأجانب ، ومع استمرار ذلك لن نستطيع ، ومع استمرار ذلك لن نستطيع أن نحافظ أيضا على حقوقنا الإنسانية فى مواجهة الأجانب . وعلى هذا إن أردنا أن نكون رجالا ، فعلينا أن نعمل لكى نكون رجالا » . (تصفيق متواصل) ..

هكذا يكون وضع نائب روسى سيبيرى أمام أمته . وإذا انتظرنا واجبات مثل هذه من نواب مسلمين أثناء إجازة كل دورة من دورات البرلمان ، فلن يظهر أى شىء حاليا مع الأسف .

استطعت هنا أن أحصل على شيء بسيط إلى حد ما من خطاب نيكراسيف ففضلا عما تحدث عنه تحدث عن : ماهو البرلمان ؟ وماهي الحيلة البرلمانية ؟ وماهو وضع النواب في نظر الأمة ؟ وبعد أن قدم تقريرا عن هذا كله . خاطب الحاضرين في المجلس ، قائلا :

- « لقد أوفيت بواجبي تجاه الحاضرين هنا ، وأرحت وجداني ، وأرجو منكم أن تؤدوا الواجب المفروض عليكم وهو العمل على تنوير أفكار أفراد الأمة بهذه الصورة في أي مكان أنتم فيه . وما لم تفهم الأمة مزايا حياة « المشروطية(١) فإنها لن تستطيع أن توفق في انتخاب نواب يطابقون المطلوب . إن الأمم التي تنصاع لفكر عدة أشخاص ، لا تستطيع أن تتخلص من الأسر .

قال هذا ونزل من على منصة الخطابة ، ثم صعد على المنصة مرتين أثناء استمرار التصفيق المتواصل ، وقدم الشكر للحاضرين وأظهر امتنانه البالغ ..

تتار ياصاچناي في ولاية تومسكي :

مع أن نسل الأتراك الوطنيين الذين يسمون « تتار ياصاچاناي » وأنسابهم واحدة ، إلا أنهم انقسموا حاليا إلى ثلاثة أقسام من حيث الدين :

القسم الأعظم مسلمون

والقسم الثاني أورثوذكس

والقسم الثالث مجوس على المذهب الشاماني .

ويعد المجوس أنفسهم أصحاب الأراضي والأملاك الأصليين ، وينظرون إلى الآخرين على أنهم ظالمون ومتوحشون وغاصبون .

وأحوالهم التاريخية غامضة تماما . لا يعرفون القراءة أو الكتابة . كان لهم أمراء يلقبون بلقب « قان » ويحتمل أن يكون « خان »[٢] . والآن لايوجد لديهم

١ - حياة المشروطية هي الحياة النيابية أو الدستورية . وقد أعلنت المشروطية في روسيا ١٩٠٥ م

٢ - راجع حاشية ص ١٠٥

شيء قط . وإذا كان قد بقي في قلوبهم أثر ، فهو ذكرى عدة حروب نشبت بينهم وبين الروس في آخر مرة . ثم أسروا من قبل الروس وفروا مرة أخرى ، ثم تحاربوا معهم . وبعدها وقعوا في الأسر مرة أخرى . وفي النهاية توفيت في سجن الروس الشخصية المقدسة لديهم وتسمى « قانزه باطر » .

ويحفظ كل أطفال « الأبغاى[1] » جيمعا ويقبسون الأشعار التى قيلت زمن وجود« قانهم »« قانزه باطر » ، (وهذا الاسم يعنى ، الشجاع) .

وقد سجلت هذه الأشعار بهذه الصورة عندما سمعتها على لسان « سفر على ملا » المشهور بين الأبغاى . وهذه الأشعار تعتبر ترجمانا بليغا يدل على حماس الأبغاى وشهامتهم . وقد نقلتها بتمامها ، ورأيت من المناسب تحليلها تحليلا منفصلا لفهمها فهما جيدا .

الأشعار

(١)

أنا المدافع (المحارب) الواقف على الجبل ، والذى وصل إلى مدينة « قنديليب » .

(٢)

يريد حصان « القانزه » أن يتخلص من حصان الروس[2] الذى ولى وجهه .

(٣)

لا أهمية لطائر الغراب [3] الذى حل بنا ، فقد تصور الروس أن الأمة لا أهمية لها .

١ - الأبغاى ، هم المجوس من التتار . (المترجمة) .

٢ - يطلق الأبغاى على الروس اسم « القازاق » . وهذا الاستعمال شائع أيضا بين تتار القيرم .

٣ - المقصود بطائر الغراب : الروس .

(٤)

يقول الروس قتلت طائر « القو [١]» ، يقول أمسكت « قانزه »

إن المدن التى بناها الروس لا أهمية لها ، لأنها تشبه الثوب الخرق.

استولى الروس على « قانزه بك » وأصبح يرقد بين ذراعى العدو .

بلطة الروس من الصلب ، شقت الشجرة المتنامية .

ولسان الروس يقول : مزقت عظام كتفه تماما .

(٥)

المنزل الذى ينقسم إلى ست زوايا ، أصبح ضيقا على قبيلتنا فيما بعد وإدارة القبيلة الذهبية [٢] أصبحت صعبة على « آلماتى بك[٣] » من بعد .

(٦)

قطيع الأغنام نبش الرمال فوجد الطريق ، فأين يظهر النهار ؟!

وحزام حيوان اللاما شد « قانزا » بشدة ، فأين النهار الذى يلمع ؟!

(٧)

ماء الوجه الذى يعرف العار الكبير يظهر مباشرة ، فتخل عنه وسر بسرعة إذا صادفت إنسانا مدنيا فاقرئه السلام .

(٨)

١ – القو « طائر من الطيور الجارحة يكثر وجوده فى سيبيريا ، وهو يستعمل فى الصيد كالبازى الذى يستعمل فى البيزرة فى دول الخليج . وهنا يشبه القانزه بالقو (المترجمة)

٢ – راجع حاشية ص ١٠٩

٣ – ألماتى بك : هو ابن قانزه باطر .

لا يخرج من الشجر مالا يخرج من الأم

فاهتم بأملك ، وارع البقر .

(٩)

إن يوجد هذا الطائر الجارح ، فإن الصياح يأتى من الخلف

إذا وجدت مدنيا يلقى شيئا ، فاسأل الأغا أكان وطنى مليئا بالخبز ؟!

(١٠)

خلفى مجرفة بيضاء ، ليتنى أطبق عليها أمامى

إن يوجد ستة إخوة ، فقد جاءوا من خلفى .

(١١)

تعال أيها الأخ الأكبر لكى نخرج إلى الطريق عند المساء

عندما يظهر القمر وتبدو النجوم ، فهيا بنا أيها الأخ الأكبر لكى نعود .

(١٢)

قانزة راكب ولونه بنى ، أما الروس فيقفون حيارى أمامه

أراد الروس أن يقبضوا على قانزه ، وفى أيديهم العصى .

* * *

تدل هذه الأشعار على أن لغة « تتار ياصاچناى » هى التركية ، وأصل نسلهم وأنسابهم من الترك أيضا ، وتأتى تسميتهم بـ « ياصاچناى » من اسم الجزية التى يدفعونها على أمتعتهم وتسمى « ياصاق » . ويقول الأبغاى عن أنفسهم أنهم أتراك . إلا أنهم كانوا يقضون أوقاتهم فى حالة رعوية على ساحل بحيرة « چانا » وعلى سواحل نهر « أوب » منذ القدم أبا عن جد . وقد توطن قسم منهم على سواحل نهر « ينيسى » ، أما القسم الآخر فقد استقر على سواحل نهر « مينوسين » .

لقد سعيت كثيرا فى التفتيش عن أحوال الأبغاى ، ودققت فى لغاتهم . وعندما وجدت أشعار « قانزه باطر » المذكورة عاليه ، قرأتها على أحد الأبغاى . وسألت عن معانى الكلمات كلمة كلمة . حتى أننى قرأتها ذات مرة . أمام سيدة ، فبكت . وقد سألت هذه السيدة عن معانى بعض الكلمات أيضا ، سألتها عن كلمة ماء الوجه وهى « توروصو » . ومع ذلك فإننى أقرر أننى لم أستطع أن أفهم معانى بعض الكلمات . ولم أستطع أن أفهم المصراع الأول من القطعة رقم ١١ . فلم يستطع الأبغاى أن يشرحوها لى .

قانزه باطر:

لا يظهر اسم هذا الرجل فى تاريخ الروس . ويحتمل أن يكون الروس قد بدلوا اسمه . وهو فى نظر الأبغاى شخصية كبيرة جدا . ويذكرون اسمه قرين

التقديس حتى يومنا هذا . فقد اجتهد كثيرا فى الدفاع عن بلاده ، عندما استولى الروس على نواحى تومسكى حسب إحدى الروايات ، حتى أنه دخل فى حرب ضد الجيش الروسى عدة مرات بمفرده . وحينما أسر من قبل الروس عدة مرات ، فر ودخل الحرب ضدهم مرة أخرى . وعندما أسر فى آخر مرة ، قال هذا الشعر الذى ذكرناه فيما سبق عندما كان نزيل سجن الروس . ويفهم من مضمون هذه الأشعار أنه كان على قدر كبير من الحماسة والشهامة .

فمثلا فى البيت الثانى من الشعر يريد أن يوضح مدى العار الذى حل من أسر « قانزه » العظيم الذى يشبه الـ « قو » على يد الروس الذين يشبهون الغراب . وفى البيت الثالث والرابع يوضح مدى الأسى والأسف لوقوعه أسيرا فى يد الروس . وفى البيت الخامس يشرح مدى الحزن الذى أصاب قومه وقبيلته وابنه . وفى البيت السادس يعبر عن مدى الفجيعة لعدم التمكن من تخليصه من الأسر . وفى البيت السابع يريد أن يقول أن ابنه أتى لزيارته فى السجن . فبأى وجه يستطيع أن يخرج فى ذلك الوقت ؟! ألا يستحى من الرجال الذين خرجوا للقائه ؟! الأب أصبح أسيرا فى يد السفلة ، فكيف يتحمل الحياة ؟! وفى البيت الثامن يصاب ابنه بالأسى من الوحدة . إلى آخر هذه المعانى التى تعبر عن مدى شجاعته ورباطة جأشه .

مغادرة تومسكى:

بعد أن قضيت ثلاثة أسابيع كضيف فى تومسكى ، ودعت الأحباب وقررت السفر . وقد توجهت أنا وصديقى ذاكر افندى إلى محطة « تايغة » لأن طريقنا واحد ، حيث ينوى صديقى هذا أن يعود إلى أومسكى فى نفس اليوم . كان ينتظر بالمحطة بعض الأصدقاء الذين جاءوا لتوديعنا . استرحنا قليلا فى مقصف (بوفيه) المحطة . ثم دق الناقوس للمرة الثانية ، فودعت الأصدقاء وتوجهت إلى مكانى فى عربة القطار فوجدت بها سيدة .. وتحرك القطار ..

ذاكر افندى :

– ياأخى .. إن سفرك طويل ، فَأَحِلَّ أحق الحقوق . عمرنا فى هذه العربة أصبح قصيرا . إنها آخر صحبة . فهل نلتقى ثانية ؟ إنه النصيب ..

بينما أتحدث أنا وذاكر افندى ، نظرت السيدة الموجودة بجوارنا إلى ذاكر افندى ، وقالت :

– أعتقد أن فى لغتك كثيرا من الألفاظ الروسية . لقد دققت جيدا وأنت تتحدث الآن . وأحسست أنه بين كل كلمتين أو ثلاث كلمات توجد كلمة واحدة روسية لا محالة . فما سبب هذا ياترى ؟ هل لغتكم فقيرة جدا وتحتاج إلى هذا أم أن هذا مزاج ؟

ضحك ذاكر افندى ، وقال :

– إننا مروسون ، وإلا لما كانت بنا حاجة لذلك .

السيدة :

– بناء على ذلك فإن مستقبلكم سيء. إذا سارت الأمور على هذا النحو فإنكم ستضيعون لغتكم فى يوم من الأيام .

ذاكر أفندى :

– معنى ذلك الزمان . كان هناك احتمال لحدوث مثل ذلك منذ عشرين أو ثلاثين عاما مضى . ولكن فى ذلك الزمان كان أصحابنا[١] فى سبات عميق . أما الآن فقد نهضنا قبلهم وسلكنا الطريق فى المقدمة .

السيدة :

– إن أشياء بسيطة ولا أهمية لها مثل هذه تكتسب أهمية من تلقاء نفسها بالتدريج إنك تعتقد أن وجود خمس كلمات أو عشر كلمات روسية لايمكن أن تحدث ضررا . لكن إذا وجدت خمس كلمات هذه السنة ، فبعد خمس سنوات تصبح الحصيلة خمسا وعشرين[٢] كلمة . هل تعلمون الآن كم سنة استغرقتها

١ – المقصود بأصحابنا هو الروس (المترجمة)
٢ – فى الأصل العثمانى خمس عشرة كلمة ، وهو خطأ بالطبع (المترجمة)

هذه الكلمات الروسية حتى استقرت فى لغتكم وأنتم لا تدرون ؟ ! عفوا ، لقد اشتركت معك فى الكلام وليس لى الحق فى ذلك . هذا مغاير لآداب النساء ، مادامت لاتوجد معرفة مسبقة .، واستعطفكم مرة أخرى فى قبول عذرى .

ذاكر أفندى :

– لقد شعرت بامتنان شديد نحوك . ولكن بى شغف شديد أن أعرف من أنت ؟ وإلى أى جنسية تنتمين ؟ ..

السيدة :

– لقد نما إحساس (طيب) تجاهك فى قلبى . إن دمى من دمك . أبى وأمى من تتار « مينوسية » لقد تَنصَّرا مع الأسف بمرور الوقت أو هما نصرا . فوجدنا أنفسنا على النصرانية نحن أيضا . لقد نشأ فى قلبى أنين خفى على الدوام . وكلما رأيت أشقائى حزنت وحاولت أن أسرى عن نفسى . إننى أجد سلواى فى الحديث معهم ولو بكلمة واحدة أو كلمتين . ولهذا السبب لم ألتزم بآداب النساء ، وفاتحتك فى الحديث .

ثم أشارت إلى وقالت : عندما رأيت هذا الرجل ، فكأنما فتح جرح فى قلبى ألا تعرف الروسية ؟ إننى نسيت لغتى الأم ، إننى بنت تترية أضاعت دينها عن غير رضا ...

وبدأت تمسح دموعها بمنديلها .

ذاكر افندى :

– (نظر إلى وقال بالتترية) : اعمل على تهدئتها .

أنا :

– ابنتى العزيزة ، إلى أين أنت ذاهبة ؟ ومن لك هناك ؟

السيدة :

– أنا ذاهبة إلى « سوحوم » . زوجى ذهب إليها للتداوى من مرض السل .

لقد أرسل إلى برقية منذ مدة قصيرة يستدعينى فيها .

أنا :

– هل أبوك وأمك على قيد الحياة ؟ وماجنسية زوجك ؟ وكم سنة مرت على زواجك

السيدة :

– توفى والداى ، ولى إخوة وأخوات . وزوجى روسى الأصل .

وقد مرت على زواجنا خمس سنوات . توجد أخت لى هنا ، جئت لزيارتها .

أنا :

– كيف عرفت أننا تتار ؟

السيدة :

– لست أدرى ، ولكن تولد فى قلبى شىء . عندما رأيتك تغير حالى . فى الحقيقة عندما كنت فى « مينوسة » ، كنت أمارس الصيد على ساحل نهر « إيريه » وأنا فى العاشرة من العمر . وكنت أحب هذه الهواية بشدة أنا أصغر بنات أمى . وكانت أمى تحبنى كثيرا . وكانت تخبرنى على الدوام بأنها كانت تقضى وقتها بين التتار عندما كانت توجد بينهم .

عندما كان أبى صغير السن أحضره الروس إلى بطرسبورج ، وفيها نصروه ، وبهذه الصورة وجدنا أنفسنا على النصرانية . ولكن أمى ظلت على المذهب الشامانى تحبه . أما أنا فعلى العكس لست أدرى لماذا أحب الإسلام ، رغم أننى لا أعرف شيئا عنه .

أنا :

– أين تعلمت ؟

السيدة :

– أكملت تعليمى فى « معهد مارينكسى » فى بطرسبورج . وبينما كنت هناك فى مرحلة الشباب ، دفعتنى التربية فى بطرسبورج إلى الزواج بروسى على أى

حـال زوجى الآن يوشك على الموت . ويحـتمل أن أعكف على التـفكيـر بعـد ذلك . بارك الله ، فليس لى منه أطفال .

ذاكر أفندى :

– ما عمل زوجك ، وفى أى مكان يعمل ؟

السيدة :

– مـهندس فى السكة الحـديد . وهو مـصـاب بمرض السل منذ عامـين . وهو فى أواخر أيام عمره الآن . وقد أوصاه الأطباء بالاستجمام فى « سوحوم » وهو الآن يقضى الشهر الثالث هناك .

أنا :

– ابنتى العـزيزة ، لقـد أصبـتنى بالدهشـة . أى اللغات تـعرفين ؟ومـاذا قرأت إن أحاسيسك بالنسبة للتتار تعتبر سببا فى ذلك البتة ، أليس كذلك ؟

السيدة :

– أنا لا أعــرف لــغة غـيـر الروســية . قرأت عــن تتار سيبـيـريا فى آثــار « يادرينسوف » و « بتانين » و « فيشر . وقرأت عن المذاهب فى تار « كارليل »

عدة مرات . أما عن أحاسيى بالنسبة للتتار ، فقد تعرفت على رجل كبير السن وأنا أتعلم فى بطرسبورج ، وكان على قدر كبير من الإنسانية يزورنى أحيانا ويسدى إلى النصح على الدوام . ولما كان هذا الرجل من عـامـة الناس حـسب ظنى ، فقد كان يسدى إلى النصائح المفيدة كثيرا ويحكى لى الحكايات . كان يزورنى مـرة كل أسبـوع أو ثلاثة أسابيع ، وكان يأتى أحـيانا ومـعه علبـة من الشيكولاته . ويحتمل أن يكون شعورى تجاه التتار نابع من تأثير هذا الشيخ ، الذى كنت أحبه كأبى . وعدا ذلك ، فإننى أحس بإحساس خـاص كلما شاهدت التتار . وأعتقد أن مبعث هذا نابع من صلة الدم .

إننى أفكر دائما فى أحوال التتار . لا أستطيع أن أتحمل المعاملة الحقيرة التى يعاملها الروس لهم . لقد كان يظهر بينى وبين زوجى نفور دائم بسبب هذه

المسألة . وكنا نتقاذف بكلام عنيف كلما هاجم أحدنا الآخر عادة ذاكر أفندى :

- جعلتينا نعجب بك . إذا كنا نشكرك شكرا جزيلا فإن شكرنا فى مكانه حيث أننا نصادف أختا لنا مثلك ليس لدينا أمل فى أن نرى مثيلا لها فى أى مكان آخر . أنا مسافر إلى « أومسكى » . ثقى أننى أريد أن ألتقى بك عدة مرات أثناء السفر . يحتمل أنك ستركبين فى عربة خاصة بالسيدات بعد الوصول إلى « تايغة » . ومع ذلك نستطيع أن نلتقى فى المحطات . إلا أننا سنفارق أبانا[1] فى محطة « تايغة » ، لأنه سيسافر إلى أقصى الشرق . والآن نقترب من « تايغة » فى حقيقة الأمر . لقد مننت منك كثيرا . إننى اليوم محظوظ تماما . ولسانى يعجز عن التعبير عن أحاسيسى نحوك . أما قلبى فلك فيه موقع احترام كبير . وإذا كنت أرجو شيئا منك ، فهو أن تأذنى لى بتقبيل يدك ..

قال ذلك ثم قام لذلك الغرض واضطررت إلى القيام أنا أيضا . لم يمض وقت طويل حتى وصل القطار إلى محطة « تايغة » ، فودعتهما ثم انصرفت .

وجدت نفسى هنا متأثراً تأثراً كبيراً ، فاستغرقت فى فكر واسع عميق . أينما يولد الإنسان وأينما يربى تنشأ فى قلبه أشياء كثيرة . عندما ترد بخاطر الإنسان أحوال كهذه ، فإنه يعترف إن طوعا أو كرها بحيرته نحو صنع واجد الوجود خالق الكائنات .

ذهبت إلى منزل الشيخ نور أفندى الواقع عند محطة « تايغة » . وعندما جاء موعد القطار ، كنت قد قضيت عنده ساعة أو ساعتين ، طالعت أثناءها الجرائد .

سأسافر من هنا إلى « إيركوتسكي » التى تبعد مسافة ١٥٠٢ چاقرما ، وسأمر بكثير من المدن والقرى . سافرت من محطة « تايغة » فى ٩ نوفمبر ١٩٠٨ م ، وبعد خمس ساعات نزلت فى محطة « باغاتول » ، وتوجهت إلى قرية

١ - المقصود بأبينا هو عبد الرشيد إبراهيم (المترجمة)

« شولدات » .

قرية « شولدات » قرية صغيرة إلى حد ما . تتكون من مائة منزل ، أهاليها جميعا من المسلمين . ويأتى إليها المنفيون من داخل روسيا فى ذلك الوقت ، خاصة من « قازان » و « نيجنى نوغور » ومن بعض الولايات الأخرى .

إلا أنه بفضل الحماس الدينى لأهالى هذه القرية تم إنشاء مدرسة ابتدائية ومسجد أيضا على نفقتهم . نعم . إن وجود مدرسة ومسجد فى قرية مسلمة ليس شيئا يستحق الذكر . لكنها قرية تتكون من عائلات منفية[١] ، وتقع فى أطراف سيبيريا ، ويتم الصرف على هذه المدرسة من مال هؤلاء المنفيين(٢) ، ويتم إعداد هؤلاء الأولاد الذين يقدر عددهم بخمسين أو ستين تلميذا مسلما على سلوك يختلف عن سلوك آبائهم ، وصنعة القراءة والكتابة هى أهم وظائف المدرسة الابتدائية التى يربى التلاميذ فيها على أركان الدين . » فإذا استعرضنا الموضوع من وجهة النظر هذه ، فلا شك أن هذا الموضوع يستحق التقدير .

وكلما ذهبت إلى هذه القرية كنت أزور هذه المدارس وأمتحن تلاميذها . وكنت أقوم بالوعظ والإرشاد فى أوقات الصلوات الخمس فى جوامعها . وقد جعلنى حب أهلها للدين الإسلامى محظوظا تماما ، فقررت أن ألتقى بهم كل يوم .

ذات يوم كنت ضيفا فى منزل أحد الناس . وعندما قدم إمام الحى حسن أفندى هذا الشخص إلى ، قال :

– حضر هذا الرجل حرب الروس واليابان[٣] ، وقد أسر فى اليابان وقضى فى الأسر عاما واحداً ، أصبح بعده محبا لليابانيين .

سألت وأنا ممنون أيضا :

– أين كنت أثناء الحرب ؟ وأين أسرت ؟

١ ، ٢ – فى الأصل : مجرم (المترجمة)
٣ – وقعت هذه الحرب ١٩٠٥ م وهزم فيها الروس أمام اليابانيين . (المترجمة) .

رد قائلا:

– كنا فى « موقَدان » ، وأسرنا هناك . أسر منا عشرة آلاف رجل فى « موقدان » ، كان بينهم ٧٥٠ مسلما . عندما قبضوا علينا أرسلونا مباشرة إلى اليابان . وخصصوا لجيشنا بلدة « أواساكى » . وفى اليوم الذى وصلنا فيه إلى هذه البلدة ، وزعونا بحسب الديانات . وأنزلونا فى مشاتى منفصلة . ومنذ ذلك اليوم قسموا علينا المأكولات بل وكل شىء . ثم بادروا بسؤالنا ، قائلين :

– هل يوجد بينكم علماء ؟ هل يوجد لديكم من يقرأون ويكتبون ؟ هل يمكن لكم توضيح ذلك الموضوع ؟

وبعد أن اخترنا خمسة عشر عالما ، قالوا : اختاروا من بينكم إماما واختاروا مؤذنا . والباقى سيكونون معلمين . سوف تشتغلون بالتعليم الذى يتفق مع تعاليم دينكم . واختاروا من بينكم خمسة أشخاص كى يوفروا لكم الطعام الذى يتفق مع تعاليم دينكم .

اخترنا بأنفسنا ما تحدثوا عنه . ثم خصصوا لنا مكانا للصلاة ، وفرشوه بالحصير . وخصصوا مكانا للمدرسة أيضا . وأعطونا ماكينة يدوية لطبع الكتب . ثم قالوا : أنتم ضيوفنا اعتبارا من اليوم ، لكن عليكم تعليم القراءة والكتابة خمس ساعات يوميا .

كان الطعام والشراب جميلا جدا . أكرمونا كثيرا خاصة وأننا من المسلمين . أزلنا جهل أناس كثيرين ، وعلمناهم القراءة والكتابة . ولن أستطيع أن أقدم لك معلومات أكثر من هذا . ولكنى أقدم لك إحدى الرسائل الصغيرة(١) التى كتبها أحد معلمينا وطبعها بالآلة اليدوية بشرط أن تعيدها إلىَّ ،

ثم قدم إلىَّ كتابا .

---

١ – تكثر كتابة الرسائل فى الآداب التركية بعامة ، خاصة فى مجال علوم الدين والفلك والتنجيم وما شابهها . وهى عبارة عن كتيبات يتناول الواحد منها موضوعا واحداً محدود الصفحات (المترجمة) .

أخذت الكتابة وطالعته ، ثم قلت :

– إذا قلت أنه تاريخ جميل جدا لـ « پورت آرثور »[1] فهذا جائز . وربما لايكون تاريخا . وإذا قلت أنه دفتر يوميات لشخص كان موجودا فى « پورث آرثور » وقضى وقته فيها بساعة الحرب ، فإنه يكون أكثر مناسبة . لكنه طبع ووزع كذكرى على ألفى أسير .

عندما تسلمت هذا الدفتر بيدى ذهبت على الفور إلى منزل الإمام حسن أفندى كضيف . ولم أتحرك من مكانى لمدة اثنين وعشرين ساعة ، إلا وقد نسخت هذا الدفتر كله .

وسوف يطبع هذا الدفتر كله وينشر قريبا على شكل رسالة منفصلة . ولهذا السبب لم أجد ضرورة لكتابة شىء من هذا الدفتر هنا قط .

وبعد أن أديت صلاة الجمعة يوم ١٤ نوفمبر ١٩٠٨ م ، قررت التوجه من « شولدات » إلى بلدة « آجينسكى » على ظهر الدابة . وبين هاتين البلدتين مسافة تقدر بستين چاقرما . وعندما تحركت من « شولدات » ، خرج أهل القرية جميعا صغارا وكبارا لتوبيعى . وكان خارج القرية مايقرب من مائة من الأهالى بعضهم يبكى وبعضهم يردد الأذان . وعلى هذا النحو ودعونى لمسافة ثلاثة عشر چاقرما . أما حسن أفندى صاحب المنزل الذى استضافنى فيه وفخر الدين افندى وأمين أفندى من أصحاب اللحى البيضاء فى الحى فقد صحبونى حتى « آچينسكى » التى تقع على بعد ستين چاقرما .

ودعت جميع أهالى « شولدات » وفارقتهم عند قرية « قارابيلنيك » على بعد ثلاثة عشر چاقرما . وبعد نصف ساعة هبت علينا رياح ثلجية شديدة . كان الهواء باردا ، ودرجة الحرارة ٣٥ تحت الصفر . وكلما مضينا فى الطريق كلما كانت درجة الحرارة تسوء أكثر وظلام الليل يزداد . ولا يظهر للقمر أو لغيره نور . وبعد أن قطعنا عشرين جاقرما أخرى ، مررنا بقرية روسية .

١ – پورت آرثور ، ميناء فى جنوب الصين . (المترجمة)

فقال « فخر الدين آقصقال » :

– ينبغى علينا أن نقضى الليل هنا.

فرد أمين افندى قائلا :

– فلنمض فى طريقنا .

مضينا فى طريقنا وتجاوزنا القرية ، ولم نر شيئا قط بعد ذلك ، حتى أننا أصبحنا لا يرى بعضنا بعضا من شدة الرياح والثلوج . أخذ رفيقنا أمين أفندى يزجر الدواب . وبدأ من خلفنا حسن أفندى وفخر الدين آقصقال يصيحان . أوقف أمين أفندى الدواب ، وانتظرنا حتى لحقا بنا . قال فخر الدين آقصقال :

– إذا مضينا فى طريقنا على هذا النحو ، فبعد نصف ساعة لن نستطيع أن نجد القرية التى مررنا بها ، ونضل الطريق ، ويصبح عيالنا يتامى من بعدنا . مهما يكن الأمر علينا أن نعود إلى تلك القرية ..

على أى حال بحثنا الموضوع لبعض الوقت ، ورغم أننا قررنا العودة إلى تلك القرية ، إلا أننا ضللنا الطريق . ولم نستطع أن نتبين الجهة التى توجد فيها القرية . لايوجد طريق ولا نستطيع أن نرى شيئا . جرى صديقنا أمين فى كل اتجاه . وفى النهاية بدأ يسوق الدواب ، قائلا :

– إننى أخمن أن تكون القرية فى هذه الناحية .

ولكن لايوجد شىء معلوم قط . ولا نستطيع أن نجد القرية . استمرينا فى التجول هنا وهناك لمدة ساعتين ، وفى النهاية صادفنا رجلا ، وقد تحقق لدينا أنه ضل الطريق مثلنا .

تقدم منه أمين أفندى وبدأ يتحدث معه ، فأخبره الرجل بأنه فى هذا المكان منذ المساء ولم يستطع أن يجد القرية . وبينما صديقنا أمين يسوق الدواب يمينا

ويساراً وجدنا القرية فى النهاية . وقد تحقق ذلك بفضل قوة الدواب .

وبعد ذلك دخلنا منزل أحد الروس لقضاء الليل فى هذه القرية منزل صغير إلى حد ما يقدر عدد أهله بخمسة عشر فردا ، ونحن أربعة أشخاص . ويصبح المجموع عشرين فردا [١] . كان يوجد عدة عجول وعدة خنازير صغيرة وقطتان وكلب . ومجموع الكائنات كلها بلغ خمسة وعشرين كائنا ، مكثنا جميعا فى غرفة صغيرة . وفى رأيى أن الإقامة تحت الثلوج والرياح أكثر راحة . ولكن « فخر الدين آقصقال » أقام طوال الليل على الشكر والدعاء ، قائلا كان أولادى سيتيتمون . لقد ملأت الروائح الكريهة البيت من الداخل ..

ولا أعتقد أننى استغرقت فى النوم قط . لقد جبرنا على قضاء الوقت هناك حتى الصباح إن طوعا أو كرها .

سكن الهواء فى الصباح الباكر ، فخرجنا بسرعة إلى الطريق . وفى تمام الساعة التاسعة من صباح السبت وصلنا إلى « آچينسكى » ، ونزلنا ضيوفا فى منزل صديقنا محمد باقر أفندى .

تعتبر « آچينسكى » مدينة صغيرة إلى حد ما ، بها أربعون أو خمسون منزلا من منازل المسلمين ، وبها أيضا مدرسة ابتدائية ومسجد . وليس هناك شىء آخر يستحق الذكر . ولكن الشىء الذى يبعث على الشكر ، هو أنه إذا مررت فى سيبيريا بإحدى القرى الروسية التى يقدر عدد المنازل فيها بعدة مئات ، فإنك لا تجد فى أغلبها مدرسة واحدة أو كنيسة . أما عن قرى المسلمين التى قدر عدد المنازل فيها بعشرين أو ثلاثين منزلا ، فلا أقل من أن تجد بها مدرسة ومعلما ، وفى أكثرها مسجد ومعلم ومعلمة . وهذا الوضع يبعث على الاهتمام من هذه الناحية .

توجهت بعد ذلك من « آچينسكى » إلى « إيركوتسكى » . وتبلغ المسافة بين

١ – يبلغ العدد عشرين فردا إذا حسبنا الرجل الذى صادفوه ضالا للطريق (المترجمة) .

البلدتين ١١٧٦ چاقرما. ولاشك أن مثل هذه الطرق الطويلة التى تستغرق الأيام والليالى تصيب الإنسان بالضيق والملل . إن خط سكك حديد سيبيريا خط منظم تماما ، وعرياته على أحدث طراز . ومع ذلك فليس من السهل قضاء الوقت فى مواقع ضيقة كالحبس . إن الأرانب إذا وجدت بكثرة فى مثل هذا المكان . فإنها تصاب بالسكّر . فليحفظ الله الانسان لأنه يتعرض لكل أنواع المهالك . لايستطيع أن ينام ولايستطيع أن ينزل فى المحطات لتناول الطعام . إن النفس البشرية تصاب بالضيق بسبب حركة قطارات سيبيريا البطيئة . فالقطار فى عموم سيبيريا يقطع فى الساعة مسافة عشرين چاقرما . وهو مايعد شيئا ثقيلا جدا .

وفى العشرين من نوفمبر سنة ١٩٠٨ م وصلت فى الصباح الباكر إلى « إيركوتسكى » . وقد استقبلنا فى محطة السكك الحديدية صديقنا القديم شيخ الله أفندى وسائر الأحباء والمعلمين . وبعد أن تلاقينا وتصافحنا بعض الوقت عبرنا الجسر المقام على نهر « أنغاره » ، متوجهين إلى منزل شيخ الله أفندى . كان الطقس باردا لدرجة أننى لم أشهد برودة كهذه فى الأزمان القريبة . إلا أن نهر « أنغاره » لم يتجمد بعد . إذا وصلت الأنهار إلى درجة برورة قدرها ٣٥ درجة تحت الصفر ولم تتجمد ، فإن هذا يبعث على الحيرة . عندما تصل درجة الحرارة من ١٢ - ١٤ درجة تحت الصفر عندنا فى غرب سيبيريا ، فإننا نستطيع أن نعبر بالحيوانات من فوق جليد الأنهار .

كان صديقنا شيخ الله أفندى يذكر لى أن الطقس على هذا النحو لا تعد باردا . أما أنا فكنت أتعجب من شدة البرد . إذا وصلت درجة الحرارة إلى ٣٠ درجة تحت الصفر عند أهالى « إيركوتسكى » فإنها لا تعد شيئا .

قضيت هذا اليوم حتى المساء ضيفا عند شيخ الله أفندى . ثم ذهبت إلى دار الضيافة « ديكوه » التى أعدها لى . فوجدت هناك رسائل عديدة من كل ناحية . وبعد أن تصفحتها أرسلت بردى على الضرورى منها .

إيركوتسكى

تعتبر هذه القرية فى حقيقة الأمر مركزا لتجارة سيبيريا منذ القدم . فقبل إنشاء خط السكك الحديدية فى سيبيريا ، كان يفد إلى هذه القرية كثير جدا من التجار من داخل روسيا ومن غربى سيبيريا ومن الصين ومن منغوليا للبيع والشراء رغم قسوة زمهرير الشتاء .

ورغم أن مدينة « إيركوتسكى » الآن أكثر تنظيما ، إلا أن تجارتها فقدت أهميتها القديمة . فقد كانت بضائع موسكو وداخل روسيا تأتى إليها قديما لتباع فيها ، وكانت بضائع الصين تأتى إليها أيضا . أما الآن فإن أمتعة موسكو تذهب حتى بكين بفضل وجود السكك الحديدية ، وكذلك البضائع الصينية تذهب إلى بطرسبورج . ولما سقط سوق « إيركوتسكى » من الناحية التجارية لهذا السبب ، تدنت عموم أسواق سيبيريا .

بطلان كبيران :

سأقدم بعض المعلومات عن صديقى « شيخ الله أفندى » وأخيه الأكبر « زاهد الله أفندى » اللذين أنزل ضيفا عليهما كلما وصلت إلى إيركوتسكى » .

لم يستطع أبو هذين البطلين النابتين من عند الله – رحمة الله عليه – أن يحصل العلم ، لأنه كان من عامة الناس ، وله العذر فى ذلك . إلا أن ابنيه صاحبا حماس لا ينتهى ولا ينفذ ويتمتعان بالجدية والقلب الطاهر ، مما يؤهلهما لكى يكونا بطلين كبيرين حقيقة .

وطنهما الأصلى هو قرية « آق يكيت » فى ناحية « سيوبيل » بولاية « قازان » . ترك زاهد الله أفندى وطنه الأصلى فى البداية وهو فى عمر الشباب ، ورحل إلى أقصى المشارق . وأخذ يبيع الليمونة الواحدة من ليمون يافا بـ ١٢ غرشا فى إيركوتسكى منذ أربعين أو خمسين عاما . وفى النهاية استوطن إيركوتسكى وأقام فيها .

ثم رافق شيخ الله أفندى أخاه . وإن كان زاهد الله أفندى قد بدأ العمل أولا ،

إلا أن شيخ الله أفندى الذى اختار الإقامة الدائمة فى سيبيريا قد سيطر على تجارتها كلها اليوم .

وقد استوطن أحد الغيورين سيبريا ، والآخر نذر نفسه لخدمة الدين الإسلامى وخدمة أبناء وطنه الأصلى ، ولأنهما لقيا الهوان بسبب جهلهما ، فإنهما لم يقبلا أن يلحق وجدانهما أى مضرة . فبذل كلاهما أقصى المستطاع لفتح المدارس وبناء الجوامع فى الأماكن التى أقاما فيها . وجمعا مئات بل وآلاف من أولاد المسلمين الذين وجداهم أيتاما أو أرامل وأنفقا عليهم من حر مالهما ، وربياهم وعلماهم ، ولازالا يقومان بنفس العمل . أينما نذهب اليوم نجد مدارس ومكاتب شيخ الله أفندى ، كما نجد مساجد زاهد الله أفندى . وقد أنفق على المسجد الشريف الموجود حاليا فى مدينة إيركوتسكى نفسها ثلاثين ألف روبل على الأقل . وفى هذه المدينة أربعون أو خمسون من أولاد المسلمين فى مدرسة البنين . وفى مدرسة البنات ستون بنتا . إنهن بنات عفيفات أكثرهن من اليتامى والمساكين . وقد التزم شيخ الله أفندى بالوفاء بمصاريفهن كلها من حر ماله . ويبذل جوده وكرمه في تعليمهن وتربيتهن .

وهكذا اكتسب شيخ الله أفندى موقعا هاما فى عموم سيبيريا اليوم . وقد سمى تتار سيبيريا جميعا أولادهم الذين ولدوا فى هذه السنين باسم شيخ الله تفاؤلا ، ولا زالوا يسمونهم . ولا تقتصر إنسانية شيخ الله أفندى على التتار ، بل إن الروس واليهود والبورات والياقوت كافة يبجلون اسمه عادة . وعلى قدر مايوجد فى إيركوتسكى من فروع للبنوك ، فإنه عضو فيها جميعا . وعلى قدر مايوجد فيها من جمعيات خيرية فهو عضو فيها أيضا . وهو رئيس للجمعية الاسلامية الخيرية الخاصة به .

وعلى هذا النحو فإن زاهد الله أفندى معروف فى وطنه الأصلى أيضا فبهذه الصورة يؤدى خدماته .

والنصيحة التى يسديها هذان البطلان للشباب دائما هى : « لا جهلاء مثلنا » .

وهنا أكتفى بهذا العرض والبيان المختصر عن بعض أحوالهما . وإذا كان

من كتابة سيرتهما بالتمام والكمال ، فإن ذلك يستغرق كتابا كاملا فى العادة . وسوف أورد هنا صورة هذين الأخوين من أجل القراء الكرام ، لأنه يعتبر تذكيرا بالخدمات التى أسداها كلاهما للأمة الإسلامية .



زاهد الله أفندى



شيخ الله أفندى

وإن يكن أغنياء إيركوتسكى من المسلمين قليلى العدد ، إلا أن أهل الشهامة كثيرون . والأحياء الإسلامية فى مدينة إيركوتسكى كلها لايتعدى عدد سكانها فى الغالب ألف نسمة . إلا أن الجمعيات الخيرية بها اليوم يبلغ رأس مالها عشرة آلاف روبل (أى ما يقدر بـ ١٢٥٠٠٠ غرس) ، فضلا عن المدارس المجهزة التى تقوم بالتربية .

لقاء مع القس:

كسبت معرفة كثير من الأشخاص من الأدباء ومن الأعيان فى هذا البلد . ومن جملة هؤلاء القس المعروف « إيناكنتى بادغار بونسكى » صاحبت هذا الشخص كثيرا ، وتلقيت منه معلومات وافرة عن منغوليا .

ومع أن « إيناكنتى » قس ، إلا أنه أديب كبير . ومع أنه يعرف الانجليزية والفرنسية والألمانية ، إلا أن يعرف اللغة المغولية معرفة جيدة ، بالإضافة إلى إلمامه باللغة التترية . وهو يؤدى خدماته للأدب فضلا عن الدين . ويحترم الماديات أكثر من المعنويات ، وقد أعد معجما فى اللغة الروسية والمغولية منذ ثلاث أو أربع سنوات وهو الآن مطبوع .

وبادغار بونسكى متخصص يملك معلومات غزيرة عن منغوليا . فبعد أن تجول فى منغوليا شبرا شبرا ، وقف على أدبهم بعد أن جال ببصره وبصيرته فى كل أنحائها . ولهذا السبب فإننى متأكد من أن هذا القس يملك معلومات واسعة ورغم أنه رجل من رجال الروحانيات ، إلا أنه بعيد كل البعد عن التعصب ولاشك عندى فى أن الكلام الذى قاله لى قرين الحقيقة بالتأكيد .

وطبقا لأفكار بادغاربونسكى فإن التربية الأخلاقية فى مذهب اللاما كانت أكثر تنظيما وأكثر اتساقاً مع الطبيعة . إلا أن اللاما لا يدفنون موتاهم ولا يحرقونهم ، بل يلقون الجثث فى الصحارى مباشرة . فإذا لم تصادفها الوحوش الضارية فإنها تبلغ الطرقات والدروب بمرور الشهور ، فتوقع بالأخلاق تأثيرا سيئا . والقريب إلى الاحتمال أنها تخل بالصحة العامة أيضا .

ومع ذلك فإن مذهب اللاما يحرم الكذب والظلم والاعتداء على حقوق العباد وحقوق الحيوانات وقتل كل ذى روح تحريما قاطعا . ومع أن انطباع « إيناكينتى » بادغان بونسكى » عنهم يعد انطباعاً حسناً فقد أبدى أسفه لأنه رأى من غير المناسب أن يرجعوا أسباب التناسل إلى المسائل الدينية وهى من صفات الخالق أصلا .

المرصد :

ذهبت من هناك إلى مرصد إيركوتسكى حيث تجولت فيه ، وإذا لم يكن هناك شيء يستحق الذكر فى مرصد إيركوتسكى ، فإن مجرد وجود المرصد فى هذه المدينة يستحق الذكر ، خاصة وأن هذا العلم الجليل هو علم خاص بنا نحن المسلمون . وهو موجود فى إيركوتسكى اليوم ، ولا يوجد فى أرض فلسطين . ألا يدعوا هذا إلى الأسى ؟! كلما نظرنا إلى هذه العلوم الجليلة وجدنا أننا أضعنا هذا الميراث . ولا حيلة أمامنا غير البكاء كاليتامى .

التقيت بمدير المرصد الذى يدعى « شيستا كوفيج » ، وأخذت أتجاذب معه أطراف الحديث . وقد أخبرنى أن المراصد لحق بها الضرر من جراء ظلم الحكومة أيضا .

انقراض البورات نسبيا وأسبابه :

ثم التقيت بالدكتور « ترورباچيف » وهو أحد أعيان قوم البورات . وإن يكن هذا الرجل من البورات ، إلا أنهم [1] دفعوه إلى اعتناق المسيحية وهو لا يزال صبيا . وقد أكمل تعليمه فى جامعة بطرسبورج حتى حصل على الدكتوراه . إلا أنه يصرف كثيرا من فكره فى أحوال البورات . وهو رجل يميل إلى التفكير كثيرا .

وأثناء الحوار ، قال :

سينقرض البورات عن بكرة أبيهم وهم فى هذا الوضع . فكلما مرت الأيام فإن هذا النسل فى انقراض . إننى أفكر فى حيلة للتغلب على ذلك ، لكننى لا أستطيع أن أجد حيلة .

قلت له :

متى تجد منفعة من هذه الدكتوراه ؟

قال :

– لن أستطيع أن أجد ثمرة من هذه الدكتوراه فى مواجهة هذا الداء وسوف نجبر فى الغالب على استشارة طبيب نفسانى أصلا .

١ – المقصود ، الروس (المترجمة) .

قلت له :

– جرب شيوخ التتار عندنا هذا الوضع كثيرا . فعندما توقف النسل فى قبيلة ، طبقوا أصول زواجها مع قبيلة أخرى . فجربوا هذه الأصول أنتم أيضا .

قال :

نعم ، لقد استقر هذا فى فكرى أيضا . وأعتقد أن هذه الأصول صائبة .. ولا حاجة حتى لمجرد التفكير فى حيلة أخرى . لكن ، مع من نتزوج ؟ هذه مشكلة أيضا .

قلت له :

– جربوا مع الروس .

قال :

– إذا تأكد لى أن نسلنا فى طريقة إلى الانقراض تماما ، فإننى لا أستطيع أن أقبل بالزواج من الروس أصلا .

قلت له :

– مادمتم قد اعتنقتم المسيحية ، فقبول الزواج منهم أهون ، أليس كذلك ؟!

قال :

– أنا لم أعتنق المسيحية ، لكنهم هم الذين أجبرونى عليها . ورغم هذا الإجبار فإن البورات يعتنقونها بصعوبة .

قلت له :

– تحمسوا لعمل علاقة مع اليابانيين ، فهذا مناسب لكم من حيث المذهب أصلا ، وأعتقد أن البورات سيوافقون على ذلك .

قال :

– ياه ! ... لاشك أن جميع البورات سيوافقون على هذا ممتنين ، إذا كان هناك نصيب . لكن ، إذا لم تمانع الحكومة ، فإن هذاالموضوع يعتبر مشكلة فى حد ذاته .

قلت له :

– إذن ، فلنتحدث فى هذا الموضوع إذا قبل اليابانيون ذلك .

قرى إيركوتسكى :

عندما كنت فى بلدة إيركوتسكي ، تجولت فى أطراف القرى كما اعتدت دائما ، وزرت المدارس . وفى كل مكان ذهبت إليه وجدت أثرا يجذب الانتباه . والقرى هنا مليئة برجال أجبروا على البقاء لإكمال مدة النفى . ويمكن القول بأنها قرى المجرمين والمنفيين . ومع ذلك فإن الحمية الدينية قد دفعتهم إلى أن تكون لهم مدارس ومساجد .

من غير المعقول أن المجرمين الذين يقضون مدة الأشغال الشاقة ويقال عنهم اليوم « كاتوركه » لهم مدارس ومساجد خاصة بهم .

سجن ألكسندر للأشغال الشاقة :

هنا سجن ضخم جدا يضم بين جنباته ٢٥,٠٠٠ مجرم ، ويمكن أن يقال عنه أنه فى حجم بلدة . وكل الموجودين هنا عدا الموظفين مجرمون ومحرومون من الحقوق الإنسانية . ولكنهم آدميون مثلنا أولا وأخيرا . هؤلاء المجرمون والجناة الذين حرموا من الحقوق الإنسانية يوجد بينهم أيضا إخوة لنا مسلمون . ورغم أنهم على هذا الحال ، إلا أن الحماس الدينى دفعهم إلي أن يتخذوا من بينهم إماما داخل موقع السجن والحبس . ويقوم الإمام بتلقين تعاليم الدين الإسلامى للأطفال الذين أتوا بصحبة القادمين مع أهلهم وعيالهم وأولادهم . ويخرج الإمام من بين هؤلاء المجرمين ! ورغم ذلك يحافظ على

مهمته كإمام بمقتضى تعاليم الدين الإسلامي . هذا هو « مفتاح الدين الملا » إمام سجن ألكسندر للأشغال الشاقة رجل طيب للغاية . ورغم أن معلوماته سطحية على أي حال ، إلا أنه رجل يتسم بالحماس والغيرة الفائقة ، تدينه قوى وصلابته متينة . يجمع المجرمين القتلة السفاكين أحيانا ، ويقوم باسم الدين بأداء مهمته وفاء لوظيفته . وإذا كانت هناك ملاحظة جديرة بالتسجيل في هذا المقام ، فهي مايتمتع به تتار روسيا من صلابة دينية تستحق التقدير بدرجة كبيرة ، لأن الفئة المحرومة من الحقوق الإنسانية تستحق التقدير حتما ، إذا كانت تملك صلابة بهذا القدر .

وسجن ألكسندر للأشغال الشاقة ليس سجنا كبيرا[١] . إلا أن المجرمين القادمين إليه يتروواح عددهم كل عام بين ٥,٠٠٠ و ٨,٠٠٠ مجرم . والذين يخرجون من السجن بعد إكمال المدة يتراوح عددهم بين ٣,٠٠٠ و ٤,٠٠٠ مجرم . وقد كانوا يوطنون على هيئة قرى في المناطق المجاورة .

وعدد المجرمين القادمين إلى هذا السجن يزداد سنة بعد أخرى . ويقتل بعضهم بعضا في داخل السجن بسبب فساد الأخلاق ويموت الكثير منهم من تأثير المسكرات . وقد قدِّر لي أن أرى مايقدر عدده بـ ٧٠٠ – ٨٠٠ من الأشغال الشاقة الذين يؤدون العقوبة في قرية « أصولية » إنهم يعملون تحت درجة حرارة تقدر بـ ٣٥° تحت الصفر ، وصدورهم مفتوحة ، والبخار الذي يتصاعد من أفواههم يشق عنان السماء عادة[٢] . لم تر وجوههم الماء قط بسبب وجود مناجم الفحم . عندما ينظر الإنسان إليهم تعتريه الدهشة ، فهم كالوحوش الضارية في زي الإنسان العادي .

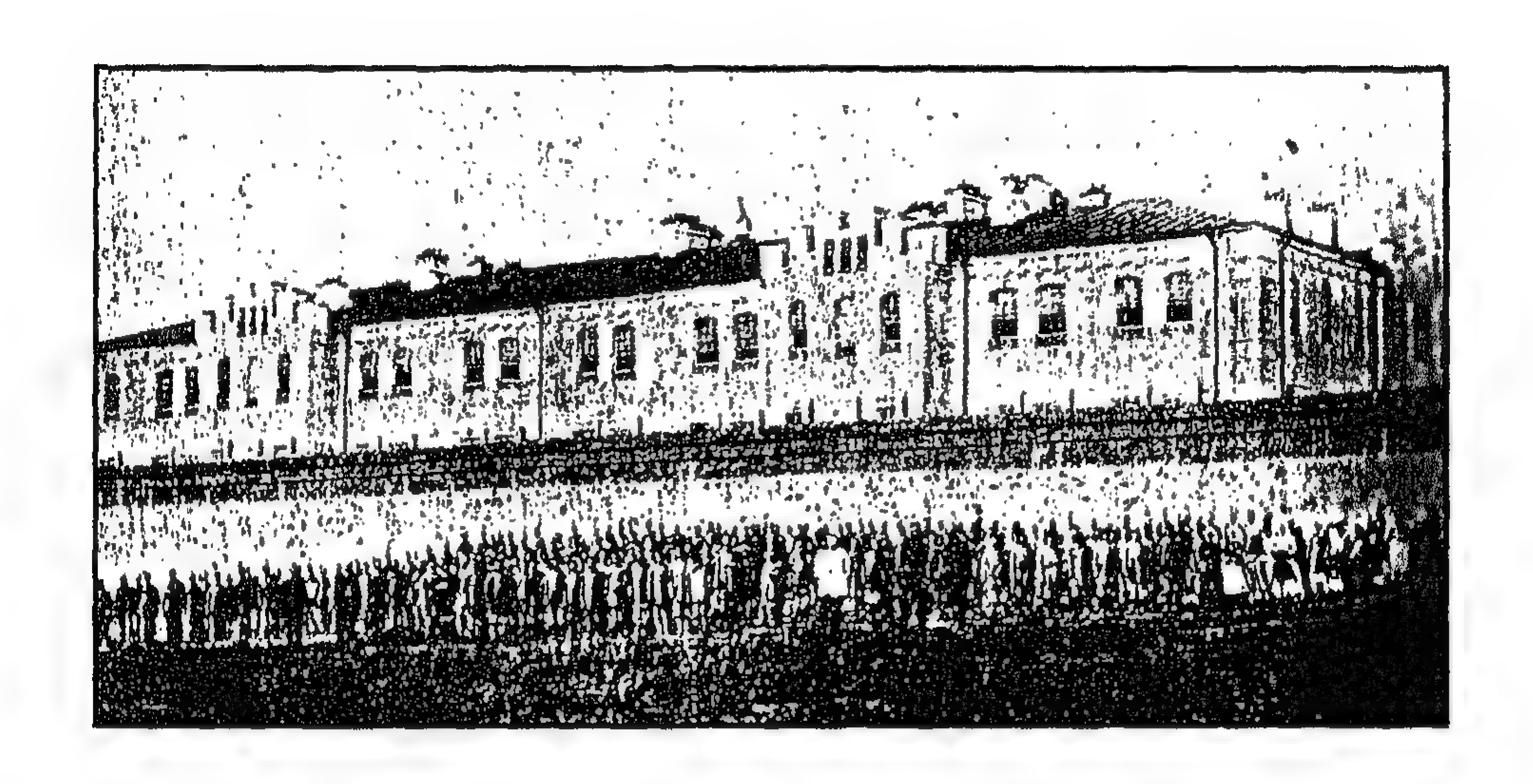
وبين هؤلاء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة أناس من أهل التقوى والتدين ، كل جريمتهم تنحصر في أنهم عبروا عن حماسهم الديني ليس إلا . وعدا هؤلاء الذين ذكرناهم توجد جماعة من الروس معهم ، كل المعلومات المعروفة عنهم أنهم متهمون سياسيون . وهذه الظروف تفرض على الجميع أن ينقلب ذكاؤهم إلى بلاهة وأن تتحول سعادتهم إلى شقاء . ولم يبق هناك شيء يدل على

١ – سبق للمؤلف أن قال إن هذا السجن ضخم جداً في بداية هذا الموضوع (المترجمة) .

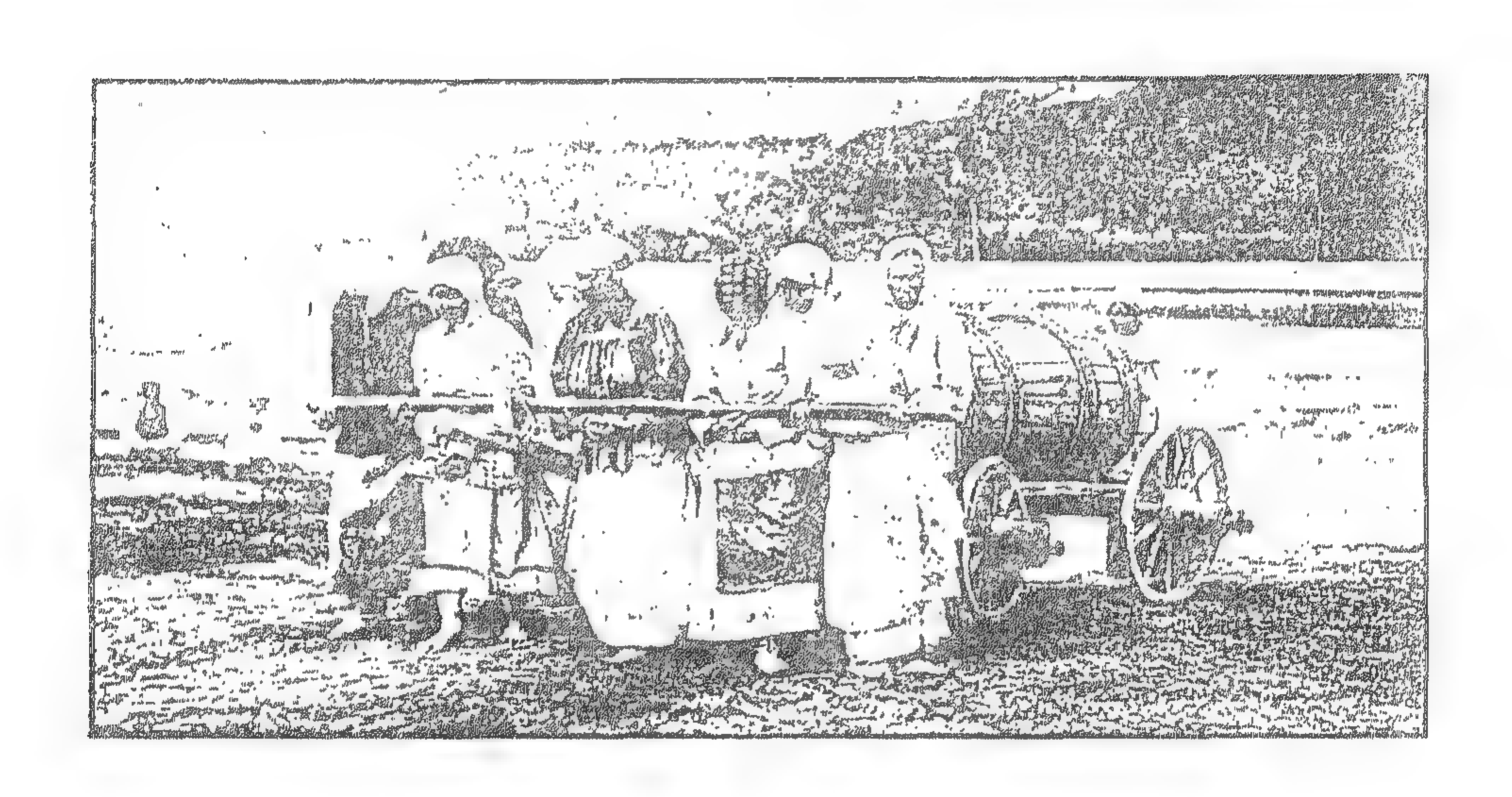
٢ – في الأصل صار البخار الذي يتصاعد من رءوسهم ضبابا كثيفا عادة والمقصود واحد إلا أن التعابير مختلفة من لغة إلى أخرى (المترجمة) .

بشريتهم سوى أسماهم . وقد ذكروا أنهم أناس قضى بعضهم فى هذا السجن مددا تتراوح بين ١٦ ، ١٨ عاما .

وهنا أعرض صورة أولئك الذين يقضون عقوبة الأشغال الشاقة فى هذا السجن للفت الأنظار . ومن بين هؤلاء صورة أخرى للسيدات اللاتى يمارسن الأشغال الشاقة المجهدة التى هى من صميم عمل الحيوانات عادة .



المجرمون الذين يؤدون الأشغال الشاقة فى هذا السجن



السيدات اللائى يؤدين الأشغال الشاقة

وقاتوركه ، هو المكان المخصص للأشغال الشاقة ، ويطلق الروس على هذه الأشغال « قاتورَناى رابوته » ويقولون عن المحكوم عليهم فى السجن « قاتورزان » وهو سجن عام مركزه ألكساندر . وتوجد ورش ضخمة جدا لأرباب الحرف من المساجين . ومهما كانت حرفة أى مجرم ، فإنه يكلف بممارستها داخل هذا السجن ، سواء كان خياطا أو صانع أحذية أو نجارا أو صانع أقفال ومفاتيح أو صائغا أو غير ذلك . وإن لم تكن للسجين حرفة ، كلف بممارسة الأشغال الشاقة .

وتورد مصنوعات هذا السجن كلها . وعلى هذا النحو يحدد راتب لكل سجين ، طبقا للحرفة التى يمتهنها . وتعين هذه الرواتب أيضا طبقا للحرف الموجودة فى السجن ، ثم تحفظ فى خزانة السجن . وثلث هذه الواردات يذهب إلى الحكومة ، والثلث الآخر ينفق على مصاريف السجن . ويحفظ الثلث الثالث لكى يستفيد منه المجرم . فمن يكمل المدة تعطى له هذه المبالغ أثناء خروجه من السجن . وبعض أرباب الحرف من هؤلاء يخرجون برأس مال كبير عند خروجهم من السجن بعد قضاء المدة المقررة فى العقوبة . ولقد كان هناك سجناء كثيرون خرجوا بمبالغ تتراوح بين ٣,٠٠٠ ، ٥,٠٠٠٠ روبل ، ثم بدأوا مباشرة أعمال مستقلة بمحض إرادتهم ، وامتلكوا ثروة مرة أخرى . إلا أنه من غير الجائز عودة مثل هؤلاء إلى أوطانهم الأصلية ، لأن ذلك ممنوع .

ويذكر هؤلاء النزلاء لبعضهم البعض فيما بينهم أنهم « طلاب جامعيون » . وعدد ذوى الخبرة العالية من بين هولاء ليس بالقليل . وقد جرى بينى وبين أحد النزلاء لقاء ، فتحاورنا على النحو التالى :

أنا :

– توجد أشغال شاقة فى هذا السجن أيضا ، أليس كذلك ؟

السجين :

– لاتوجد أشغال شاقة هنا على حد ظنى . هل تعلم لمن الأشغال الشاقة ؟ إنها للسياسيين ، لأنهم كانوا معززين مكرمين فى ديارهم ، يعملون لخدمة أفكارهم . أما بالنسبة لنا فإن هذا المكان أجمل لأناس جوعى وبلا علاج فى أوطانهم .

ويوجد لنا عمل هنا على الأقل ، إذا كان هناك شيء يقال له أشغال شاقة بالنسبة لنا ، فهو فراقنا لديارنا وأهلنا وعيالنا ليس إلا . ولا توجد أشغال شاقة قط لمن أتوا هنا بعائلاتهم معهم .

أنا :

– هل معنى ذلك أنك ممنون من أحوالك ؟!

السجين :

– هناك شيء يقلق بالى ، وهو : أننا أخذنا الجزاء على جرمنا .

قالوا الجزاء أن ينفونا عن ديارنا . وهذا شيء معقول يدخل ذهنى بقناعة .

ولكن كانت عندى عائلة أعولها وأنفق عليها . كان عندى صبى وصبية . أصبحا جوعى بسببى الآن ، فما ذنبهما ؟! أليس هذا ظلما وغدرا فى حقهما ؟! لقد أصبحا يتيمين تماما . أعتقد أن هذا يتنافى مع العدالة والإنصاف .

أعجبنى كلام هذا السجين ، فقلت له :

– أى فكر تعتقد فى هذا الخصوص ؟ كيف يتفق هذا مع العدالة ؟!

السجين :

– فى ظنى أن بلد المنفى لايعتبر عقابا . مهما عانى المجرم من ألم الفراق ، فعندما يأتى إلى هنا ويستقر يتلاشى من خاطره هذا الألم . أما الجزاء الأوفى فإنه ينصب على عائلة المجرم . ومقصد الحكومات فى الواقع يهدف إلى ملء المستعمرات التى يقل فيها عدد السكان . وتزداد الجريمة فى البلاد التى توجد فيها المنافى فى حقيقة الأمر . وهذا شيء مؤكد ومعلوم أيضا . ينبغى تحديد الجرائم والعقوبات فى ظنى ، بشرط تأمين نفقة العائلة . لقد خلفت ورائى طفلا

فى الثالثة وبنتا فى الخامسة من العمر ، ولا عائل لهما . ولهذا السبب لن يتمكنا من مواصلة التعليم . لقد أصبحت مشرداً ، ولا أرضى عن حالى هذا . لا أقل من أن أعمل على ألا يكون طفلاى مثلى . لقد ألحقتهما بالمدرسة ، ثم ذهبت إلى المنفى . وليحدث مايحدث . سوف ينشأ مكانى ثلاثة من المشردين[١] . ولهذا السبب يزداد عدد المجرمين من سنة إلى أخرى .

جذب انتباهى كلام هذا الرجل ، إلا أن ضبطية السجن جاءت فى هذه الآونة ومنعتنا عن الحديث .

وبعد أن تجولت فى قرى المنافى على هذا النحو ، عدت إلى إيركوتسكى مرة أخرى .

متحف إيركوتسكى :

ذات يوم زرت المتحف ، فوجدته يشتمل كله على آثار شرقية . والجناح الخاص بعلم دراسة الإنسان (الأنتوجرافيا) فى هذا المتحف غنى جدا . وتوجد آثار غريبة جدا تعود إلى المذهب البوذى[٢] والمذهب الشامانى[٣] ، حيث توجد أنواع من تماثيل الآلهة التى يقال لها « بورخان » . والبورخانات مزدانة بمجوهرات ثمينة ، ويبلغ عددها ١٥٨ بورخاناً .

وعدا ذلك توجد أنواع من الأدعية كتبت بالخط المغولى . بعضها لمنع الأطفال عن البكاء ، والبعض الآخر للوقاية من الأمراض ، وبعضها للحفظ من الحسد . وهذه الخطوط أجيد صنعها ، وتوجد رسائل تقدير من قبل أربابها ، وكلها بالخط المغولى .

١ – المقصود طفلاه وزوجته (المترجمة) .
٢ – انظر حاشية ص ٢٠١
٣ – راجع حاشية ص ١٤٩

وسوف أسجل هنا بعضا من الأشياء التى لفتت اهتمامى :

شجرة واحدة على جذعها صور مجسمة لأحد عشر إنسانا . والأغصان المتفرعة من نفس الجذع توجد عليها نفس الصور أيضا . وكلها فروع شجرة واحدة . وهذه الصور هى صور بوذا وتلاميذه على حد قول « حامبالاما » الرئيس الثانى للمذهب البوذى . وهى توجد مع موازين صيدلية بوراتية[1] . والختم الذى صنع منذ ٢١٢ عاما يدل دلالة واضحة على وجود دار للبصمة فى منغوليا فى تلك الحقبة . ويوجد قارب واحد مصنوع من لحاء شجر الحور ، مجاديفه تذكر بقوارب استانبول تماما . إنها صناعة غريبة ، حيث كان القارب يستطيع أن يحمل ٥ أشخاص ، رغم أن وزنه يبلغ ٢٢ أقة تقريبا عدا مجاديفه . وقد تخلف هذا القارب عن تتار مينوسين حيث كان يستعمل بصفة خاصة فى نهرى ينيسى وإيربه .

وهذا المتحف يحتوى على آثار شرقية غاية فى الأهمية ، إلا أنه لم ينظم بعد ، رغم مرور ٢٥ عاما على افتتاحه .

مجلس الأمة العثمانى ومسلمو إيركوتسكى :

نقلت البرقيات الواردة من استانبول إلى إيركوتسكى مساء يوم الجمعة الموافق للخامس من ديسمبر ١٩٠٨ م خبر افتتاح مجلس الأمة العثمانى (٢) . فتجمع عموم المسلمين فى إيركوتسكى فى إحدى الساحات مساء ذلك اليوم . وقاموا بعقد اجتماع موسع تبادلوا فيه الخطب معبرين عن سرورهم وفرحتهم ، وتعالت الدعوات . وأراد المجتمعون أن يبلغوا تبريكاتهم وتهانيهم عن طريق إرسال برقيات إلى مجلس الأمة . إلا أن هذه الأمانى الطيبة التى تعبر عن الجدية والتصميم قوبلت بالاستنكار من قبل المسئولين الذين يسيطرون على مكتب البرق ظلما وعدوانا . وعلى كل حال اشترك مسلمو إيركوتسكى مع إخوانهم المسلمين فى استانبول الذين ينعمون بأعياد الحرية الدائمة ، وذلك عن طريق

١ – راجع حاشية ص ١٥٥

٢ – افتتح مجلس الأمة العثمانى رسميا يوم ٤ ديسمبر ١٩٠٨ م

(Türikige Gazetesi : yeni Rehber Ansiklopedisi cilt 11,S.312 Istanbul 1993

لتوضيح ذلك راجع حاشية ص ٩١

توجيه عواطفهم وأحاسيسهم نحوهم وهم يئنون بأنين مكتوم .

والشيء الذى يستوجب الشكر حقيقة هو أن السعادة بالحرية التى غمرت قلوب إخواننا المسلمين العثمانيين جميعا فى الصباح ، ظهر صداها مساء فى قلوب مسلمى إيركوتسكى . وكأن برقيات لاسلكية ربطت قلوبهم بعضها ببعض . لو أستطيع أن أدون مدى الفرح والسرور الذى شاهدته لدى مسلمى إيركوتسكى فى ذلك اليوم ، لما كانت هذه الصفحات كافية ! .. إلا أننى أكتفى بهذا القدر من الملاحظات التى سقتها عن سياحة سيبيريا ومجلس الأمة العثمانى .

* *

بعد أن أقمت فى إيركوتسكى أحد عشر يوما ، توجهت إلى بلدة « ويرحنه أودين » .

ورغم أن سفرى هذا قد تم من حول بحيرة بايقال ، إلا أننى لم أستطع أن أرى شيئا سوى ظلمات الليل . وعندما وصلت إلى محطة السكك الحديدية كنت أحس بأننى أمر من أنفاق موحشة . ولم يكن لنا نصيب أن نرى تلك المناظر الجميلة التى تحيط ببحيرة بايقال .

داثان (الصومعة)
تفاصيل عن مذاهب بوذا ولاما وشامان

عندما وصلت إلى بلدة « ويرحنه أودين » ، وبعد أن قابلت بعض الأشخاص مقابلات سريعة ، فكرت فى زيارة الرئيس الثانى للمذهب البوذى « حامبالاما » الشهير الذى يقيم فى « داثان » أى الصومعة التى تقع عند « قازلر تبعد من ٧٠ – ٨٠ كيلوا مترا عن البلدة المذكورة . فركبت العجلة الخاصة بالثلوج ، وتوجهت إلى الصومعة .

يبدو أن رؤساء المذهب البوذى(١) اثنان فى الأصل ، أحدهما هو : « الدالاى لاما » الشهير الذى كان يعيش ويقيم فى التبت على الدوام . أما الثانى ، فهو : « حامبا لامبا » الذى ينسب أيضا إلى قوم البورات فى منغوليا ويعيش فى الصومعة . وفضلا عن هذين الرئيسين عرف البوذيون إلها أيضا يسمى « حوتوتو » يقيم فى مغارة بالقرب من « أورغة » داخل بلاد الصين ، ويقولون له « الإله الحى » .

١ – البوذية : ديانة أسسها زعيم هندى أطلق عليه لقب « بوذا » واسمه الأصلى « سيد هارتا » فى الشمال الشرقي للهند فى القرن السادس قبل الميلاد .

تقوم فلسفة هذه الديانة ومبادئها على تنظيم الأحاسيس الدينية وتربيتها والنزاهة الأخلاقية والمساواة بين البشر ، وحب الناس وسائر المخلوقات والتحلى بالشفقة والمرحمة . ويوصف هذا المذهب بأنه دين بالنظر إلى نصوصه المقدسة وأصول الاعتقاد فيه وأنصاره ومعابده وخصائصه الأخرى فضلا عن الخصائص التى تقوم عليها أصول هذا المذهب ، بالإضافة إلى سرعة انتشاره .

وهذه الديانة تنتشر حاليا فى مساحة واسعة من آسيا فتوجد فى الهند والصين ومنشوريا ومنغوليا وسيلان وتايلاند وبورما وكامبوديا ولاوس وشرق البنغال وفيتنام وبوتان Bhutan وبرمانيا Birmanya وسنغافورة وماليزيا وتايوان وكوريا واليابان ، وتضم عددا كبيرا جدا من السكان .

وفضلا عن ذلك اكتسب المذهب الجديد الذى تفرع عن البوذية والذى يقال له « البوذية الزنية » Zen Bdudism ' أنصارا فى بعض دول دول أوربا . وهوالمذهب الذى يؤمن بأن المرء فى مقدوره أن ينفذ إلى طبيعة الحقيقة عن طريق التأمل . وهو مذهب نشأ فى اليابان أصلا (المترجمة)

(دائرة المعارف الإسلامية الخاصة بالديانة فى تركيا ، م ٦ ص ٣٥٢)

(Türkiye Gazatesi : Dini Sözlük, S. 96)

هذا هو الشخص الذى ألاقيه هذه المرة ، إنه حامبالاما الذى ينحدر من قبيلة البورات هذه ، ويكتسب أكبر شهرة وأكبر أهمية فى منغوليا ويقيم فى الصومعة التى تحدثت عنها . وقبل أن أذهب إلى هناك ، أخذت بعض المعلومات المختصرة عنه وفهمت إلى حد ما ماذا يكون ذلك الرجل .

وفى العاشر من ديسمبر سنة ١٩٠٨م ذهبت إلى هذه الصومعة فى الصباح الباكر . كيف أعرِّف القارئين الكرام بهذا المكان . إن أقل صومعة ، فلا أعتقد أننى أوضحت المقصود . وإن أقل ديرا ، فلربما جاز هذا القول . من الضرورى أن أقدم بعض المعلومات عن معتقد اللاما فى المذهب البوذى لتعريف هذا المكان أصلا .

عقائد المنتسبين إلى مذهب اللاما :

إن البشر جميعا مستغرقون فى الذنوب والآثام مبتلون بهما . وكل حركات الإنسان وسكناته ذنوب وآثام ، لأنه خلق من الذنوب ، حيث ظهر إلى الوجود من العلاقة الطبيعية بين الرجل والمرأة ومدام الأمر كذلك . فماذا ينبغى على الإنسان أن يفعله لكى يتخلص من هذه الذنوب ؟ عليه أن يفرق بين الذكور والإناث ولا يختلط أبدا . عليه أن يعيش منفردا ، ولا أقل من أن يتخلص بعض الناس من هذه الذنوب ، ويقوم البعض الآخر بالشفاعة .

هذا هو المكان الذى يقال عنه « داثان » أو الصومعة ، وهو عبارة عن قرية بنيت على التفريق بين الذكور والإناث استنادا إلى هذا المعتقد . فلا يمكن أن يوجد فى هذه القرية من الأشخاص عدا الذكور ، حتى أن الديوك توجد دون الدجاج . ويقال لسكان هذه القرية « اللاما » . ويقال لكبيرهم الذى جئنا للقائه « حامبا لاما » .

الصومعة والتشريفات وحامبالاما :

الصومعة هنا عبارة عن قرية غاية فى النظام ، بمعنى أنها بنيت على خطة . فالشوارع مستقيمة . وكل منزل عبارة عن غرفة ذات طابق صغير جدا . والقباب المربعة التى تنتظم فى صفوف مزدانة بالتذهيب الجميل البراق . والمعتقد أنه يوجد ٢٥٠ منزلا أو ٣٠٠ منزلٍ . ولك أن تتصور أنه لايوجد هناك امرأة واحدة .

عندما وصلت إلى هناك دخلت . قسما معداً لاستقبال الضيوف بادىء ذى بدء . وبعد أن استرحت قليلا ، أحيط حامبالاما علما بقدومى ، فأرسل إلى على الفور « لاما » من التشريفات الخاصة للترحيب بمقدمى .

كان رجال اللاما جميعا يلبسون زيا طويلا أصفر اللون . وأثناء المراسم كانوا يلبسون حول الوسط حزاما أحمر اللون يمر طرف منه من أعلى الكتف وكأنه قيطان من الحرير .

دخلت إلى حامبالاما مع رجل التشريفات الخاص بعد نصف ساعة ، فوجدت شقة حامبالاما شقة كبيرة ، عبارة عن غرف صغيرة جدا ، إلا أنها نظيفة للغاية . وعندما دخلنا من الباب الخارجى ، وجدنا حامبالاما فى انتظارنا عند الباب الداخلى . فتقدم نحوى خطوة أو خطوتين ثم بادرنى باللغة الروسية قائلا : مرحبا بكم تفضلوا . اقتربت منه وصافحته . فأمسك بيدى وقادنى إلى الداخل فدخلنا سويا من الباب الداخلى .

كان حامبا لاما متوسط القامة مستدير الوجه تبدو عليه ملامح الفطنة . وبعد أن دخلنا داخل المنزل أشار إلىّ بالجلوس . وأبدى الفرح والسرور بترحيبه بى مرة أخرى . إنه يتحدث الروسية بلسان طلق والحجرة التى يوجد فيها حامبا لاما عبارة عن منزل صغير ، يبدو فيه رجل أعزب هادىء الطبع لأول وهلة . أما عن المفروشات فهى عبارة عن فراش وحقيبتى سفر وتليفون ، والعديد من « البورخان » أى تماثيل الإله المعبود . ولاشىء غير ذلك .

حامبا لاما وضيافتنا :

أنا : مقصدى الأصلى هو زيارتكم لكى أتعرف عليكم وأستفيد من لقائكم .

حامبا لاما : ممنون للغاية . سمعت عنكم عندما كنت فى بطرسبورج ، لكن لم يكن من نصيبى لقاؤكم . وأنا ممنون للغاية لاهتمامكم هذه المرة .

أنا : إننى أفكر فى الاستفادة منكم قبل أى شىء آخر . سأعرض عليكم الموضوعات ، ثم أستمع إليكم بكل احترام .

حامبالاما : تفضل ، أنا على أتم استعداد .

أنا : أرجو منكم أولا أن تخبرونى عن عقيدة مذهب اللاما . ماهو اعتقاد اللاما ؟ ماهى الألوهية فى اللاما ؟ ماهى النبوة ؟ ماهى العبادة ؟ ماهو مذهب اللاما ؟ ماهى الشامانية ؟ ثم أرجو منكم فى النهاية أن تعطونى بعض المعلومات عن التركيب الاجتماعى والحياة السياسية ومستقبل أقوام البورات .

ولكى أرفع الكلفة فى الحوار ، بدأت فى تقديم بعض المعلومات عن سيرتى الذاتية ، قائلا : أنا تترى من ولاية « توبولق » . تعلمت فترة فى استانبول وفى ديار العرب . وعملت فى المحكمة الشرعية فى أورنبوغ فترة من الزمن . وفى النهاية كنت أسكن فى بطرسبورج وأنشر جريدة . إلا أن الحكومة أغلقتها ، فقررت أن أخرج للسياحة .

حامبا لاما : لا تشغل البال . سوف أتحدث معك بصراحة وبدون تكلف ، لأن الذين هم من أصل غير روسى فى روسيا يمكن أن يتوحد فكرهم مع بعضهم البعض دائما ، لأن معاناتهم واحدة . وأنا مطمئن تمام الاطمئنان لأننى أعرفكم . تشعب المذهب البوذى (١) الأصلى كثيرا جدا ، وخرج أغلبه عن البوذية . لاوجود لله عندنا . والجهلاء الذين يعتقدون فى وجود الله صنعوا له « بورخانات » أى تماثيل مجسمة . وبعضهم صنع تماثيل للبوذيين أو لكبار الرجال الذين أدوا خدمات جليلة للمذهب البوذى .

وفى البوذية ١٠١ كتابا كتب بالخط المغولى أصلا .

سأوضح ذلك على حدة : إن الكلام الذى أريد أن أقوله لكم بادىء ذى بدء هو أننى سأتحدث معكم بصفتى عالم بوذى . ثم إننى من جهتى سأعرض عليكم اعتقادى أنا على حدة .

١ – راجع حاشية ص ٢٠١

العقائد :

كل أنواع الكائنات حسبما يقول حامبالاما تعود إلى موجدها وحده فى المذهب البوذى . وموجدها هو معبودها .

نحن أناس ظهورنا يعزى إلى هذه الكائنات . والعلاقة الطبيعية التى تحدث بين مانعبر عنه باسم الزوجين أو مانقول عنه اليوم الأب والأم هى موجدنا وهى معبودنا . ومن أجل هذا الاعتقاد فإن معبدنا تقدس فيه جميع التماثيل التى تمثل جميع أنواع العلاقة المجسمة فى القسم الباطنى من المعبد .

معابدنا

كلها تنقسم إلى قسمين اثنين : قسم داخلى لايجوز أن يدخله من لاينتسب إلى مذهب بوذا . والقسم الآخر ظاهرى يمكن أن يدخله كل الناس ويشاهده كل الخلق . أساس الأشياء الى يجب الاعتقاد فيها هى صورة الإنسان . كان طول قامة ذلك الإنسان ٨٠ ذراعا عندما كان خاليا من الذنوب فى أول الأمر . وفى ذلك الوقت كان أولئك الناس مقدسين ولما ابتلى الإنسان بالمعاصى فى زمن ما ، بدأت قامته تقصر دهرا بعد دهر كلما زادت الذنوب ، ثم وصل به الحال إلى الوضع الراهن ، وتدنى إلى هذا المستوى . وقامة الإنسان تعتبر ميزانا للعدالة . (فى معابدهم رسوم لرجال تبلغ قامة الواحد منهم ٨٠ ذراعا) .

الالوهية :

لا توجد ألوهية فى المذهب البوذى ، ولاتوجد نبوة . إلا أن المعلمين جاء وا هنا لتعليم الناس وتربيتهم إنهم البوذا . وقد جاء حتى الان أربعة من البوذا ، هم : شاه يامونى وعاثياب وغانغه نوى وغاغاسوندى . وسوف يظهر ٩٩٦ بوذا الباقون فى المستقبل .

العبادات :

وإذا انتقلنا إلى العبادات عندنا ، نجد أن الفكر يعتبر أصل العبادة الكبرى . وإذا لان القلب أثناء التفكير ، يكون الوقت مناسبا لبدء التلاوة . وأثناء التلاوة تدق الأجراس (خونخو) بعض الوقت ، فتستدعى الأرواح . وكلما حلت الارواح

تنثر الحبوب ذات اليمين وذات الشمال صدقة .

(ثم نهض من مكانه واقفا ، وقال : إذا أردت فإننى أخبرك عن مراسم العبادة عندنا . ثم لف نفسه برداء أصفر وجلس مرة أخرى وفى يده اليمنى مسبحة . وأخذ في يده اليسرى جرسا ، ثم بدأ يتلو بلغة مغولية مثل تلاوة حفاظنا السريعة وكان يدق الجرس أحيانا ، ثم ينثر بعض حبات القمح الموجودة فى الطبق المجاور له . وقد استمرت التلاوة خمس دقائق فقط) وقال : إن العبادة عندنا عبارة عن هذا الذى قلته لك . (وقد رأيت بعينى رأسى نفس هذه العبادة فى معابدهم) .

اللاما :

اللاما معناه التجرد . وعندما يختار الإنسان التجرد فى أى وقت ، يترك عائلته وينزوى فى زاوية لكى يمارس حياة التجرد ليس إلا . وفى هذه الحالة يقال عنه « اللاما » .

علما بأن الدخول فى مرحلة اللاما يعتبر بداية للسلوك وليس للمذهب .

الشامان :

تختلف الشامانية[١] عن مذهب بوذا . ورغم وجود دعوى البوذية عند الشامانية ، إلا أن الشامانيين ليسوا بوذيين ، لأنهم يقدمون القرابين من أجل العفو عن ذنوبهم . يطرحون القربان أرضا ثم يوثقون أرجله ويجرونه فى كل ناحية . وهكذا فإن من يوثق القربان ، يعفى عن ذنوبه ويصبح شامانا . يجرحون قلب الحيوان ويطعنون أرجله الأمامية ويكبسون على صدره . وهكذا ينفق الحيوان بهذه الصورة . ورغم ذلك يتسبب في العفو عن الذنوب . أما والحالة هذه فإن قتل

١ - راجع حاشية ص ١٤٩

كل ذى روح غير جائز بأى حال من الأحوال فى المذهب البوذى . فكيف يصبح الشامانيون بوذيين بهذه الطريقة ؟! ورغم ذلك فإنهم موجودن فى دعوى بوذا[1] .

الهيئة الاجتماعية :

إذا انتقلنا إلى التركيب الاجتماعى لأقوام البورات وحياتهم السياسية ، وجدنا شيئا عجبا . لقد تسلط الروس الأجانب اليوم على مدينتنا وعلى حياتنا السياسية . أموالنا وأرواحنا ودِيننا فى أيدى الروس جميعا . لقد محوا وجودنا تماما . الأفراد عندنا ينقرضون من يوم إلى يوم . وأمتنا محكوم عليها بالموت . نحن ننقرض بسرعة فائقة نسبيا . وإذا لم يصل إلينا إمداد معنوى ، فإننا سننتهى .

لسنا وحدنا فى هذا المجال ، فالذين هم من غير العنصر الروسى فى روسيا أحوالهم وخيمة (مترديه) ، إلا أننا أقل منهم . ولا شك أن الغدر سيصيبنا أكثر بسبب شدة ضعفنا .

حامبالاما :

أنا الآن حامبالاما . وهناك شخصان اثنان يتحكمان فى المسائل الروحية والجسمانية فى مذهب بوذا : أحدهما هو « الدالاى لاما » الذى يعيش فى التبت . والآخر هو أنا حامبالاما . والثالث أو قل الأول هو « حوتوتو » ، وهو وكيل بوذا ، إلا أنه لايتدخل فى شىء قط سوى هذه الروحانيات ، ولهذا يقال له « حوتوتو » أى « الإله الحى » . وقد تجرد من الأوصاف البشرية تماما . (وإذا قيل عنه « فنى فى الله » ، كان وصفاً مناسباً) .

إذا تربى الإنسان وترقى ، فإنه يبلغ بنفسه هذه الحالة الأصلية . ولكى يربى الإنسان نفسه ، فعليه أن يتخذ من العقل دليلا لكى يكون خادما للفكر . وكلما ارتقت القوة الفكرية ، كلما بلغت التربية الإنسانية قدرا من الكمال .

١ – عرضنا صورة مراسم القرابين لدى الشامانيين ص ١٥٦ من الترجمة .

بداية الكمال تبدأ من درجة « التجرد » . والشخص الذى يصل إلى هذه المرحلة يقدم منفعة أخيه على منفعته . والدرجة الثانية هى درجة « الفداء » ، وهى الدرجة التى يقدم فيها الإنسان شخصه ونفسه فداء للمنفعة العامة . أما عن الدرجة الثالثة وهى درجة « الزهد » ، فالذين يصلون إليها لايشغلون أنفسهم بشىء قط من الماديات ، بل إنهم يعيشون فى عالم مختلف .

لابد من ممارسة التجرد بادىء ذى بدء من أجل سلوك هذا المسلك . أما عنا فقد بلغنا مرحلة التجرد الآن . وعلى الإنسان أن يتجرد من الأوصاف التى تعوق التفكير لكى يتمكن من استعمال قوة فكره ، لأن هذه الأوصاف تولد الذنوب . ومعنى ذلك التجرد من المعبود .

الذنوب التى تؤثر على قامة الإنسان فى مذهب بوذا ، هى الزنا والقتال وقتل كل ذى روح والاعتداء على حقوق الآخرين من الناس والكذب واستغلال الأشياء التى تعوق العمل . وكلها من الكبائر ، والظلم يعتبر من الكبائر أيضا . يقضى الإنسان كثيرا من أنواع الحياة من أجل حياته . إلا أن وراء هذه الحياة حياة أخرى ، وينبغى عليه تداركها ، وحياتنا التى نمارسها هنا هى من أجل هذه الحياة أصلا .

الموت :

معنى الموت أن الإنسان قدم نفسه قربانا لسائر المخلوقات ،. ولهذا تتجرد الروح من الجسد ، ليصب الجسد هبة وقربانا لكل المخلوقات . وهكذا يتحقق حق سائر المخلوقات كما يتحقق حق الإنسان فى هذا الجسم ، ولهذا السبب لاينبغى أن يكون هناك مانع أمام أىّ انسان أو أى مخلوق من أن ينال حقه . وهكذا يخرج جسد الإنسان الخالى من الروح من بيننا ويلقى فى غابة فى صحراء أو فى أى مكان منعزل باختصار . وهذا أولى من دفنه تحت التراب أو حرقه بالنار على حد ظنى .

لا مبدأ ولا منتهى للدنيا : إلا أنه من المؤكد أن وراء هذه الحياة حياة أخرى لكل البشر .

* * *

استرعى انتباهى واهتمامى وقار ذلك الرجل حاميا لاما أثناء حديثه ومهارته فى اللغة الروسية . لقد كان يتحدث بتؤدة .

أكرر أننى استفدت من معرفتى به وأصبحت محظوظا . لقد تحدث معنا وكأنه أخ شقيق . وفضلا عن ذلك تمنى لو توحد فكرنا فى التوحيد . إننى على وشك أن أقول عنه أنه موحد . أما عن قصده من أن الله غير موجود ، فإنه يقصد أنه غير موجود وغير مدرك فى الخارج (فى الظاهر) . لقد كان هذا المعنى مراده .

كتاب البوذيين المقدس وسيدنا محمد :

للبوذيين ١٠١ مجلدا كما قال حاميا لاما . ولبوذا كتاب مقدس دون فيه عقيدته . وفى هذه الأثناء مد يده إلى سماعة التليفون ، وقال شيئا . ثم قال : الآن سأحضر لك نسخة من كتابنا المقدس . وبينما يقول ذلك إذ برجل يدخل وفى يده صندوق مستطيل من الخشب . ثم أعطانى الصندوق فى يدى . وعندما فتح من الوسط ، ظهرت الصحف الموجودة فيه وهى بالخط المغولى وتقرأ من أعلى إلى أسفل . وفى كل صحيفة سبعة أسطر ، وفى الصحفة المقابلة لاتوجد كتابة .

ثم قال حاميا لاما : يوجد فى كتابنا اسم محمد أيضا . وعندما سمعت هذا الكلام اعترانى الفرح والسرور ، فقمت من مكانى على التو احتراما لهذا الكتاب الذى ذكر فيه اسم سيدنا محمد الطاهر .

حاميا لاما : لا أستطيع أن أنكر نبوة محمد . وسأعرض أفكارى عليكم فى هذا الخصوص .. ثم أنتقل إلى مسألة التوحيد ، وقد كان الاحتياج إلى فهم فنية اللغة سببا فى غموض المراد إلى حد ما فى هذه المسألة الهامة خاصة .

تأثير التبشير على عالم بوذا :

وأثناء حديث حامبالاما انتقل إلى مسألة المبشرين . فقلت له : أرجو أن تبين لنا مدى تأثير المبشرين .

فقال : اعتنق المسيحية كثير جدا من البورات فى أزمان مختلفة . إلا أن كثيرا منهم أظهر الندم فيما بعد . وبفضل الحريات الأخيرة عاد منهم ٧٠٠٠ إلى رشدهم . ولم يتنصر أحد من الذين يعرفون حقيقة المذهب . وليس هناك احتمال لتنصر أحد أيضا . إلا أن بعض الجهلاء يتنصرون من أجل النقود ، وبعض الشباب يتنصرون من أجل الفتيات الروس ، والبعض الآخر يتنصر تحاشيا للصدام مع الحكومة . وأهمية هؤلاء تكمن فى نسبتهم المحتملة .

وأثناء الحديث مع حامبالاما دخل الخادم وأسر إليه ببعض الكلمات . فنظر إلىّ وقال : جاءنا ضيف سخيف . وأرجو أن تأذن لى لمدة ساعة . لقد كنت أبحث منذ قليل فى حيلة لدفعه . كم من الوقت نظل تحت المراقبة ؟! ...

مشاهداتى فى الصوامع :

قررت أن أتجول فى الصوامع . فقلت لحمبالاما : لو أمرت لى بمترجم ، لكنت لك من الشاكرين . قمت بالتجول فى الصوامع ومعى المترجم . وصلنا إلى أكبر صومعة فى البداية . فصاح المنادون ، قائلين : حل بنا زائر ، وهم يطلقون الصفارات . وهكذا قابلونا بنغم خاص .

توجد فى هذا المكان صورة بوذا ضخم يبلغ طوله ٨٠ ذراعا . وتشاهد مثل هذه الصورة المجسمة فى معابدهم تمشيا مع معتقداتهم كما ذكرنا سابقا . وإذا كان هناك شىء يستحق التقدير فى هذه الصور صراحة ، فهو الفن المعمارى الكامن فيها ، الذى يحير الألباب إلى أقصى درجة ، بسبب دقة الصنع والمهارة الفائقة . إننى أرى قيمة أخرى فى هذه الصوامع تتلخص فى الجمال الفائق لأماكن العبادة الموجودة فى هذه الصومعة الكبيرة خاصة . وليس من كثرة عدد الصور فقط ، بل من النظافة الفائقة أيضا فى داخل الصوامع . أما ما ينبغى الوقوف عنده والتدقيق فيه فهو مدى ما أنفق من نقود فى سبيل هذه الديانة . لقد أنشئت معابد كثيرة جدا فى هذا المكان الذى يمكن أن يسمى قرية صغيرة إلى

حد ما ، والتى يبلغ مجموعها ١٥ قرية على أقل تقدير . إلا أن القسم الأعظم منها معابد . إنها ليست أماكن للعبادة . إلا أن هذه المعابد تقدس وكأنها مزارات . وهكذا يتجسد فى هذه المعابد المعتقد الأساسى لمذهب بوذا أصلا . وقد رسمت كثير من المعابد على هيئة أماكن للفحش عادة . وكل هذه الصور الشنيعة المجسمة يجرى تقديسها ، وتزار جميعها على الدوام . إلا أنهم هذه المرة لم يطلعونى عليها ، بحجة أن المفتاح غير موجود . وقد أحسست بالسبب الذى دفعهم إلى عدم إطلاعى عليها .

* * *

وبعد أن تجولت فى الصوامع لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات ، عدت إلى غرفة الضيوف ، ثم شربت الشاى . وبعد أن استرحت بعض الوقت ، جاءنى رجل التشريفات ، وقال لى : إذا أردتم مقابلة حامبالاما ، فهو فى انتظاركم .

ذهبت إلى حامبالاما مرة أخرى ، وبادرت بسؤاله : هل انصرف ضيفكم ؟ قال : متى يخلصنا الله من مثل هؤلاء الضيوف ؟ ! إن انهيار الحكومة الروسية قريب بسبب هذه التحركات (المشبوهة) .

- أواه ! هل هو ضيف عزيز إلى هذه الدرجة ذلك الضيف الذى زاركم ؟!

- إذا جاء إلى صوامعنا ضيف من الخارج ، فليأت . لقد شكوا[1] فى مجيئكم إلينا . عرف الضيف اسمكم منا ، ثم سأل قائلا : لماذا يجىء هذا الرجل إليكم ؟ وما هى المناسبة التى جعلته يجىء إلى هنا ؟

هذا مرض عند هؤلاء الروس الذين وضعوا البلاد كلها تحت مراقبتهم عقب حربهم مع اليابان .

إخفاء البوذيين لعباداتهم :

تجولت فى الصوامع وتفرجت ، وكنت محظوظا جدا . إلا أنه لم يمكن

١ - يقصد الروس (المترجمة) .

اطلاعى على الطقوس الروحانية للبوذيين . توجد فى الصوامع آثار غاية فى النفاسة ، وتوجد تماثيل غاية فى الفن . إلا أن المترجم المصاحب لنا لم يطلعنا على بعض الصوامع[1] . قال أحد الناس المفتاح غير موجود . فقلت : أرجو منكم أن تطلعونى على كل شىء .

– فقال : يوجد قسم لا يمكن أن نطلع عليه أحدا من الناس مالم يكن بوذيا حسبما ينص مذهبنا ، هو هذا المكان .

– فقلت : من المحتمل أنكم لاتطلعون عليه أحدا من الأعداء . أما أنا فلا أحس بعداوة نحو المذهب البوذى . وأنظر إلى كل شىء بعين الاحترام .

– قال : لايمكننا أن نطلع عليه الأجانب بعامة ، لئلا تكون طقوسنا المذهبية هدفا للاحتقار .

– قلت : ثقوا بى . لم أفكر للحظة فى يوم من الأيام فى احتقار ديانة أحد . ولا أحتقر ديانة أحد . فإذا لم أعجب بشىء سكت عنه .

– أرجو المعذرة حيث لايمكننى أن أريك إياه .

– إذا كان هذا ماتقتضيه ديانتكم فلا تعليق لدى . أما إذا كان الرفض لوهم ، فأرجو منكم مساعدتى .

– تسطيع أن تشاهد إن أردت ، ولكنى أرجوك ألا تبدى أى تحقير .

– ثق بى ، فالإسلام لا يوافق على شىء من مثل هذا فى أى وقت من الأوقات مطلقا . ومبدؤنا فى الإسلام « لكم دينكم ولى دين[2] » ..

طوفان نوح :

وعلى أى ماتكون المسألة فقد وصلنا إلى طوفان نوح . وقد قال لنا حامبالاما أفكارا غاية فى الغرابة : « إن ينكر أحد طوفان نوح فى الأصل ، فهذا معناه إسناد العجز بالله ، وهو مالا يجوز أصلا . ومادام لايجوز إسناد العجز به ، فلا

١ – يقولون عن الصوامع الصغيرة والمعابد (صومعه) . وياترى هل توجد علاقة بين هذه الكلمة والكلمة التى يقال لها صومعة الزهاد فى كتب المواعظ لدينا ، أم لا ؟ ! (المؤلف) ١ – الآية رقم ٦ من سورة الكافرين .

٢ – الآية رقم ٦ من سورة الكافرين .

يجـوز إسناد الظلم به أيضـا . لايمكن أن تكون هناك عـلاقـة بين الصـينيين والمشركين الذين استحقوا العقاب على أرض مصر .

وإذا كان الطوفان قد وقع ، لكان قد وقع فى تلك الأماكن » .

– هذا كلام طيب ، ولكن هل توجد لديكم أدلة أخرى على عدم حدوث الطوفان ؟!

– لايمكن الحصول على دليل قوى من التاريخ لمثل هذه الوقائع .

لاتوجد كلمة تتعلق بالطوفان فى تاريخ الصين والمغول لدينا ، رغم أن تاريخنا مثبت ومؤكد منذ ٤٠٠٠ سنة أو ٦٠٠٠ سنة .

إذا كـانت قد وقعـت واقعة مـهمة كـهذه ، فـهل من المعقول أن تـغفل ؟[1] !

عقيدة حامبا لاما الخاصة :

سأعرض عليكم الآن فكرى الخاص وعقيدتى الخاصة :

سأتحدث معكم بصفتى مغولى أو بوراتى وليس بصفتى حامبالاما .

أنا صـاحب عقيدة خـاصة . واعتقـادى ينصب على أن وجـود قوة مـدبرة ومـرب خـالق لهذه الكائنات أمـر يتـفق مع العقل . وتسـتطيع أن تطلق على هذه القوة أى اسم تشاء . فإن شئت فقل إنها الطبيعة وإن شئت فقل إنها الله ، فـهو

١ – قصـة نوح تعتبر ضمن القصص التى وردت فى الديانات السماوية كقصة آدم مـثلا . والنص القرآنى يقول : وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قـد آمن فلا تبـتئس بما كـانوا يفـعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني فى الذين ظلموا إنهم مـغرقون . ويصنـع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسـخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم . حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل . وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم . وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولاتكن مع الكافرين . قال سآوى إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين .
(الآيات رقم ٣٦ – ٤٤ من سورة هود) .

واحد . والعقل السليم يكفى لإثبات وجوده . وأعتقد أن الطبع السليم لايمكن أن ينكره . وفضلا عن ذلك فإن الطبيعة البشرية تحتاج إلى معبود قطعا . وسعينا وراء اتخاذ إله لنا من قطع الأشجار لدينا ، تصرف طبيعى .

أما احتياج الأقوام إلى نبى ورسول فهو أمر مشكوك فيه إلى حد ما فى نظرى . دعنا نقول إنه احتياج طبيعى . إلا أن هذه الحاجة لازمة لطرف من الكرة الأرضية ، فلماذا لاتكون هناك حاجة فى الطرف الآخر ؟! لم يظهر لدينا نبى فى منغوليا أو فى بلاد الصين . وليست لدينا كلمة تذكرنا باسم نبى فى تاريخنا .

– ألا توجد احتمالات لظهور نبى لدى البوذيين ياترى ؟ ! لقد ورد فى القرآن الكريم : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا[1] .» واستنادا إلى هذا النص الجليل ، فلابد أن يكون قد ظهر لديكم نبى .

– احتمال ظهور نبى لدى البوذيين احتمال بعيد المنال . أسلوب تعاليم التوراة والإنجيل والقرآن مختلف تماما عن أسلوب كتب بوذا . علما بأن القرآن الكريم به بعض القصص التى توجد فى التوراة والإنجيل ، مثل : قصة آدم ، وقصة نوح ، وقصص أخرى توجد فى أحدها كما توجد فى الأخرى . إلا أنه لاتوجد أى قصة من هذه القصص فى كتب بوذا .

– ربما حدث تحريف ، فامتداد الزمان كفيل بذلك . أنتم تقولون أن اسم سيدنا محمد ذكر فى كتاب بوذا ، وبناء على ذلك يمكننى أن أقول لكم أن هذه علاقة وصلة أيضا .

– الصينيون والمغول أمتان قديمتان جدا . ولا يوجد فى تواريخهما كلمة واحدة تتعلق بالأنبياء العظام ، وهو شىء غريب جدا .

لا أستطيع أن أرى علاقة بالنبوة فى أسماء زعماء البوذيين الذين ذكرت اسم أربعة منهم فيما سبق . واسم آخر بوذا سيظهر هو (موى به) .

١ – « من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » . (الآية رقم ١٥ من سورة الإسراء) .

منسوبو بوذا فى أوربا :

وبعد التباحث مع حامبالاما حول هذا المذهب ، بدأ الكلام عن رحلاته فى أوربا ، قائلا : عندما كنت فى فرنسا ، قابلت أناسا كثيرين من الفرنسيين ممن يعتنقون مذهب بوذا ، إلا أن ما استوجب دهشتى أنه لايوجد من بينهم شخص واحد يعرف شيئا عن هذا المذهب . وقد بادرتهم بالسؤال ، قائلا : لماذا اخترتم مذهب بوذا ؟ فقالوا : « أحيينا مذهب بوذا فى فرنسا لأن هذا المذهب غير موجود فيها . » ومن جانبى لا أستطيع أن أفسر هذا ، إلا أن يكون ضربا من الجرى وراء الموضة أثر على المذهب . ورغم ذلك حضرنا اجتماعاتهم ذات يوم . ومارسنا طقوس العبادة على المذهب البوذى ، فأعجبتهم كثيرا جدا . وشعرت أنا أيضا بفرحة غامرة طبعا .

هجوم المبشرين على بوذا :

ويضيف حامبالاما قائلا : ثم عدت من هامبورج عن طريق بلاد الهند ، فوصلت سيام . وقد التقيت فى كل مكان مررت به بأعيان كل أمة ورجال مذاهبها .



حامبالاما

ونتيجة للمعلومات التى حصلت عليها يمكننى أن أقول أن المبشرين يهاجمون البوذيين فى كل مكان بضراوة

– ألا يلتزم اليابانيون بحماية مذهب بوذا ياترى ؟

– لا معرفة لى باليابانيين ، إلا أن الأمم التى اختارت المدنية طريقا لها يمكن أن تلتزم بالمنحى السياسى لكى تقيم علاقاتها مع الدين . والآن أرجو منكم عندما تصلون بالسلامة حسب المقدر إلى اليابان ، أن ترسلوا إلى معلومات عنها فى هذا المجال . وستدخلون السعادة الغامرة علىّ بهذا الصنيع .

– سوف نتراسل بإذن الله . إلا أننى أفكر فى الاستفادة من أشياء أكثر منكم . والآن فلنسترح بعض الوقت بعد إستئذانكم ، وفى الصباح نعاود الصحبة .

– هذا المكان مهيأ للنوم إن أردتم ، وأنا وحيد هنا .

– فلأذهب إلى غرفة الضيافة ، فلى بعض المصالح هناك .

* * *

عدت إلى غرفة الضيوف ، وشغلت ببعض الأمور هناك . وفى الصباح الباكر جاءنى رجل التشريفات مرة أخرى ، وأخبرنى أن حامبالاما ينتظرنى . فشربت الشاى بسرعة ، وتوجهت إليه .

بادرنى حامبالاما ، قائلا : ورد بخاطرى ليلا ، وكنت سأسألكم . رأيت المسلمين فى بلدة مدراس بالهند يحرقون الموتى . فهل ياترى توجد فى الإسلام أيضا مسألة حرق الموتى ؟! لقد رأيت بنفسى المسلمين وقد تجمعوا وأخذوا يحرقون جثة .

– لابد أن هناك خطأ ما ، فالمسلمون لايفعلون ذلك أبدا .

– لقد تعجبت أنا أيضا ، لأنني أعرف أن هذا لايمكن أن يحدث ، فالإسلام لايمكن أن يجيز ذلك . إلا أنني رأيت هذا بعيني رأسي ، ولهذا أسألك . لقد رأيت بعض الكتب التي تتحدث عن الإسلام ، وأعرف أركان الإسلام أيضا . وإذا كان يرد بخاطري عدم جواز إحراق الموتى في الإسلام ، فكيف حدث هذا إذن ؟ ! إنني لم أستطع أن أتحقق من هذا الموضوع(١) .

الأراضي عند البورات :

بعد أن سألت عن بعض الأوضاع المتعلقة بحياة البورات ومعيشتهم ، سألت عن مسألة الأراضي . فأجاب حامبالاما بهذا الخصوص ، قائلا : لم يمكن حل هذه المسألة بصورة قطعية لدينا حتى الآن . وقد اعتاد البورات على الحياة الرغدة ، فضلا عن أن الأراضي واسعة على أي حال . ومن الخطأ الفادح مقارنة أراضي سيبيريا بالأراضي الموجودة داخل روسيا . لايمكن توزيع الأراضي في كل ولاية بموجب قرار واحد . إذا كان هناك رجل يملك ثلاثة أو خمسة أفدنة في نواحي القيرم بروسيا ، فإنه يستطيع أن يعول عائلته . أما في ولايتي قازان وأوفا فإذا لم يكن لدى كل إنسان ١٥ فدانا ، فإن قرويا واحدا لا يستطيع أن يعيش . وأما في سيبيريا عندنا وفي هذه النواحي ، فإن لم يوجد لدى الفرد ثلاثون فدانا ، لكان من الصعب عليه أن يعيش . والآن يعتبر تخصيص ١٥ فدانا لكل فرد من البورات بمثابة حكم عليه بالموت جوعا . ورغم ذلك فإن الحكومة الروسية اليوم تفكر في تقسيم الأراضي بهذه الصورة . وخلاصة القول أن الحكومة ستأخذ مايزيد على ١٥ فدانا من الأراضي التي نمتلكها وتعطيها للمهاجرين الذين ستجلبهم من داخل روسيا . إلا أن لنا أملاكا من

١ – عندما كنت في بكين سألت محمد حنيف أفندي الهندي عن هذا الموضوع ، أقر بأن هذا يحدث فعلا . وهذا الموضوع يحتاج إلي تصحيح بسيط : المجوس في مدراس لايدفنون أكثر فقرائهم من الموتى . والمسلمون هناك يحرقون جثث موتاهم على طريقة المذهب المجوسي . (المؤلف) .

الطابو[1] أبا عن جد . ولدينا الأوراق الكاملة التى تثبت ذلك . ومع ذلك فالحكومة لاتقبل بهذا . فما الحيلة ؟! إنها تستطيع أن تقول ما تريد . وسيوضع هذا القانون موضع التنفيذ فى عموم سيبريا فى حقيقة الأمر .

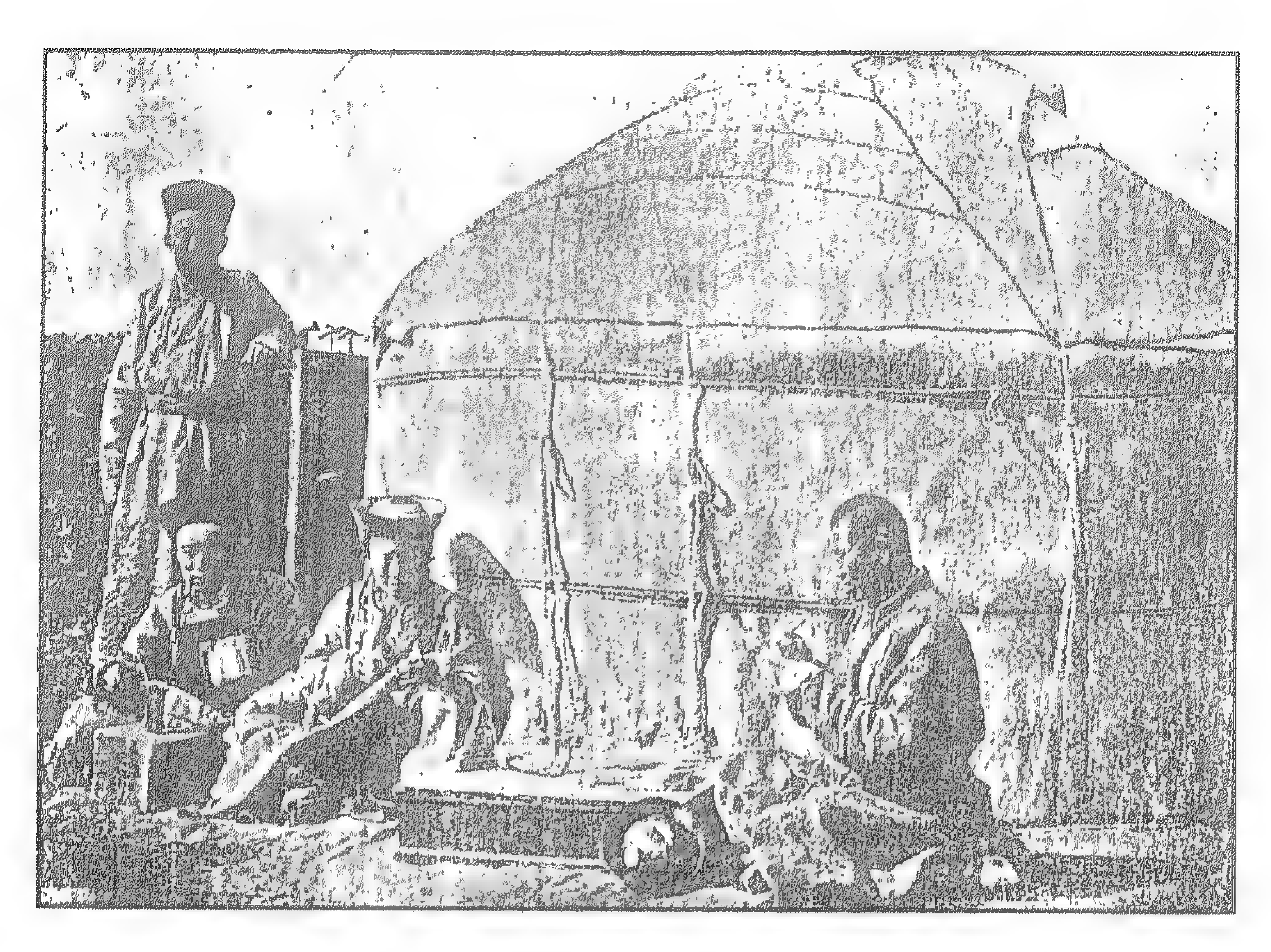
الحياة الأسرية لدى البورات :

كان البورات منذ القدم يعيشون حياة الترحال . وفى السنوات الأخيرة يرتحلون أيام الصيف . وفى أيام الشتاء يقيمون فى قرى الواحدة منها عبارة عن منزلين أو ثلاثة منازل بما يمكن أن يقال عنه (قوم) . منازل الشتاء تبنى من الأخشاب ، وكل واحد منها عبارة عن غرفة واحدة غير مزدانة من الداخل أو من الخارج . تسكنها عائلة واحدة مهما كان عدد أفرادها . القذارة بلغت الذرى . مالزوم الاستحمام ، وماهو الحمام ؟! إنهم لا يعرفون مالزوم النظافة ؟! إنها شىء لا خبر لديهم عنه ! إلا أنهم يحبون الضيف ويكرمون المسافر . إنهم يشبهون الشعب القازاقى الصحراوى من نواح متعددة ، وخاصة حياتهم فى الصيف التى تشبه جميع القازاق . وشكل منازل الصيف لديهم هى نفس شكل منازل القازاق تماما . وهنا أعرض صورة منازل الصيف لديهم .

١ – الطابو : كلمة تركية تأتى بمعنى الطاعة والانقياد وتستعمل فى مقابل عقد التصرف أو سند التصرف . وفى الآونة الأخيرة استعملت الكلمة بمعنى السند الذى يعطى فى مقابل حق التصرف على الإطلاق .

وكانت الكلمة تعنى فى القوانين العثمانية القديمة « الإيجارة المؤجلة » : وبعد تطبيق قانون الطابو بإعطاء سند من قبل الدولة باسم الطابو لإثبات حق التصرف فى الأراضى ، أصبح هذا شيئا جديدا . وقبل هذا لم تكن هناك ضرورة لإعطاء مثل هذا السند ، واكتفى بإعطاء ورقة تدل على عدم وجود علاقة للمالك القديم عند البيع والشراء ، وهى التى قيل عنها « سند المابين » . ولم يكن هناك إجبار على الاعتماد على سند عند البيع ، والذين كانوا يطلبونه كانوا يمنحون إياه .

وقبل استعمال مصطلح الطابو كان تعبيران مثل ملكنامة همايون » و« تمسك » يستعملان فى هذا المجال . وكان يطلق على « ملكنامه همايون » « تمليكنا مه همايون » أيضا وتعنى السند الذى يمنحه السلاطين لأى شخص كدليل على تملك أرض ما . أما « التمسك » فيطلق على التفويض الذى يمنح للمستحقين للأراضى الداخلة فى مجال التيمار والزعامة والخاص . (المترجمة) .
(Mehmet Zeki Pakalin, cilt 3 , S . 399)



صورة منازل البورات في الصيف

يتبع البورات فى أكثر أمورهم حكم مجلس ذوى اللحى البيضاء . وفى الأزمان القديمة كانت الجرائم تحل عن طريق الصلح أو عن طريق توقيع العقاب فى حضور ذوى اللحى البيض . وفى الدعاوى الكبرى كان المجلس يتكون من عدة رجال من ذوى اللحى البيض . أما فى الدعاوى والأعمال البسيطة فقد كان القرار القاطع يصدر عن رجلين أو ثلاثة رجال من هؤلاء . وسوف أعرض هنا صورة لذوى اللحى البيض .



(صورة أعيان البورات ذوى اللحىَ البيضاء)

وفى الوقت الحاضر يعين نوو اللحى البيض من قبل الحكومة ، بعد أن كان فى الأزمان القديمة يتم انتخابهم . ولايوجد شىء من الأمتعة المنزلية فى منزل أى بوراتى سوى بورخانان أو ثلاثة[١] . ويوجد ماء فى آنية صغيرة وكأنها فناجين القهوة إلى جوار البورخان . وهذا الماء يوجد فى المعابد أيضا لأنه يقدم طواعية باسم البورخان . ويشترط أن تكون الصدقة طوعية لكى تكون مقبولة أما الماء فإنه يقدم فى كل مكان ولا يعتبر منة من أحد على أى حال . وهذا من قبيل المعتقدات فى هذا المذهب .

ولدى البورات حيوانات كثيرة . وفى منغوليا عموما حيوانات كثيرة جدا ، منها أنواع ممتازة للتربية . وهناك روابط وثيقة مع القازاق فى هذا المجال .

وإذا كان هناك فرق بين الشعبين البوراتى والقازاقى ، فهو أن القازاق يصنعون من لبن الفرس القميز[٢] . أما البورات فيصنعون الخمور المسماة « راقى » مباشرة ، إما من كل نوع من أنواع اللبن وإما من لبن البقر أو ألبان الأغنام . وقد كانت خمور هذه الألبان قوية جدا . وطبقا لما يعتقده حامبلاما « فإن إكثار البورات من تعاطى الكحول يعتبر سببا فى انقراض نسلهم . كان استعمال المسكرات قديما يرتبط بوقت معين فى أحد مواسم السنة . أما الآن فإنهم يتعاطون الكحول صيفا وشتاء دون توقف. وقد سبب هذا لهم انغماسا فى السكر لا ينقطع . ولهذا السبب تأثرت ذريتهم . وأصبحنا نشرف على الانقراض بسرعة فائقة » .

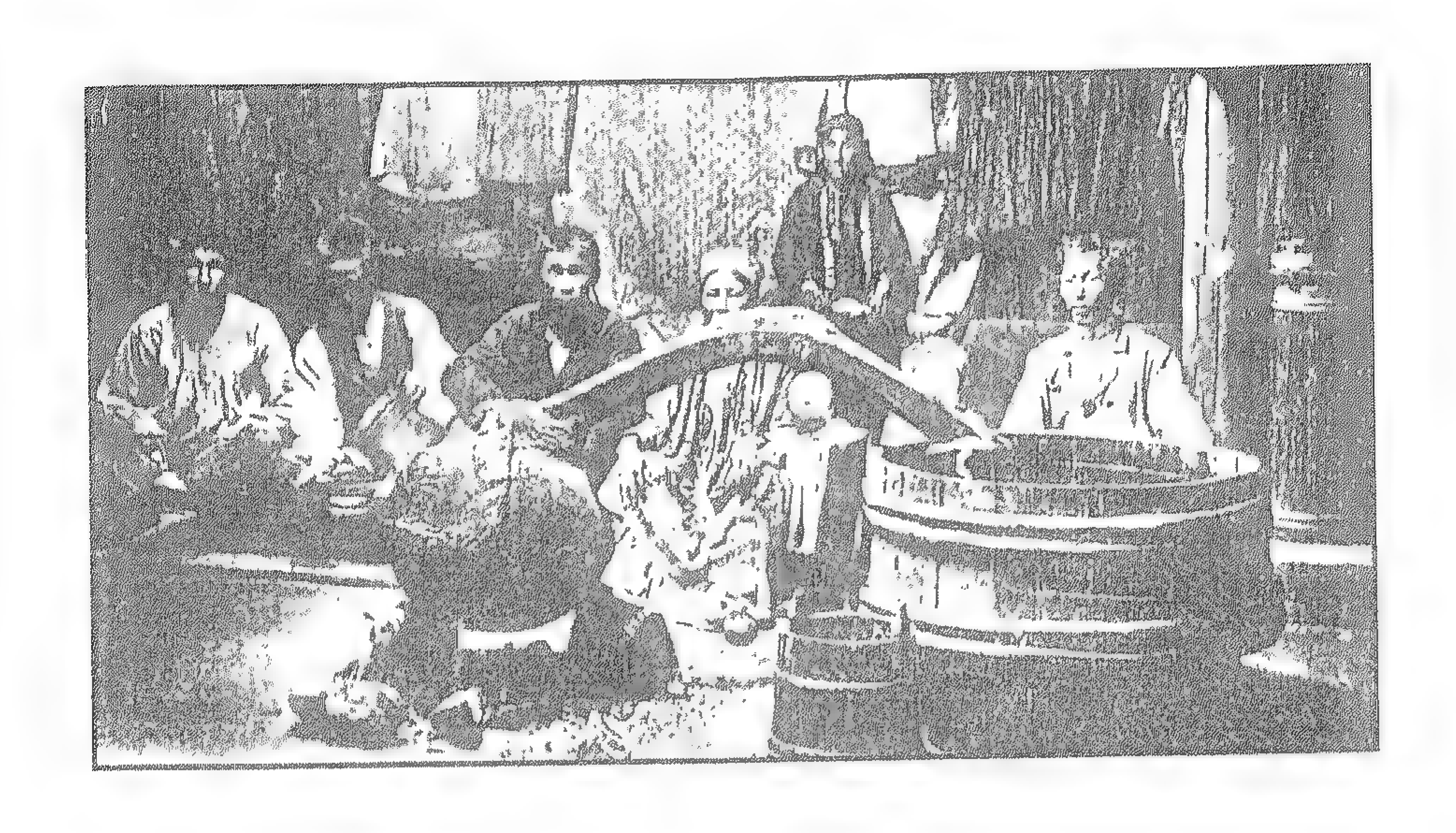
– هذا احتمال وارد . وللتأكيد على كلامكم أعرض عليكم مشاهداتى التى رأيتها على الروس . عندما كنت فى بطرسبورج كنت أسكن فى شارع (ليتيناى) أمام مستشفى « مارينسكى » . وقد جذب انتباهى فى ذلك الوقت كثرة مجىء السيدات الروس إلى المستشفى فى أيام الأربعاء والخميس والجمعة . وفى

١ – البورخان هو تمثال الإله لدى البوذيين كما ذكر سابقا (**المترجمة**) .

٢– القميز : راجع حاشية ص ٧٦ .

الأيام الأخرى تندر زيارتهم للمستشفى . كانت لى معرفة بمدير المستشفى ، فبادرته بالسؤال ذات يوم ، قائلا : لماذا يكثر مجىء مرضاكم فى هذه الأيام وتقل فى الأيام الأخرى ؟ فرد علىّ قائلا : « هذا أمر طبيعى لأن الروس لدينا يتناولون المسكرات ثلاثة أيام فى الأسبوع هى أيام السبت والأحد والاثنين . وفى يوم الثلاثاء لايستطيعون الإفاقة من السكر بطريقة لائقة . هذه هى الأيام التى حسبتها وتلك هى الأيام الباقية . والمعتقد فى ظنى أن المسكرات التى تستعمل هنا (لدى البورات) هى التى أثرت على النسل » .

منبع السم الذى سمم وجود البورات القومى



صورة عمل الخمور من اللبن عند البورات

– لقد ولدت فى هذه الأمة وتربيت بين ربوعها وانقضت معظم تجاربى فيها . وإذا كان قد تبقى شاغل فى فكرى فهو هذا الموضوع .

أريد أن أعرض على القراء الكرام دون تكلف أن حامبالاما ليس من الرجال الذين تعلموا تعليما مناسبا فى زماننا . ومهما كان قد تعلم فقد تعلم الأدب المغولى وفلسفتهم القديمة باللغة المغولية وهذه هى معلوماته .

وهو رجل علم نفسه اللغة الروسية فيما بعد . إلا أنه دبلوماسى شرقى مطبوع مزود بمعلومات واسعة جدا . وفى حقيقة الأمر فإن الفلاسفة الذين يجهلون القراءة والكتابة جميعا تربوا فى الشرق منذ القدم .

لقد استفدت كثيرا جدا من ذلك الرجل الذى صاحبته لمدة ثلاثة أيام كاملة . وعند الفراق ألقى حاميا لاما خطابا هاما رائعا وبليغا فى حضور جميع اللاما . وأثناء العناق للوداع بادرنى بالقول بأن قلبه تربت فيه محبة غامرة تجاه المسلمين جميعا منذ اللحظة .

منغـــوليا

(بلاد المُغل)

منغوليا

(بلاد المُغل)

البورات قبيلة من أقوام المغول . ونحن هنا على حافة منغوليا . ومع ذلك فهى حافة معروفة ومشهورة للغاية . ورغم أن المسافة من هنا حتى التبت تقدر بثلاثة أشهر ، إلا أن القوافل تذهب وتعود مرتين فى العام من « أوركه » إلى التبت . وطريق القوافل معروف لديها تماما . وتتجمع هذه القوافل من كل أنحاء منغوليا من شرقها ومن غربها ومن شمالها فى « سينانفو » ، ثم تسير من غرب بحيرة « لوبنور » إلى التبت . وقد اكتسبت هذه القافلة شهرة فائقة حيث تذهب إلى مقام (لاس) قبلة المذهب البوذى وتعود كل عام . وهو مكان مقدس لدى أتباع المذهب البوذى .

ويعتقد كل أهالى منغوليا فى قدسية هذه القافلة . ولهذا السبب لايتعرض الجناة الذين يسكنون فى مغارات الهيمالايا لهذه القافلة وهى تمر من التبت . والذين يريدون المرور بسلام من طريق آمن إلى التبت عليهم أن ينتظروا مرور هذه القافلة . وهذه القافلة غالبا ما تذهب وتعود مرتين فى السنة ، وفى بعض السنوات تذهب مرة واحدة .

ورغم أننى اكتفيت بهذا القدر من المعلومات المتعلقة بالمذهب البوذى حاليا ، إلا أننى سأضطر إلى بحث الموضوع مرة أخرى فى المستقبل ، لأن المعلومات التى ذكرتها هنا عن المذهب البوذى خاصة ببوذى منغوليا ، وهم يشكلون شعبة واحدة من شعب المذهب البوذى فى الأصل . وشعب البوذية كثيرة كما ذكر حامبالاما فى روايته لى . ففى اليابان مثلا ٣٥ شعبة ، وفى الصين أكثر من ذلك . ومن الطبيعى أن أبحث كل واحدة من هذه الشعب كلما سنحت الفرصة .

ويرحنه أودين :

عدت إلى بلدة « ويرحنه أودين » مرة أخرى بعد أن تجولت قليلا بين البورات . ونزلت ضيفا على « كشاف الله افندى » وإخوته . وبعد أن استرحت

قليلا ، خرجت أتنزه فى هذه البلدة الصغيرة فوصلت فى البداية إلى المسجد مباشرة . فوجدته مسجدا صغيرا يخلو من مئذنة . وتوجهت إلى المدرسة ، فوجدتها مدرسة صغيرة جدا . إلا أنها مدرسة تدعو إلى الافتخار والتعظيم لأنها تعلم أركان الدين لأولاد قلة من المسلمين الموجودين هنا .

الاهتداء فى روسيا:

بينما كنت مشغولا بامتحان أطفال مدرسة « ويرحنه أودين » ، دخل رجل فى لباس الروس من الباب ، فصافحناه بعد أن سلم علينا . وكان واضحا أن هذا الرجل تبدو عليه أمارات الذكاء وعلامات الأدب . فبادرت بسؤاله عن شخصه وعن وطنه ، فرد قائلا :

– أنا من أصل يهودى « جاركوفى » . إلا أننى تشرفت بالاهتداء إلى الإسلام الآن والحمد لله .

– ما السبب الذى دعاك إلى التشرف بالاسلام ؟ إن العداء للدين موضة لاحدود لها فى القرن العشرين ، خصوصا لدى مثلك من الشباب ! ..

– عفوا ، أنا لست شابا . وأعرف ما ينبغى علىّ عمله . ولدىَّ القدرة على التفريق بين مايفيدنى وما ينفعنى . ولا أريد أن أحصل على شىء منكم . وإذا كنت أرجو فى شىء فهو شىء يتعلق بالإسلام .

لقد اهتديت بالإسلام . وأعرف معنى كلمة التوحيد . ولكن ما الحيلة وأنا لا أعرف التركية ؟ لقد جاءنى استدعاء مكتوب من محكمة الشرطة اليوم ، وسوف أذهب إلى هناك الآن . أعتقد أن أوراقى الرسمية وصلت من الولاية ، ولهذا السبب طلبوا استدعائى .

– إذا كان الأمر كذلك فإننى أبادر بتهنئتك لأن الهداية التى حدثت لك تمت من عند الله ، وهى نعمة كبرى جعلتنى ممتناً جداً .

لقد أوجب ذلك الشاب المثقف بمثل هذه الثقافة دهشتى . فما المناسبة التى جعلته يهتدى بالإسلام وهو فى أطراف سيبيريا ؟ لقد أصبت بحيرة بالغة ..

وفى هذه الأثناء بادر كشاف الله أفندى الذى يجاورنى بالقول :

– اهتدى رجل وعائلته منذ أسبوعين اثنين ، أعتقد أنه قد مرَّ أسبوعان على هذا الموضوع . وتسلموا[1] أوراقه الرسمية من يده . وهذا الرجل شديد الغنى أتى اليوم لزيارتكم ، إلا أنكم كنتم فى الصومعة . فأتى عدة مرات وسأل عنكم . فقلت :

– يارب ، إنك لا تُسأل عن حكمتك .

عندما كنت فى تومسكى ، قال لى حمزة آخون حميدوف : جاء إلى فى رمضان من هذا العام طالبان أو ثلاثة من طلاب الجامعة واهتدوا بالإسلام ورجونى أن أعلمهم الدين الإسلامى . إلا أن حمزة آخون كان يخاف من شر الروس ، فتخلى عن تعليمهم .

– كشاف افندى : عندما كنت فى مدينة « چيته » اهتدى كثير من الناس . وكان أحدهم مهندسا استدعى رسميا فى تلك الأيام ، إلا أنه لم يأت بأوراقه حتى الآن .

وكلما فكر الإنسان فى مثل هؤلاء لا يستطيع أن يمسك نفسه عن الوقوع فى الحيرة . فعندما كنت فى بلدة أوفا سمعت من « عناية الله قاضى » أن ٨٦٠٠٠ شخص أسلموا رسميا فى داخل روسيا خلال السنوات الخمس الأخيرة . قال لى هذا الرجل الشاب : سيدى ، أنا لم أستطع أن أتعلم حتى الآن إيقام الصلاة . منذ متى تكون الصلاة علىَّ فرضاً ؟ لقد جئت لأسألكم هذا السؤال ، وأرجو منكم الإجابة عليه . أنا مهتم هذه الأيام بتعلم الصلاة . ثم أضاف قائلا : إن زملائى فى الدراسة علموا الطلاب الموجودين هنا وهناك الصلاة .

فقلت له : الصلاة فرض اعتبارا من اليوم الذى قلت فيه لا إله إلا الله . (بينما أقول له ذلك أضاف قائلا : محمد رسول الله) . ولكن فى الوقت الذى تتعلم فيه الصلاة ، ينبغى عليك أن تبدأ فى إيقامها .

١ – يقصد : الإدارة الروسية . (المترجم) .

والخلاصة أننى كلما حضرت إلى هنا ، ألتقى مع هؤلاء الذين اهتدوا بالإسلام ، وأقدم لهم نصائح كثيرة . لقد وجدت فيهم الجدية جميعا . حتى ذلك المهندس الذى اهتدى الإسلام فى بلدة چيته ، علمت أنهم حبسوه وقاموا بمضايقته كثيرا . فصاح ونادى على موظفى الدولة ، فأثبتوا توحيده علنا . وفى النهاية بسلموا إليه أوراقه الرسمية وأنقذوه . وعندما كنت فى « چيته » فيما بعد رأيت هذا الرجل بنفسى ، فوجدته رجلا غزير المعلومات يدعو للاعجاب حقيقة . وقد قال لى أثناء التناقش معه :

– لم يمن علىّ أحد بالإسلام . وأنا أتحدث مفتخرا فى كل مكان بما مّن الله به علىّ من نعمة الإسلام . وعندما حبسونى كان هذا الحبس لى بمثابة الجنة . وبعد أن أنار الله قلبى بنور الهداية ، لا أخاف من مواجهة العالم كله لى ، فأنا لا أستطيع أن أخفى دخولى فى الإسلام ..

كلما رأى الإنسان هؤلاء ؛ ماذا لو لم يصب بالحيرة من الذين يشغلون أنفسهم بنقد الإسلام دائما مدعين أنهم مسلمون ينتمون إلى عهد النبوة (العهد الموثوق به) .

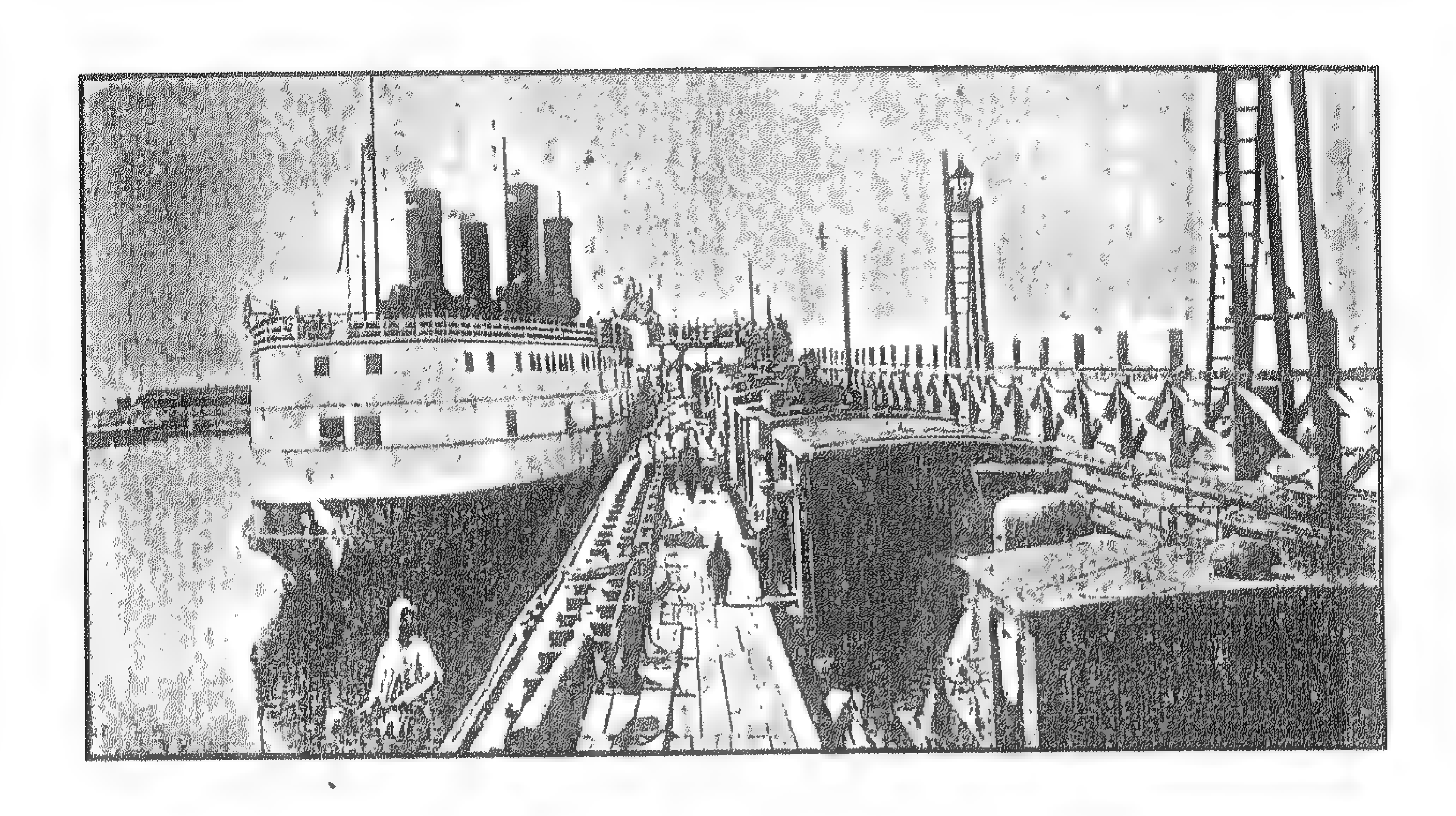
بحيرة بايقال :

كانت بحيرة بايقال[1] بحيرة شهيرة للغاية وكبيرة منذ عشرين أو ثلاثين سنة . وعندما كانت السفن وإن شئت فقل القوارب والصنادل فى أيام الصيف تتجول فى هذه البحيرة ، كان بعض الأشخاص يهلكون كل عام . وفى أيام الشتاء أيضا عندما كان الناس يمرون مع الدواب من فوق الجليد ، كان يهلك كثير منهم وكثير من الدواب أيضا . لقد كانت بايقال فى ذلك الوقت عبارة عن بحيرة تدعو

١ – بايقال ، بحيرة كبيرة فى منطقة سيبريا ، وقد سميت بهذا الاسم لأنها تأخذ مياهها من جبال بايقال طول البحيرة ٦٦٠ كم ، وعرضها يتراوح بين ٤٠ ، ١٠٠ كم . ورغم أن مياهها عذبة وعميقة ، إلا أن تردد السفن على شواطئها فيه شيء من المخاطرة (أحمد رفعت : المرجع السابق ، م ٢ ، ص ٥٦)

ومن الجدير بالذكر أن بحيرة بايقال يطلق عليها فى التركية « بايقال دِرياسى » أى بحر بايقال (المترجم) .

الدهشة حقيقة . فإذا سرت فوق الجليد فى أيام الشتاء خاصة لوجدت الهواء باردا والضباب يلف المكان حتى لا تستطيع أن تتبين الشرق من الغرب . وإذا سقط الجليد فإن الإنسان يتحير تمام الحيرة فى اختيار طريقه ، حيث يمكث الجليد أسابيع طويلة . لا مأوى ولا مسكن . وكانت الحيوانات تهلك تماما ، ما لم تكن هناك استعدادات طيبة من أجلها . والذين كانوا يضلون الطريق فوق بايقال ثم يفقدون ، ماكان عددهم ينقص فى أى سنة أبداً . والذين كان يضلون الطريق وهم على بعد ٦٠ چاقرماً ، كانوا يعدون من أصحاب الحظ السعيد إذا وجدوا الطريق ووصلوا إلى الساحل بعد لف ودوران لمدة أسابيع طويلة . ولم تتوقف القوافل فى طريق « كاختة » رغم ذلك . فقد كانت تذهب وتعود كل سنة عدة مرات . ثم حالفها التوفيق فى الذهاب والإياب بالبواخر فى أيام الصيف فترة طويلة . وخلال هذه الفترة لم تتمكن كثيرا من الذهاب . فظهرت البواخر التى تسمى « محطم الجليد » ، وقد كان هذا النوع من السفن يستطيع الحركة فى بايقال حتى أواخر ديسمبر فى بعض السنوات . وكانت هذه السفن تحطم الجليد من ناحية ، وتشق لها طريقا يقدر بعشرة أميال فى الساعة من ناحية أخرى . وبهذه الصورة كانت تجوب بحيرة بايقال ذهابا وإيابا . وكانت تستطيع التجول حتى ولو كان الجليد يبلغ ذراعا ونصف الذراع من ناحية السمك . وكلما زاد سمك الجليد عن هذا الحد ، فإنها ما كانت تقدر على الحركة . وكانت تضطر إلى الصبر على هذه المضايقات القديمة لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر .



الباخرة محطمة الجليد في بحيرة بايقال

مـن يدرى كم من الأرواح قـد أزهقت فـى أعـمـاق هـذه الـبـحـيـرة فى الـعـام الواحـد ؟ كم من الناس فـقـدوا ؟! حـتـى أن آلاف الجنود هـلكوا فى هـذه الـبـحـيـرة خلال حرب الروس واليابان هذه المرة .

إلا أن الروس أبدوا حماساً زمن هذه الحرب ، وصرفوا كل همهم فى تحطيم الجبـال التى تحيط ببـحيرة بايقال . وقامـوا بإنشـاء ٤٦ نفـقا فى مسـافـة ٢٤٤ چاقرماً . وبهذه الصورة أكملوا خط السكك الحديدية .

وخلصـوا أناسا كثيرين من هذه الكوارث الكبيرة . والآن لايمكن أن يخدش إصبع إنسـان قط[1] ، حيث يمكن قطع المسافة فى ليلة واحدة . وبـحـيـرة بايقـال العجيبة التى قضيت فيها الأسابيع والشهور فى ذلك الوقت ، لم يكن هناك نصيب حتى لرؤية سواحلها هذه المرة ، فقد ذهبت لكى أمر بها فى جنح الطلام الدامس .



محطة للقطارات على ساحل بحيرة بايقال

١ – فى الأصل : « هيچ كيمسه نك بورنى قانامز » . بمعنى : « لا يمكن أن يدمى أنف إنسان قط » . وهو تعبير لا يستعمل فى العربية (المترجم) .

چيته

إذا كانت چيته بلدة صغيرة إلى حد ما ، فهى على أى حال تعتبر ولاية فى أقصى سيبيريا ، ويوجد فيها قليل جدا من المسلمين ، الذين يعتبر قسم منهم من بقايا الكاتورجان . وفى هذه البلدة مسجد بنى بمساعى الكاتورجان ويمكن أن يقال عن هذا المسجد أنه نموذج للفن الرفيع . إنه بناء جميل جدا ورائع جدا . ولربما لهذا السبب تعتبر چيته مركزاً للإسلام كقازان ، ولاتعتبر بلدة تقع فى أقصى سيبيريا ، حيث أنها تتمتع بمنظر يسترعى الاهتمام . وتوجد مدرسة جميلة فى الطابق الأرضى من هذا المسجد ، يعلم فيها حوالى خمسون من أولاد المسلمين أصول التربية وأركان الدين المبين. ووجود مدرسة فى أقصى سيبيريا يدعو للفخر حقيقة . ولا يوجد للروس هنا شىء أكثر من مقر للجنود به : نواد للعساكر ومدرسة عسكرية منظمة للرماية .

قضيت ليلتين ضيفا فى چيته ، التقيت فيهما بالمسلمين . وكثيرا ماقدمت الموعظة لهم . وفى چيته عجوز له صلة بالمسجد كان من كاتورجان ذلك الوقت . وبعد أن أكمل مدة معينة فى چيته استوطن بها وأصبح من نوى الثراء . وقد وفق فى بناء المسجد المنظم بمعاونة مسلمين آخرين . إنه عجوز غاية فى الطيبة ، عندما كنت فى منزله بادرنى بالقول : « جئنا هنا منذ مائة عام ، وكانت لنا مهمة هى فى حجم إعلان السلطنة » .

لقد أعجبنى كلام هذا العجوز كثيرا . ولم أستطع أن أنساه من ذاكرتى وإذا لم يكن الكلام قيما على أى حال ، فإن افتراض المبالغة القليلة فى كلام هذا الكاتورجى الذى يجهل القراءة والكتابة لا يقلل من قيمته .

تحركت من چيته حيث نهاية منطقة سيبيريا الضخمة التى تعد ضمن مملكة روسيا ، وتوجهت إلى « كريمسكى » حيث تتفرع سكك حديد آمور الروسية الأصلية من هناك . ولم أتوقف فيها ، بل استمريت فى سفرى إلى منشوريا .

منشـــــوريا

منشوريا

توجد هنا رسميا دولة الصين . وقد وصلت إلى محطة منشوريا فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٠٨ م ، قاطعا مسافة ٤٤٧٣ چاقرما من « چيلابينسكى » داخل روسيا إلى منشوريا نفسها التى يوجد لنا بها أحباء كثيرون . لا يوجد بيننا أجنبى واحد ، ولهذا لا توجد مشكلة فى اللغة . نحن فى داخل منزلنا حقيقة بين العنصر التركى المنتشر فى سيبيريا . نزلت من القطار فى منشوريا ، فوجدت شابا يهرول نحوى ويقبل يدى . وعندما حمل حقائبى مر أمامى وهو يقول لى تفضل ياسيدى . ركبنا الحنطور المعد لنا ، وتوجهنا إلى منزل عبد الله أفندى ابن آقچورا . إننا نوجد فى منزلنا ، رغم أننا فى دولة الصين .

موظفو السكك الحديدية فى منشوريا من الروس ، وإذا وجد بينهم صينيون فعددهم قليل جدا . ومن النادر أن يصادف الإنسان صينيين فى المدن أو فى الطرقات عندما يأتى إلى دولة منشوريا . إلا أن مايسترعى النظر لدى المرء هو وجود صينيين من ذوى الشعر الطويل فى محطة السكك الحديدية هنا .

يوجد هنا نوعان مختلفان من الإدارات الجمركية . فالجمرك الصينى فقط هو الذى يفحص الأمتعة القادمة من روسيا ، ويقدر الرسوم الجمركية على الأمتعة حسب وضعها . أما عن الأمتعة التى تأتى من الصين إلى روسيا ، فإن الروس يأخذون عليها الرسوم الجمركية وكذلك يفعل الصينيون أيضا . والجمركان كلاهما فى منشوريا نفسها . وإذا كان أكثر الموظفين فى الإدارة الجمركية الصينية من الصينيين ، فإن مدرائهم من الانجليز . والانجليز بشكل عام متواجدون فى دولة الصين وكأنهم حائزون على صفة الوصاية عليها عادة . ففى أى مكان يوجد فيه باب للواردات ، لابد وأن يكون انجليزى على رأس العمل فيه . ومن جملة هذا أن هناك بابا لمنشوريا عند الحدود الروسية ، ولهذا السبب

لايوجد فيه انجليزى واحد بل عدة انجليز ، لأن هذا المكان يقع على حدود روسيا .

وأصل منشوريا بلدة صغيرة إلى حد ما أنشئت من قبل الروس عندما أقاموا السكك الحديدية عند الحدود . وأداروها بمفردهم قبل قيام الحرب اليابانية الروسية [1] . ولم يكن هناك جمرك أو ماشاكل ذلك فى ذلك الوقت . وكانت تعامل معاملة البلاد الروسية تماما . وعندما أرادت كل دولة أن تحدد حدودها بعد الحرب اليابانية الروسية ، حددت حدود روسيا عند « كيرته » وحدودها . وعندما عينت حدود منشوريا انسحب الموظفون الروس منها . وحددت رسوم الجمارك على تجارة روسيا . وعندما أصيبت أسواق منشوريا بالسكتة القلبية ، شكل هذا ضربة كبيرة للتجار الروس .

ولما وصلت البضائع اليابانية وحلت محلها بسرعة ، لم يجد التجار الروس أمامهم من عمل سوى العودة إلى روسيا حاملين معهم بضائعهم .

ومنشوريا بنيت من قبل الروس فى حقيقة الأمر . ويوجد بها ستة بيوت من بيوت المسلمين الذين هم أصلا من داخل روسيا ويعيشون فيها مع الروس . وهؤلاء التجار المسلمون يعتبرون أكبر التجار الروس فى منشوريا .

وتوجد لمسلمى البيوت الستة فى بلدة منشوريا مدرسة ومسجد أيضا . وأنا شخصيا لست مهتما أو مشغولا بشىء سوى ذلك . وكل شاغلى واهتمامى ينصب على وجود توجيه للنهوض بدين المسلمين ومعارفهم . فأينما أجد مدرسة وأنا أتجول أبادر بامتحان الطلاب واختبارهم ، وامتحان المعلمين كذلك . هذه هى وظيفتى ومهمتى فى كل مكان فى أقصى الشرق . وهذه كذلك مهمتى فى منشوريا أيضا .

ولما عينت حدود منشوريا وأصبحت ملكا للصينيين ومملكة لهم بعد حرب اليابان وروسيا ، بدأ الروس يرفعون يدهم عنها . وقرروا أن يبيعوا منازل

١ - وقعت هذه الحرب بين الروس واليابانيين سنة ١٩٠٥ م ، وقد هزم فيها الروس أمام اليابانيين . (المترجم) .

بثلاثمائة روبل رغم أن قيمتها تقدر بعشرة آلاف أو عشرين ألفا أو ثلاثين ألفا من الروبلات ، لأنهم لم يجدوا من يشتريها . والروس فى حقيقة الأمر لم يهتموا بالقاعدة التى تقول : « قدموا الخروج قبل الولوج[١] » . فالنقود التى حصلوا عليها دون أى عناء زمن الحرب ، صرفوها دون وعى على بناء المبانى . وتقرر خروجهم فى النهاية تاركين كل شىء دون أى مقابل مالى . مكثت ضيفا فى منشوريا لمدة ليلة واحدة ، ثم تركتها إلى « جيجكار » فى اليوم التالى .

١ - إن كثرة ورود الحكم العربية والمصطلحات والتعابير بنصها فى هذا الكتاب إنما يدل دلالة واضحة على مدى ثقافة المؤلف فى اللغة العربية . (المترجم) .

جيجكار

ورغم أن الروس هم الذين أنشأوا السكك الحديدية بين منشوريا و « خاربين » على أى حال ، إلا أنهم تركوها للصينيين بعد حربهم مع اليابان . ولهذا السبب سمى الخط بـ « خط السكك الحديدية الصينى الشرقى » . وتقدر المسافة من هنا (أى من منشوريا) حتى « خاربين » حاليا بـ ٨٧٦ چاقرما . وإذا كان كل الموظفين فى السكك الحديدية حتى هذه الأثناء من الروس ، إلا أنهم موجودون حتى تتم عملية التسليم . علما بأنه قد تم التسليم فى أماكن كثيرة ، وآلت المحطات إلى الصينيين تماما . وقد أصبحت تعريفة الطرق تعريفة صينية بعامة وليست تعريفة روسية على أى حال . وتسرى التعريفة الصينية على البرق أيضا .

وتقدر المسافة بين جيجكار ومنشوريا بـ ٦٢٣ چاقرما ، وقد جعلتها الحكومة الصينية مركزاً كبيرا للجيش . ولأول مرة أرى قطعة من الأراضى الصينية . وتعتبر هذه المنطقة إحدى المناطق العسكرية الهامة لوجودها عند الحدود الروسية . وأنا فى طريقى إلى القطار للسفر إلى جيجكار جاءنى أحد التتار وألقى علىّ السلام . وبعد أن رديت السلام ، تصافحنا . ثم بادرته بالسؤال عن شخصيته وعن المكان الذى يقصده ، فقال :

– أنا تاجر ، أقصد جيجكار لأداء صلاة العيد .

– حسن جدا ، أنا ذاهب إلى هناك ، وهذه مصادفة طيبة . فلنذهب سويا بإذن الله . ألا نذهب على ظهور الدواب الموجودة بالمحطة ؟

– نعم سنذهب بالدواب . لدى متجر فى المحطة . وستقضى معى هذه الليلة ضيفا فى منزلى هناك .

لست أدرى فى أى يوم يحل العيد ، لأن هؤلاء المسلمين الصينيين لايوافقون على حلول العيد مالم يروا بأعينهم الهلال . كانت هناك بعض السحب لعدة

أيام فى مطلع الشهر . فلننتظر ، فلربما عند الأولاد فى متجرنا خبر .

– طبقا لحساباتى يحين العيد فى الثامن من ذى الحجة .

– لست أدرى . إن علماء الصين لا يؤمنون بالحسابات قط ، بل يؤمنون برؤية الهلال مباشرة .

والتاجر الذى يرافقنى وهو عبد الله افندى يعرفنى منذ زمن بعيد . لقد تصاحبنا صحبة جميلة حتى وصلنا إلى محطة « جيجكار » . وفى المحطة استقبلنا خدم عبد الله أفندى . فبادرت بسؤال أحدهم على الفور عن اليوم الذى يحل فيه العيد . فقال :

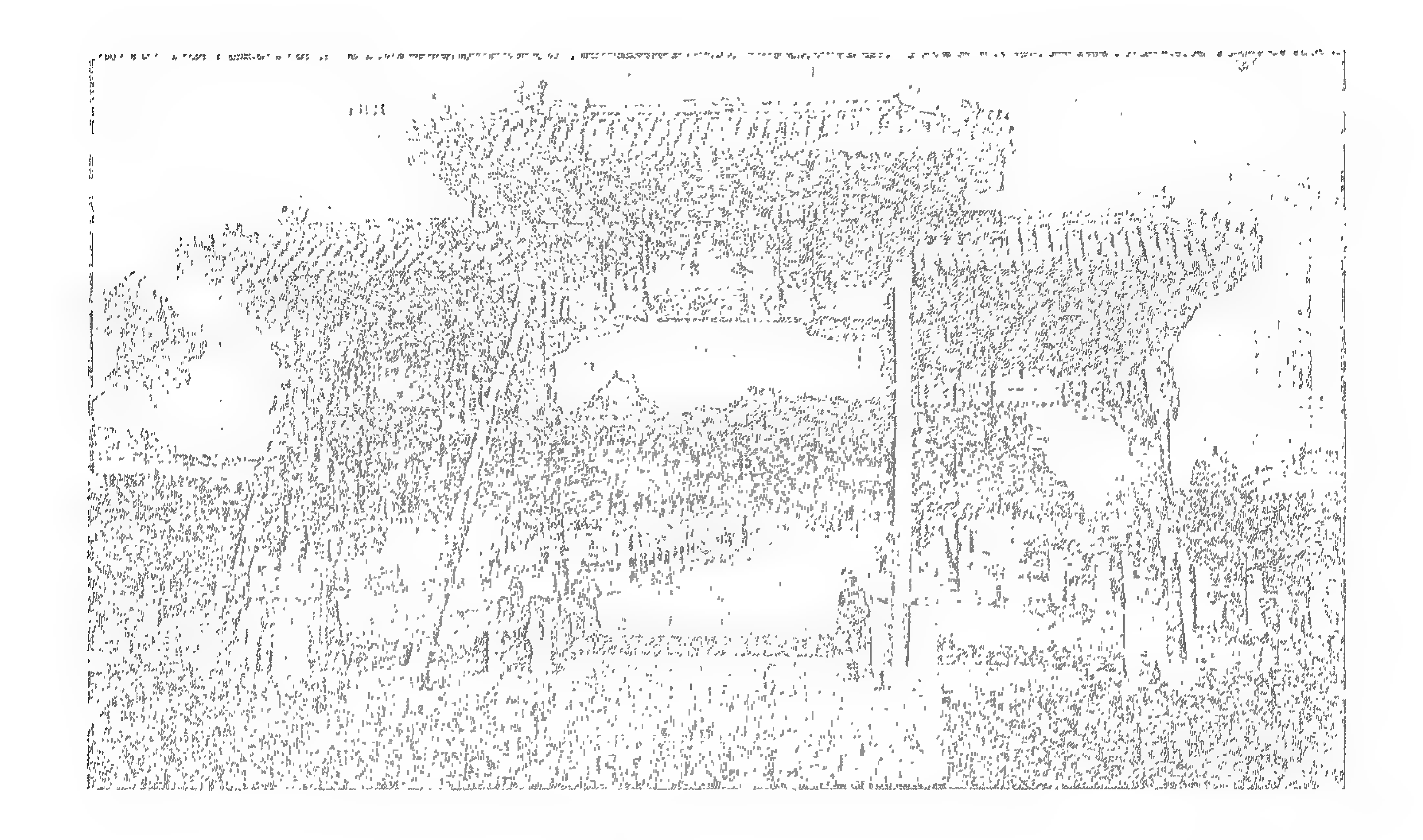
– لا زال هناك خمسة أيام حتى يحين العيد .

فأثار هذا الكلام حيرتى ، ولم أستطع أن أصدق . وعلى أى حال وصلنا إلى منزل عبد الله أفندى ، وبقيت ضيفا فيه هذه الليلة حيث يوجد موظفو السكك الحديدية وبعض أصحاب المتاجر ، ولا أحد غير هؤلاء من القرية .

وصلنا إلى بلدة جيجكار بالحنطور فى الصباح الباكر من اليوم التالى . وقد قطعنا مسافة ٢٥ چاقرما فى مدة ساعتين استغرقهما الطريق من المحطة (محطة جيجكار) حتى وصلنا إلى هذه البلدة .

وقبل أن ندخل المدينة صادفنا مشاتى كبيرة وجنودا من ذوى الشعر الطويل من الخيالة ومن المشاة . ويسترعى الانتباه أحيانا وجود ضباط انجليز مشغولين بإلقاء التعليمات على الجنود الذين اصطفوا على جانبى الطريق .

وأول شىء استرعى انتباهى ونحن ندخل جيجكار هو ذلك الباب الذى أوضح صورته فيما يلى .



بوابة في جيجكار

وهذا الباب الذى يظهر فى الصورة هو باب على أحد الشوارع الكبرى . لقد صنع من أجل الزينة ، وليس من أجل الدخول والخروج . وعمل باب مثل هذا يتم جريا على العادة القديمة جدا . إنها أبواب ضخمة جدا توجد فى كل مدينة . وفى بعض الشوارع يوجد منها اثنان أو ثلاثة . وعلى مشارف الطرق خصوصا توجد أبواب غاية فى الأبهة .

نزلنا ضيفين على تاجر يسمى « كو - ئن » من أحباء عبد الله أفندى . ويعتبر « كو - ئن » واحدا من كبار التجار المحترمين من بين مسلمى جيجكار .

لأول مرة فى حياتى أدخل منزل مسلم صينى الأصل . إنه منزل المحترم « كو - ئن » الذى يتميز بالبساطة الشديدة . وقد وجدت على أول باب فى الشارع عبارة « يامفتح الأبواب » كتبت بحروف عربية . وقد علمت فيما بعد أن باب كل منزل لمسلم كتبت عليه كلمة التوحيد أو البسملة الشريفة أو « يامفتح الأبواب » بالحروف العربية . ويبدو أن هذه تعتبر علامة للتفريق بين المسلم والمجوسى . أما عن المتاجر ، فإن المتاجر الإسلامية تفترق عن المتاجر المجوسية عن طريق وجود صورة الإبريق . ويتضح ذلك بنوع خاص فى المطاعم على الإطلاق .

« كو - ئن » مسلم غاية فى الجودة ، اسمه العربى يوسف . وللمسلمين الصينين بعامة اسمان ، أحدهما يتعلق بالاسلام ، والآخر هو الاسم الشائع وهو باللغة الصينية ويتمشى مع العادات الصينية . إلا أن أغلبهم لايستعملون أسماءهم الإسلامية . لدرجة أن الأخين لايعرف أحدهما الاسم الاسلامى للآخر ، لأن كل شخص يشتهر باسمه الصينى .

استقبلنا « كو - ئن » افندى باحترام كامل ، حتى أن أباه أفسح لنا مكانا فى منزله . أبوه عجوز طيب ، يحس الانسان من ملامحه بعلامات الرقة والسرور . إنه رجل مشرق الوجه . إلا أننا لم نستطع أن نجد مع هذا العجوز غير إبداء

الحب الصادق نحوه ، لأنه لا يعرف لغة غير لغته . أما كو – ئن فإنه يتحدث الروسية جيدا . وبعد أن أبدى كو – ئن افندى حسن الضيافة والمودة والمؤانسة ، رجوته فى ترتيب لقاء لى مع العلماء ، فأوصانا بزيارة المسجد ، وبناء عليه توجهنا إلى هناك .

لأول مرة أرى مسجدا صينيا . ورغم أن المسجد كتب على بابه الخارجى هذا مسجد ، إلا أن به أنواعاً من الصور المجسمة تسترعى الانتباه . هل هذا معبد للأصنام ياترى ؟! ورد هذا السؤال بخاطرى ، وإن شئت فقل دون شك : ياله من معبد منظم ! إلا أننى عندما وصلت إلى الباب وجدت عليه بالعربية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . وعندما دخلت من باب شارع المسجد وجدت ميدانا جميلا أرضه حجرية والنظافة فيه تفوق الوصف . وهذا ما يظهر أن هذا المكان مكان عبادة إسلامى دون شك . وباب الجامع أصلا يطل على هذا الميدان أيضا . وتظهر كثير من الشقق السكنية فى هذا الميدان فضلا عن الجامع . وفى البداية دخلت إحدى الشقق ، وقلت : السلام عليكم . فرد علىّ السادة أصحاب الشعر شديد الطول فى صوت واحد ، قائلين : وعليكم السلام . فسألتهم بالعربية ، قائلا : هل فيكم من يعرف لسان العرب ؟ فرد واحد منهم بالعربية قائلا : « أنا يعلم كلام عربى » . وقد فُهمت عربيته من هذه الكلمات الأربع على أى قدر تكون . ومن ثم سعيت للتفاهم مع هذا الرجل . وقد فهمت أن هذا المكان صار مدرسة ، وهؤلاء السادة هم طلاب العلم . فثار اهتمامى بعدد الطلاب الذى يقدر بـ ١٥ طالبا . إلا أنه لايوجد شخص يستطيع أن يشرح لى ما أريد . فاضطررت إلى سؤال أستاذهم ، فرد بالعربية قائلا : آخون[١] عربى يعلم كثيرا[٢] .

١ – لتوضيح معنى هذه الكلمة انظر العنوان القادم وهو رتبة الآخوان .

٢ – صحة هذه الجملة : « آخون » يعلم كثيرا من العربية (المترجم) .

أعتقد أنه لو كان يعرف حقيقة ، لأمكنني الاستفادة منه كثيرا . ذهبت إلى « آخون » ، فوجدته هناك يجلس في غرفة خاصة . وبعد السلام تصافحنا : فقال لي بالعربية : أنت رجل عالم . فقلت بالعربية : أنا خادم العلماء .

وقد فهمت أنه لايوجد فرق بين آخون وبين هؤلاء الطلبة .ألقيت نظرة على على الكتب الموجودة بجانب هذا الرجل فوجدت القدوري والهداية ومصاحف شريفة بخط اليد ومختصر المعاني . وكلها كتب عربية بخط اليد . وكلما نظرت إلى هذه الكتب أقول : لو كان هناك شخص يشرح لي ما أريد ! ليس الطلبة فقط بل إن آخون نفسه لايستطيع أن يتحدث بكلمتين اثنتين من العربية أيضا . فاعتراني الأسى وشملني الحزن إلى حد بعيد هنا . وقلت لنفسي : أيها الإسلام المجني عليه ، إلى أي وضع وصل بك الحال ؟! أمن الممكن ألا يصاب الإنسان بالحيرة ؟ ..

قضيت وقتي كله حتى مساء ذلك اليوم في المدرسة . وبمناسبة عيد الأضحى حصل الطلاب على إجازة . إلا أن الطلاب كانوا يذهبون مثنى وثلاث ويأتون كذلك مثنى وثلاث . وكانوا كلما جاءوا أحضروا معهم أشياء كثيرة ملفوفة في ورق أحمر ، ثم يقسمونها فيما بينهم . فسألتهم ، فقالوا : هي صدقة . فأمعنت النظر في كل الأوضاع المجاورة ، فوجدت أن المعميات (الألغاز) التي لاتفهم كثيرة جدا . وقد فهمت أن الصدقات الملفوفة في هذه الأوراق عبارة عن قدر ضئيل من النقود . وكلما أمعنت النظر في أحوال الطلاب لم أفهم شيئا سوى جهالتهم .

ثم توجهت إلى منزل « كو – ئن » افندي بعد صلاة العشاء مرة أخرى . وبعد أن تناولنا الطعام ، ذهبت إلى فراشي متعباً . كان الهواء بارداً . والصينيون لاتوجد لديهم مدافيء أو مناقل (توقد بالفحم أو بالخشب) . ولكن منازلهم تدفأ بالدخان . وهذا شيء لم أره في العالم كله . إنه دخان أشجار

عادية . يملؤون الدنيا بالدخان تماما وكأنهم يشعلون النار فى مدفأة خالية من الكوة . لايستطيع الإنسان أن يمكث فى الدخان حيث تزيغ الأبصار . هذا شئ سئ للغاية ، ففى بلادنا حمام يقال له « قرامونچة » ، وهذه المنازل جميعا شبيهة بهذا الحمام . لقد تمرغنا حتى الصباح فى هذه القذارة ، ونحن نظهر احتراما فوق العادة .

خرجت للتجول فى هذه البلدة مرة أخرى فى اليوم التالى . وبعد أن تجولت قليلا فيها . توجهت إلى المدرسة مرة أخرى . وبينما أكّون نفس الكلمات مع الطلاب فيخلطون بين منها وعنها ، وجدت مترجما يعرف اللغة الروسية . ورغم أن قدرته على الكلام بالروسية ضئيلة ، إلا أنه يستطيع التحدث إلى حد ما . فليبارك الله فى هذا المترجم فقد سهل عملنا قليلا . إلا أن هذا أيضا كان رجلا مشغولا . وقد أمكننى الاستفادة منه لمدة ساعتين فقط .

إذا كانت جيكار بلدة كبيرة على أى حال ، فإن المسلمين فيها قليلو العدد . ومجموع المساجد فيها يبلغ مسجدين اثنين فقط . ويسكن المسلمون فى مائة وخمسين منزلا . وأكثر المسلمين يشتغلون عمالا ، وعدد منهم يعمل بالتجارة ، وكثير منهم يعمل فى الحرف الدنيا .

والمدرسة التى عندنا هى نفس المدرسة التى لدى المسلمين هنا ، فهى أيضا تحتوى على ١٥ طالبا .

أما إمام المسجد الثانى فإننى أود أن أقول عنه إنه كان جاهلاً فاسد المذهب . قلت للمترجم : أرجو منك أن تصحبنى إلى ذلك الإمام فاسد المذهب . فبادر بالقول : لا أستطيع أن أذهب إلى هناك . ثم اقتنع على أى حال ، وقال : على أى حال نذهب من أجلكم . كان المكان الذى نقصده قريبا . وكان المسجدان متجاوران . وصلنا إلى هناك ، ثم دخلنا من باب الشارع ، فسمعنا صدى أصوات أطفال كثيرين . وبمجرد أن دخلنا من باب المدرسة ، ظهر عشرون أو ثلاثون صبيا يتلقون العلم .

وإذا برجل يحمل فى يده عصا طويلة صاح فى الصبيان مرة . فصاحوا جميعا فى صوت واحد قائلين : السلام عليكم . فاغرورقت عيناى بالدموع ، وقلت له بالعربية : هل أنتم تعلمون لسان العرب ؟ فقال بالعربية : أعلم قليلا . فورد بخاطرى فورا هذا السؤال : هل يعنى هذا الرجل ما يقول ؟!

بدأت الكلام مع هذا الأمام ، فقال بالعربية : أنا أستحى ، أنا « آخون » (١) لا أعلم لسان العرب » فهمت أنه يريد أن يقول إننى أستحى من عدم معرفتى باللغة العربية رغم أننى « آخون » . لقد أعجبنى هذا الرجل كثيرا ، إذ كيف به يعترف بجهله . إنه يفهم ما أقوله رويدا رويدا . إلا أننى لا أرى حاجة لمترجم ، وقد بدأت أخلص فى صحبته . وبمناسبة حلول يوم عرفة يوم غد ، فقد سمح للطلاب بالحصول على عطلة .

وهذا الشخص المحترم حصل العلم فى « تونكين » حيث يوجد كثير من العرب . وقد كان يقرأ سورة الفاتحة تجويدا إلى حد ما ، ويقرأ قبل الإقامة الإخلاصات الثلاثة ، ويذكرها جهرا فى أيام الخميس . وقد نشأت عبارة فاسد المذهب التى يوصف بها هذا الرجل من هذا الموضوع . ويمكننى أن أقول أنه إذا كان هناك مسلم واحد فى جيجكار كلها فاسد المذهب فهو هذا الرجل فى ظنى .

قضيت عيد الأضحى فى جيجكار ، ورأيت فيها أحوالا غريبة جدا . وقبل أن أجىء إليها بعدة أيام كان كل الطلبة « والآخون » صائمين . وعندهم أن صيام العشرة الأوائل من ذى الحجة أهم من صيام رمضان ، بل إنه لايجوز تركها بأى حال من الأحوال . وعلى أى ماتكون النوافل التى تشبه هذه فكلها مثل الفرائض . وإذا فرض شرعا شىء لايوجد لديهم فلا أهميه له . فمثلا الصلاة تعتبر عبادة خاصة بالآخون والطلبة فقط . أما صيام العشرة الأوائل من ذى الحجة فهو

١ – لتوضيح معنى هذه الكلمة انظر العنوان القادم وهو رتبة الآخوان .

فرض على كل مسلم عليه أن ينفذه هكذا . وكانوا يتعجبون أشد التعجب لأننى لا أصوم هذه الأيام . وينظرون إلى بنظرات الاشمئزاز قائلين بالعربية : أنت عالم لايصوم .

عندما يراهم أى مسلم فإنه يرفض كل شىء ، حيث لا يستطيع أن يتملك نفسه من الغيظ منهم . وفى حقيقة الأمر فإن الأيام التى قضيتها فى جيجكار أيام ثقيلة للغاية ، وخاصة عندما رأيتها لأول مرة كنت أحس بألم لايطاق . أذهب إلى الجامع من أجل الصلاة فلا أفهم أكثر من كلمتين أو ثلاث من الإمام وهو يقرأالفاتحة . آه ياربى ، ماكان يخطر لى على بال أن أصادف بلدة في الدنيا الإسلام غريب فيها إلى هذا الحد. أواه ما هذا الوضع ؟! إذا كان رؤساء المسلمين يرون هذه الحالة ويسكتون ، فماذا سيقولون يوم الحساب من بعد ؟! ألا يسألون أبدا ؟! لا أظن ذلك البتة . آمة ترزح فى الجهالة إلى هذا الحد ، ولا يكون هناك مسئول ممن يدعون الإمامة ! إذا كان هذا حال مسلمى الصين جميعا ، فياللأسف أشد الأسف على أحوال ثمانية ملايين من المسلمين ! .. قلت هذا وكتمت الحزن فى نفسى . ما الحيلة وأنا لا أعرف لغة الصين ، وإلا لبقيت ثلاثة أشهر أو خمسة أشهر أعلم الناس الإسلام والإيمان به وأعلم أركان الدين . فكرت كثيرا ، إلا أننى لم أستطع أن أجد حيلة قط . إذا لم يوجد معلم يعلم أركان الدين للصبيان فى بلدة بها ١٥٠٠ منزل مسلم ، فماذا يكون حال مثل أولئك المسلمين ؟ ! مهما صحت فمن سيفهم ؟ ! بل ومن سيستمع ؟!

ذهبت إلى ذلك الإمام الذى يقال عنه فاسد المذهب عدة مرات وصاحبته . فوجدته يشكو من جهالته باستمرار ويبكى متألما صائحا ويقول : هلك مسلمو الصين لم يبق هناك إسلام فى الصين !

أقمت صلاة العيد مرتين فى جيجكار . مرة مع ذلك الإمام فاسد المذهب ، لأنه فعل ذلك بحساب بسيط . والمرة الأخرى مع أهل السنة بعد يومين اثنين .

وسأقدم بعض المعلومات عن صلاة العيد عند أهل السنة . عندما يأتون لصلاة العيد ، يحضر كل شخص وفى يده جمرة من نار . وعندما يدخل الجامع وبصحبته غصن من أغصان شجرالسنط الذى تنبعث منه الرائحة ، يغرسه فى المنقل ، فتصبح الحالة فى المسجد لا تطاق من الدخان عادة . أما هم فيمكثون فى الدخان كل يوم ولايكترثون بشىء قط .

وعندما يتجمع الناس جميعا ، ينهض الإمام على قدميه ، ويبدأ فى الوعظ والإرشاد باللغة الصينية من داخل الدخان . وكان يتحدث عن فضائل الأضحية فى وعظه . ورغم أننى لم أقدر على الفهم بأى حال من الأحوال ، إلا أن موعظته أعجبتنى ، لأننى كنت أحس بأنه يذكر بعض الآيات والأحاديث من آن إلى آخر .

رتبة الآخون :

توجد لدى علماء الصين رتبة تسمى رتبة « الآخون »[1] أو « الآخوند » ، وقد كانت هذه الرتبة موجودة فى الأصل لدى علماء ما وراء النهر وبخارى . وهى لقب يشيع فى عموم روسيا وتركستان الصينية وبين علماء بخارى وخيوه وفى دولة الصين .

والآخون لقب خاص بالعلماء فى كل مكان . إلا أن استعماله يختلف من مكان إلى آخر . ففى تركستان يطلق على من يتمتعون بالقوة الشعرية . وفى روسيا لقب يمنح من قبل الحكومة لأكابر علماء المحكمة الشرعية فى أورنبورج . وفى بلاد العجم مختلف تماما . أما فى بلاد الصين فيطلق على إمام الحى غالبا .

وبعد أن أقمت صلاة العيد فى بلدة جيجكار ببلاد الصين هذه المرة ، مُنح شخصان رتبة الآخون فى حضورنا ، وهما طالبان أكملا التحصيل فى المدرسة

١ – آخون = آخوند: كلمة أثرية تركمانية ومعناها إمام القرية أو معلم القرية . وهو لقب يطلق على علماء الدين فى إيران وفى القوقاز . (المترجم) .
(حسين كاظم قدرى : المرجع السابق ، م ١ ، ص ٣٩) .

أى قضيا ١٥ عاما فى الدراسة . بمعنى أنهم سلموهما براءة تبيح لهما استحقاق الإمامة ، كما منحا جبة وعمامة أيضا . ويمنح كل من يتمتع بمنصب رسمى طربوشا من قبل الحكومة الصينية أيضا . وتجرى هذه المراسم فى المسجد بعد صلاة العيد فى حضور غفير على المنوال التالى :

تفرش سجادة فاخرة ، ثم يجلس الأستاذ على الكرسى عند مقدمتها وظهره ناحية القبلة . ويمر من على السجادة من سيمنح لقب الآخون حتى يصل أمام الأستاذ تماما . ثم يضم يديه ويطبق كفيه على بعضهما ويمد يديه نحو أصابع القدم وهو راكع حتى تصل إلى سطح القدمين . ثم يقول للأستاذ بعض الكلام ، وبعدها ينتصب واقفا ، وهو يضع يده على جبهته . وبهذه الصورة يركع ثلاث مرات . ثم يعلق منشور البراءة المكتوب على الجوخ الأخضر لمدة ثلاثة أيام على باب المسجد بقصد الإشهار . وهكذا فى كل بلاد الصين يصير الآخون على هذا النحو .

ولو كنت قلت بعدم جواز الركوع أمام مثل هذا الرجل ، لرمونى بالجهالة ورأوا فى عملهم هذا عين الصواب .

* * *

كيف لايصاب الإنسان بالحزن وهو يرى المسلمين على هذا الحال . لابد أن هذه الأحوال أثرت علىّ تأثيرا لامزيد عليه . لدرجة أننى لم أهتم حتى بزيارة مدارس المجوس الصينين فى جيجكار بسبب هذه الحالة التى رأيت عليها المسلمين . إلا أننى كنت أسرى عن نفسى بنفسى ، وأقول : إذا كانت هذه البلاد بعيدة عن المركز أصلا، فإن هناك مسلمين كثيرين مستنيرى الفكر وعلماء أفاضل فى المركز .

وفى بعض الأمسيات عندما كنت ضيفا على « كو – ئن » افندى صاحبته ، فوجدته لا يعلم شيئا عن الدين . ورغم أنه كان غنيا إلى حد كبير ، إلا أن

حياته كانت فى منتهى البؤس . كنت أستطيع أن أتحدث عن التجارة فقط مع هذا الرجل ، وليس عن الأمة والنهضة والدين .. وكنت إذا تحدثت عن شىء من التعليم ، يبدأ فى النوم عادة . وإذا تناولت جهل الآخون لايؤمن بذلك قط .

وذات يوم قال « كو – ئن » لعبد الله افندى الذى يرافقنى : « إن الآخون لا يؤمن بعلمائنا » إلا أن علماءنا يعتبرونه رجلا يعتنق مذهبا آخر . » هكذا أقنع العلماء كو – ئن أفندى . لدرجة أنهم أفهموه أننى على مذهب آخر أيضا . وضمونى إلى فاسد المذهب على أساس أن يكون كلانا كو – ئن افندى الذى لا يعلم شيئا قط فى حقيقة الأمر .

قضيت فى جيجكار ٦ أيام ، أحسست خلالها أنها تبلغ ٦٠ يوما عادة .

حمل الجنازة :

وأحد الأشياء التى جذبت انتباهى وأنا فى جيجكار هى مسألة حمل الجنازة . رأيتها لدى المسلمين فى عموم الصين على النحو التالى : إذا توفى أحد فى منزل ، لبس أصحاب المنزل والأقرباء والمقربون كافة الملابس البيضاء علامة على الحداد أولا . ثم يخبرون الأخون الذى يأتى على الفور ، ويبدأ فى البحث عن ديون الميت قبل كل شىء . فإذا كان الميت مديونا ، فإنه يستدعى الدائنين ، ويأمر بتأدية ديونهم . وإذا لم يكن هناك قادر على الوفاء بديون الميت ، فإنه يعقد صلحا وتراضيا بين ورثة الميت والدائنين ، ثم تحمل الجنازة إلى مثواها الأخير .

أعجبتنى هذه المعاملة حقيقة . أما لدينا عند المسلمين فى روسيا ، فالعلماء يفعلون عكس ذلك تماما ، حيث يأخذون فدية أو ماشابه ذلك عن الميت .، وإذا جاء الحديث عن ديونه ، فإنهم يخفون كل شىء، ويقولون لم يبق لديه شىء .

ثم يحمل الجنازة لتشييعها حتى مثواها الأخير أقرباء الميت والمقربون إليه وأحباؤه ، وكل يحمل فى يده عصا . (ومن الجدير بالذكر أن حمل هذه العصا معروف لدى مجوس الصين . كما يوجد هذا التقليد فى بخارى أيضا) .

وإذ كانت الفدية والصدقة توجدان عندنا ، فهما للغنى وليس للفقير .

أولاد المسلمين فى نظر الحكومة الصينية :

توجد فى جيجكار ثلاث مدارس فتحت من قبل الحكومة لتعليم أولاد المسلمين . إلا أن مصاريف هذه المدارس تقع على عاتق المسلمين فيها . تجولت فى هذه المدارس ، فوجدت المعلمين فيها من المجوس الصينين جميعا وليست هناك خسارة كبيرة تقع على المسلمين من هذه المدارس على ما أعتقد ، وإلا لكانوا تعلموا فن القراءة والكتابة ، إذ من المعلوم أن القراءة والكتابة لدى الصينيين تعتبر فنا كبيرا ، لأنهم سيتعلمون الهيروغليفية ، والقراءة والكتابة بها يعتبر فنا ثقيلا فى واقع الأمر . حيث أن القراءة والكتابة بحق تستدعى معرفة ٣٦,٠٠٠ حرف هيروغليفى . (أما عندنا فيوجد ٢٨ حرفا ونعتبرها كثيرة وصعبة) . ومع ذلك فلدى الصينيين كثير جدا ممن يعرفون القراءة والكتابة .

عساكر الصين :

كان يوجد فى جيجكار ٤٠,٠٠٠ جندى مدرب على الأصول الحديثة للأسلحة الجديدة . ولا أستطيع أن أخوض فى أصول التدريب بكلمة واحدة ، لعدم وجود معلومات لدى عن التدريبات العسكرية قط . لكننى أستطيع أن أقول أن أكثر الضباط كانوا من الانجليز وقسم منهم كان من اليابانيين . ولما كان هناك معلمون من هؤلاء عند الحدود الروسية ، فلا شك أنهم لن يتهاونوا فى التعليم على الإطلاق .

وكنت أمعن النظر كل يوم كلما جئت إلى هنا ، فأجد العساكر كلهم يداومون على التدريب صباح مساء . وفى بعض الأيام كانوا يتعلمون الرماية . وعندما تجولت فى معسكرات الجنود ، رأيت طعامهم وغيره ، فوجدته منظما غاية النظام .

وبينما كنت فى جيجكار سمعت رواية تقول أن فرمانا صدر من بكين يقضى بقص شعر الجنود ، إلا أنهم رفضوا ذلك . وإذا كانت هناك أشياء يفتخر بها الصينيون فهى شعرهم وأظافرهم . إنهم لايقلمون أظافرهم قط . ويعتبرون قص شعرهم بمثابة قطع لرقبتهم . وسأعطى من بكين معلومات مفصلة عن هذا الموضوع .

خاربين

تعتبر خاربين أكبر مدينة فى منشوريا . وهى بلدة صينية الأصل ، أطلق عليها الصينيون الاسم القديم « فوداتان » . وبعد ذلك جاء الروس إلى تلك المناطق ، وبمجرد أن استقروا فيها أنشأوا بلدة باسم خاربين . وبناء على ذلك قسمت خاربين إلى ثلاث مناطق (أحياء) كبيرة : خاربين الجديدة وخاربين القديمة وبريستان . وصارت فوداتان بلدة منفصلة . وفى فترة من الفترات كانت خاربين تحت تصرف الروس تماما . الموظفون جميعا من الروس ، والمعاملة التى تجرى داخل روسيا هى نفسها المعاملة التى تطبق فيها .

إلا أن الوضع ليس كذلك الآن . فإذا كانت خاربين تخضع للإدارة الروسية على أى حال ، فإن الموظفين الصينيين يستطيعون التدخل عند الضرورة أيضا . وعندما ينشأ نزاع بين صينى وروسى خاصة ، فليحدث مايحدث وليراجعا أى محكمة يشاءان . فسوف يظهر حق الصينى لا محالة . أما فوداتان فإن الموظفين الروس لايستطيعون التدخل فى شئونها أصلا . وعلى هذا النحو فإن قوة الحكم والسيطرة عند الروس فى خاربين ضعيفة إلى أقصى درجة .

أما عن القسم المسمى بريستان فى خاربين فهو موطن التتار عادة . ومهما كان عدد المبانى يمينا ويسارا على جانبى الشارع الكبير ، فكلها منازل التتار ومتاجرهم . وهذا الحى يعتبر مركز خاربين التجارى . ويوجد فيه تجار كبار من بين الصينيين أيضا . ومن بين الروس يوجد متجر كبير جدا يسمى چورين الشهير . أما عن التتار فقد أحرزوا المراكز الوسطى والأكثر اعتبارا فى البلدة . وقد شغلوا جانبى الشارع تماما وهكذا إذا كنت أفتخر كثيرا بوجود إخوة فى خاربين . فإن مبعث الافتخار فى مكانه .

وفى خاربين توجد لهم مساجد ومدارس أيضا . كما يوجد لهم مدرسون وأئمة ممتازون . بمعنى أنهم لم يتخلوا عن دينهم . وعندما اتجه الروس إلى أقصى الشرق لم يتخلف عنهم التتار . ففى أى مكان ألقى فيه الروس المراسى ، تجد التتار ذهبوا إليه مسرعين ونصبوا خيامهم .

وبعد الحرب مع الصين استقر الروس فى كل بلدة وفى كل ناحية من منشوريا . وجعلوا لهم مستعمرة خط بسكك حديد الشرق الأقصى بخطيه حتى « پورث آرثور » [١] . وقد صارت خاربين فى ذلك الوقت بلدة روسية عادة . وعندما نشبت الحرب اليابانية فيما بعد فقد الروس كل اعتبار لهم فى عموم منشوريا تماما ، حتى فى خاربين لم يعد لهم أى نوع من الوجود ، وخاصة منذ عام ونصف عندما أعلنت « پورت فرانك » ميناء لڤيلاديڤوستك وخضعت البضائع الأجنبية كلها للجمارك . أما منشوريا فقد ظلت مفتوحة . وبهذه الصورة أصيبت التجارة الروسية كلها بالسكتة القلبية .

ويفصل بين خاربين و « نموداتان » نهر ، إلا أن الجسر يربط بينهما . والسكر الروسى فى خاربين يبلغ سعره ١٨ كاپيكا ، أما فى فوداتان فيبلغ سعره ١٢ كاپيكا . بل ربما يصل سعره الآن إلى ١٠ كاپيكات . والإنسان الذى يشترى ١٠ فوندات![٢] من السكر ويستقل عربة ذهابا وإيابا إلى فوداتان يتكلف ٤٠ كاپيكا . وعلى هذا النحو فإن ال ٤٠ كاپيكا تحدث تأثيرا . والأمثلة على ذلك كثيرة مما جعل الضربة مؤثرة للتجارة الروسية . وإضافة إلى ذلك فإن اليابانيين غزوا « پورت آرثور » ، كما ملأوا كل أراضى منشوريا بالبضائع اليابانية . وبهذه الصورة هزم الروس أمام اليابانيين اقتصاديا أيضا .

وخاربين اليوم تعتبر بلدة صينية رسميا . ولا شك أن بقاء الروس فيها مؤقت . ومن الآن فصاعدا ينظر الصينيون إلى خاربين على أنها بلدتهم .

نزلت ضيفا فى خاربين على حسين افندى آغيشيف الذى يعتبر شابا فى الخامسة والعشرين من العمرطاف بكل أنحاء أوربا . أما أخوه الأصغر زاهد الله فيقيم على الدوام فى برلين . وهذان الشابان يمتلئان بالغيرة ، وهما تاجران بمجهودهما . أحدهما فى شرق العالم أما الآخر ففى غربه يعملان بحماس بالغ

١ – پورث أرثور ، ميناء فى جنوب الصين (المترجم) .

٢– الفوند ، نوع من الأوزان يعادل فى ألمانيا ١٢٢ ليرة وفى أوستراليا ١٠٢ ليرات . (الدرارى اللامعات لمحمدعلى الأنسى ، ص ٣٩١) (المترجم) .

ولله الحمد والمنة . وهما فى مواجهة الأجانب يعدان مثالين نادرين . ورغم أنهما لم يتعلما ، إلا أنهما يعرفان اللغة الروسية معرفة جيدة . وفضلا عن ذلك فإن زاهد افندى يعرف الألمانية ، أما حسين افندى فيتحدث الانجليزية .

قالا لى : إن أبانا يبلغ من العمر ٤٨ عاما تقريبا . وقد قلنا له : اصرف شهريا ما قيمته ٢٠٠٠ روبل (٢٢٥ ليرة) ، وانقطع للطاعة والعبادة . ويكفيك أن تتابع المدارس إن شئت ، ولاتشغل نفسك بالتجارة .

هذان الشابان سيسطع اسمهما فى أمتنا بعد عدة سنوات بإذن الله . والأمل كل الأمل معقود عليهما كى يخدما الآمه[1] . ولدينا شباب يمكن أن يكونوا قرناء لهما فى خاربين ، ولن يخيبوا آمالنا بإذن الله .

عندما كنت فى خاربين التقيت بكل المسلمين فيها ، ولمست متاعبهم الكثيرة . وتحدثت إليهم ، ثم كتبت عن بعض متاعبهم فى جريدة « بيان الحق » التى تصدر فى قازان . وكنت أقصد من وراء ذلك نفعهم وفائدتهم .

الخطبة باللغة التركية والضابط المهتدى :

توجهت إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة فى خاربين . وعندما وصلت إلى المسجد ، وجدت الإمام عناية الله أفندى قائما فى المحراب يعظ الأهالى . والأمام شاب فاضل فى ٢٤ من عمره ، يتصف بطلاقة اللسان لدرجة تفوق الوصف . وبعد أن أكمل موعظته خاطب الجمع ، قائلا : « نرجو من ضيفنا الكبير عبد الرشيد افندى أن يقرأ علينا الخطبة اليوم باللغة التركية تبركا ، وأن يؤم صلاة الجمعة . وهذا تذكار لن يبرح خاطرنا مهما طال بنا العمر » . فرد الجميع فى صوت واحد قائلين : « نرجو ذلك » . فأجبرونى على القبول ، صعدت إلى المنبر ، وبينما المؤذن يرفع الأذان ، إذ برجلين متحفزين يقفان على قدميهما فى نهاية الصفوف عند الباب الأوسط للمسجد ويركزان نظرهما على عينى . كان أحدهما ضابطا ، أما الآخر فكان فى لباس التجار . وبعد أن قرأت الحمدلة والتصلية وتلوت الآية الكريمة : « ادع إلى سبيل ربك[2] .. »

١ - المقصود بالآمة هنا الأمة التترية (المترجم) .

٢ - ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين . (الآية رقم ١٢٥ من سورة النحل) .

وقلت معناها بالتركية ، بدأت فى توجيه الوعظ المناسب . وقد كان الضابط ورفيقه الواقفان فى نهاية تلك الصفوف يستمعان بكل احترام . وكان الضابط أحيانا يمسح عينيه بالمنديل وكأنما كان يبكى . وبعد صلاة الجمعة قدمت موعظة مختصرة مرة أخرى . وكان يبدو على ضيفينا هنين أنهما ينصتان باحترام بالغ ، وكأنما تسمرا فى مكانهما .

وعندما قرأت العشر بعد ذلك خرج كل الناس من المسجد حسب الأصول المرعية ، وبقيت أنا والإمام حتى النهاية . وبينما أهم بالخروج سلم على الضابط عند باب المسجد ، فاقتربت منه ومددت يدى إليه ، وبعد أن صافحته حسب الأصول المرعية ، بادرته بالقول : كيف وجدت عبادتنا ؟ فرد قائلا : أعرف بها منذ زمن طويل .

وبناء على ذلك قام الإمام عناية الله افندى بتوضيح شخصية هذا الضابط ومن يكون . كان ضابطا روسيا فى الأربعين من العمر ، ثم اهتدى بمحض إرادته . ورغم أن الحكومة لاتعترف بإسلامه رسميا ، إلا إنه ذكر أنه سيحملها على الاعتراف به رسميا . وقد أشهر هذا الضابط إسلامه بمحض إرادته دون ضغط من أحد ، عندما كان فى مهمة رسمية . وسوف ينشر موضوع إسلامه الذى شرف به علنا أمام العالم ، ووقتها سيطرد من الجندية ، ويتعرض للجوع . وعندما يتعرض للهلاك ، يضيق صدره بهم جميعا ، حيث سيقذف به باسم الدين . وليس هناك فداء سهل فى روسيا .

وهكذا عندما تصل الهداية من الله ، فإن الإنسان يخدع البصر بكل شىء ، ويرضى بكل أنواع الفداء؟[1] .

هكذا أيها الأخوة ، هذا ضابط روسى ، وكل شخص يعلم أنه لم يتعرض لأى نوع من الإجبار . وفى هذا المجال هناك ملاحظة واجبة ، وهى : لماذا يهتدى

١ – هذا يقابل فى الأمثال الشعبية العربية إلى حد ما « عند القدر يعمي البصر » . بمعنى أنه عندما يحدث القدر ، فإن البصر يعمى عن كل شىء يشد الإنسان إلى الوراء (المترجم) .

هذا الضابط ؟ يبدو فى ظنى أن الاستبداد الروسى هو الذى دفعه لهذا ، فأصبح مهيأ لكل شىء وليس للظروف الحسنة فقط . لقد أصابوا عقله بالحيرة الشديدة ، وهذه هى النقطة الأساسية .

لطافة الموظفين الصينيين :

ذات يوم دخلت مكتب البريد الصينى فى خاربين . فوجدت البريد فيه منظما غاية النظام ، فبعد أن يقبلوا كل نوع من أنواع الرسائل يقبلون الحوالات المالية أيضا .

ويقدر عدد الموظفين العاملين فى البريد فى خاربين بستة أشخاص ، أحدهم انجليزى الأصل والباقى من الصينيين . وكان الصينيون ذوو الشعر الطويل الذين يلبسون الزى الوطنى يتسلمون الرسائل المكتوب عناوينها بالروسية والانجليزية والفرنسية . وكانوا يقبلون الرسائل من ناحية ، ويردون على أصحاب المصالح من ناحية أخرى .

ترددت عليهم أنا أيضا وسألتهم :

– حين أكون فى الصين وأريد أن أرسل الرسائل إلى روسيا فبأى لغة ينبغى على أن أكتب على الظرف ؟

فأجاب الموظف الصينى بكل احترام ، قائلا :

– إلى أين تريد أن تذهب فى الصين ؟

– سأذهب إلى كل البلاد وأطوف بكل الجهات إن شاء الله .

– ياللعجب ، ألا تخاف ؟!

– هل هناك أشياء مخيفة ؟!

– هناك احتمال ، والأوربيون يخافون عادة ..

– أنا لست أوربياً .

– عظيم جدا ، فى أى مكان تذهب إليه تجد مكانا للبريد فى المدن خاصة . وتستطيع أن تكتب العنوان بأى لغة تشاء .

– هل يمكن أن أكتبه باللغة التركية ؟

– إذا كانت رسالتك موجهة إلى تركيا تستطيع أن تكتب العنوان بالتركية .

ولكن ينبغي عليك أن تكتب الانجليزية أو الفرنسية على الظرف كلمة تركيا .

– هل مكاتب البريد عندكم مفتوحة كل يوم ؟

– البريد فى المدن الكبرى مفتوح كل يوم ، أما فى القرى فليس منظما إلى هذا الحد ، ولكنه سينتظم عن قريب .

– هل توجد فى المدن الكبرى مكاتب للبرق أيضا ؟

– توجد فى أكثر الأماكن . وعندما تفتح مكاتب للبريد فى القرى فى بلاد الصين ، تفتح أيضا مكاتب للبرق .

– هل تقبل مكاتب البرق لديكم البرقيات باللغة الصينية فقط ؟

– تقبل بكل اللغات . ولكن إذا كانت بالحروف الانجليزية ، فإنها تفهم بسهولة فى بعض الأماكن . وإذا قبلت الكلمات بالحروف الصينية ، فإن القصور فيها يكون كبيرا .

استطعت أن أتحاور مع رجل البريد إلى هذا الحد ، ثم قلت له : عفوا ، لقد شغلتكم .

فرد قائلا :

– لقد استفدت منكم ، وكنت محظوظا جدا للقائكم . ولكننى استرحمكم فى العفو عن تقصيرى ، وخدمتى لكم واجب علىّ . ثم شيعنى حتى بلغت الباب .

هذه هى معاملة المتوحشين(١) الذين نقول عنهم سفاكو الدماء فى مكتب البريد الصينى . وذهبت إلى مكتب البريد الروسى فى نفس خاربين ، مكتب به ثلاثون

١ – يتهكم المؤلف على الصفة التى يصم بها الأوربيون الصينيين (المترجم)

أو أربعون موظفا ، معاملتهم تتلخص فيما يلى : ماذا يلزم ؟ طوابع بريد ؟ فيجعلك تخلع عن رأسك قلنسوتها ! لا أعرف ماهذا ! .. إنها مجموعة من الاحتقارات . إن يعطيك طابعا بثلاثة كاپيكات ، يقدم لك احتقارات تقدر بست مرات .

إذا كان الانسان هنا لديه قدر من الإنصاف ، فعليه أن يقارن بين أولئك الصينيين المتوحشين والروس المتمدنين . والذين لديهم قدر من دقة الملاحظة يفتتون بمعاملة الصينيين ويجدون على القول بأن هذه هى الإنسانية الحقة ولكن ماالحيلة وقد وصل الإنسان إلى هذه الدرجة من العمى . لا يكاد يرى شعر الصينيين المساكين وزيهم الطويل ، حتى يحكم عليهم بالوحشية . ومهما بذل الصينى من معاملة إنسانية ، فلا فائدة ، أما الروس الذين يتسربلون بالزى الأفرنجى ، فمهما بذلوا من وحشية فى الإجراءات ، فإنها المدنية ، نعم المدنية ! ..

الأحاسيس القومية لدى الصينيين واهتماماتهم :

كنت أتجول فى خاربين كل يوم . فإذا صادفت أحدا يعرف الروسية ، فإننى كنت أبادر بسؤاله عن أى شىء . وكنت أهتم بالمحاورة كلما أمكن .

وذات يوم دخلت متجر أحد التجار الصينيين ويدعى « وان - كوان » ، فجرى بيننا حوار مختصر ، بدأته بسؤاله :

- هل الصينيون ممتنون من أحوالهم الحالية ؟

- هل يمتن الإنسان من الجهل فى يوم من الأيام ؟ ولكننا ممنونون على أى حال حيث لم يمض وقت طويل عرفنا فيه كيف نكون يقظين

- هل حدثت خسارة كبيرة للصينيين فى حربهم مع الروس ؟

- مهما حدث من خسارة ، فالفائدة كانت أكبر ، فإذا لم نحسب الخسارة فى الأرواح لطغت المنفعة المعنوية على الخسارة المادية . وإذا أضفنا إلى ذلك حرب الروس واليابان ، لزادت منفعتنا المادية والمعنوية أضعافا .

لقد خلصنا بلادنا من الأسر إلى الأبد ، رغم أننا فقدنا مايقدر عدده بـ ٣٠٠,٠٠٠ أو ٥٠٠,٠٠٠ شخص . ورغم أن خسارتنا كانت مؤلمة للغاية ، إلا أن أثرها سيبقى فى قلوبنا حتى ننتقم لأنفسنا . إنه الاحتقار الذى منينا به فى « آمور » . وستبقى هذه الخسارة فى أكباد أولادنا قرنا بعد قرن . وستظل تجرى فى دماء أنسالنا .

– ما هذا الضرر البالغ ؟

– إنه الاحتقار الذى مني به الصينيون من قبل الروس فى « پلاغويشچينسكى » . ودماء الرجال الذين خنقوهم فى « آمور » .

– ماهذا ، وكيف حدث ؟!

– كيف فعلتم أنتم هذا ؟! . إذا كنتم تقبلون به ، فليس هناك تاريخ يخلو من الانتقام قط .

– نحن مسلمون ، ونحن أيضا أمة مخدوعة .

– ليس معلوما لدينا أنتم مخدعون أم غير مخدوعين . لقد رأيناكم أثناء المعركة فى كلا الحربين فى صفوف القتال . كنتم تشغلون المواقع الهامة كلها . كان تتاركم موجودين أثناء نهب قصر بكين . أنتم ترون بأنفسكم أن حساباتكم توجد مع الروس . أما نحن وقد وجدناكم معهم فى المعارك ، فإننا نعدكم منهم تماما .

الصين واليابان :

وبعد هذا أجبرت على تغيير موضوع الحديث ، حيث لم يعد لى وجه أقدر به على الرد ، فسألته :

– كيف تنظرون بعيونكم إلى اليابانيين ؟

– أمة جديدة ، رجالها نشطون ، وضعوا أقدامهم على أعتاب المدنية أيضا . وإذا عرفوا كيف يكسبون حرباً أخرى ، فإنهم يستطيعون أن يحتلوا لهم موقعا فى عالم المدنية . ومع ذلك يظل احتياجهم فى المجال الاقتصادى دائما .

– هل توجد احتمالات للوحدة بين اليابانيين والصينيين ؟

- لا يمكن أن تتحد اليابان مع الصين . نحن الصينيون لم نألف الأسر . وسيعمل كل صينى على بذل أقصى ماعنده لاظهار قوة الحكم الصينى . ولاشك أن اليابانيين سيجتهدون فى المحافظة على المواقع التى اكتسبوها حاليا . ولكن الاحتمال الوارد هو أن يعقد اليابانيون والصينيون اتفاقا للدفاع المشترك ضد الأوربيين . وإن فعلوا ذلك لحافظوا على حيثيتهم القومية ، وهى مسألة هامة جدا .

إن يترك الأوربيون الصينيين ١٥ عاما فى راحة ، لأمكن الصينيين أن يديروا دفة الأمور بأنفسهم . ووقتها نركز على إنعاش الاقتصاد أكثر من أى شىءآخر فى زمن الصلح والسلم . ولكن علينا أن نقتنص الفرصة للاستعداد لعمل الأسلحة الحديثة واستعمالها بالفعل . إننا الآن فقط نريد أن نحصل على هذه الفرصة .

احاسيس الانتقام لدى الصينيين تجاه الاوربين :

- أليس ماتتمناه ملك يمينك ؟

- يبحث السياسيون الأوربيون عن السبيل لإشعال الفتنة دائما ، لكيلا يغتنم الشرقيون الفرصة ، وإلا لأرسلوا مبشرا قرباناً ، وأرسلوا خلفه الأساطيل .

- هل يمكن أن تنتعش المسيحية فى الصين ؟

- لا يمكن أن يوجد صينى واحد اعتنق المسيحية مستحسنا إياها بمحض إرادته . إلا أن الذين يقبلون المسيحية اتقاء شر المبشرين كثيرون .

- بين الأوربيين رجال عظام ، وكثير من الرجال أيضا ممن يخدم الإنسانية .. وبين علماء القرن العشرين خاصة من يعمل على الرقى بالفكر الإنسانى .

- تتحدث أوربا عن الإنسانية ، وتتصرف بوحشية حيث لا توجد علاقة بين الأوربيين والإنسانية فى واقع الأمر . وعندما كان الروس يخنقون الصينيين الأبرياء فى « آمور » ، كانوا فى نفس الوقت يصنعون من أشلاء القتلى جسرا على نهر آمور .

ولم يخرج أوربى مدنى واحد على الروس ليقول لهم ماذا تفعلون ؟ حتى الأبريا الذين يرعون أمهاتهم ألقوهم فى نهر آمور . وحدث كل ذلك على مرأى من الأوربيين . فأيهم باسم الإنسانية قال كلمة واحدة ؟ ! وأى جريدة أوربية كتبت مقالا من سطرين فقط فى هذا الخصوص ؟! أما إذا جرح أنف مبشر واحد منهم ، فانهم يهبون جميعا باسم الإنسانية .

ظل الروس ثلاثة أيام متوالية يصنعون من جثث الصينيين جسرا على نهر آمور وظل الأوربيون عدة أيام ينتشلون الجثث على ساحل النهر ، فسحبوا كل جثة طافية ، وتفقدوها ، حتى إذا وجدوا بها مالا أخذوه جميعا ، ثم لقوا الجثة فى الماء مرة أخرى

وتتحدثون عن الإنسانية من جديد ! الانصاف ياسيدى ، أليس كذلك ؟! ..

* * *

لم أستطرد أكثر من هذا ، واكتفيت بهذا القدر . ثم ودعت وان - كوان الذى اصطحبنى حتى الباب وهو يضغط على يدى بكل أدب وذوق ، قائلا : « تحدثت كثيرا معكم ، وأرجو العفو والمغفرة » .

وأثناء الحوار مع هذا الرجل ، كنت منتبها إلى حد بعيد ، فقد كانت روسيته تتفوق على روسيتى ، وكان من ناحية أخرى يتكلم بسهولة بالغة ولم يجد أى صعوبة قط فى التعبير عما يريد .

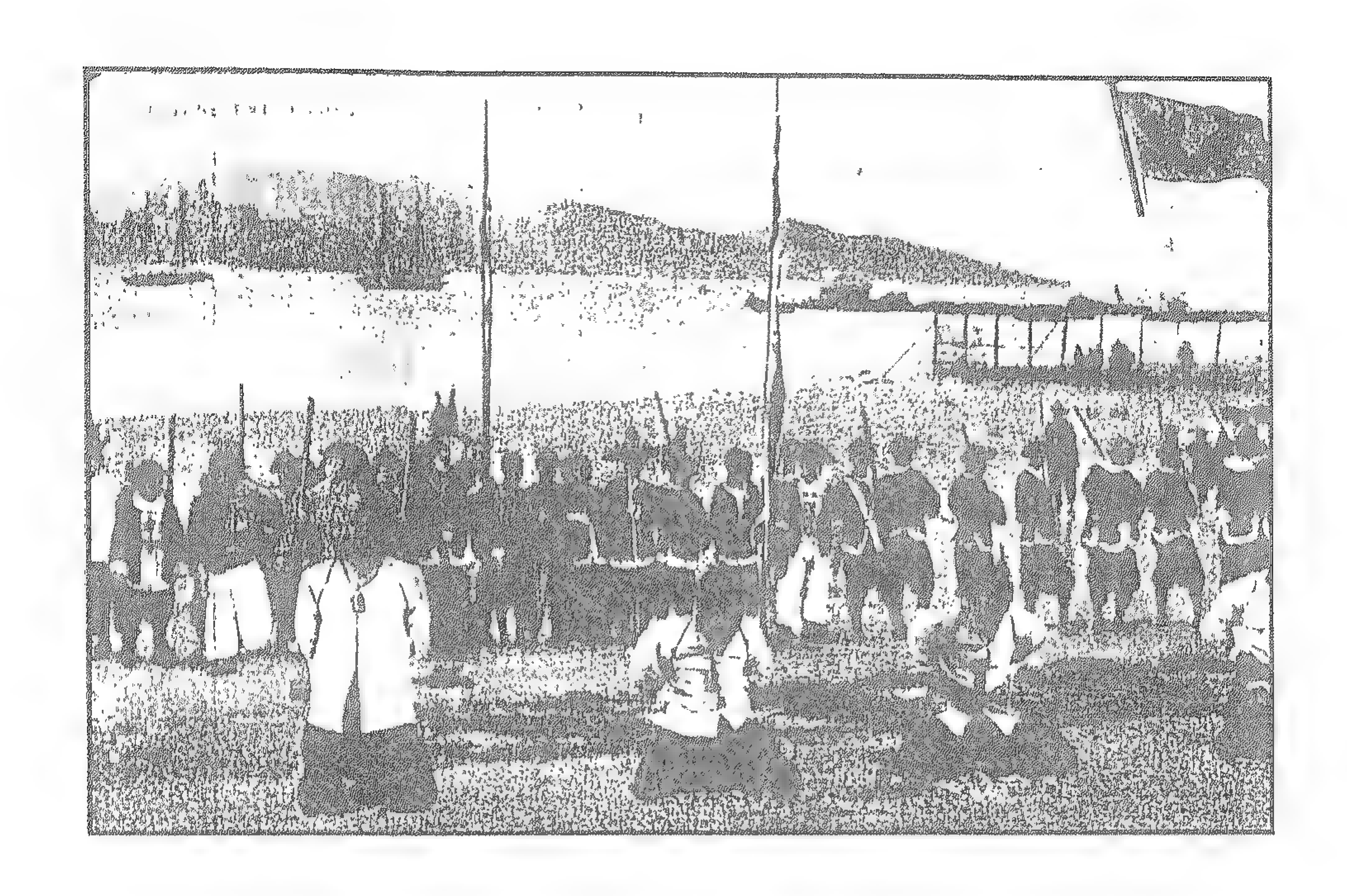
ويدل هذا دلالة واضحة على استعداد الصينيين . فتتار روسيا عندنا رغم أنهم ظلوا تحت الأسر الروسى ٣٠٠ عام حتى الآن ، إلا أن الذين يعرفون الروسية منهم عدد محدود ونادر حتى يومنا هذا . أما الصينيون فإنهم يتحدثون الروسية بشكل كامل عقب الضربة مباشرة . والذين يقرأون بها ويكتبون كثيرون جدا . وكثير جدا من الصينيين يتعاملون مع الروس فى الغرف التجارية الكبيرة ويمارس الصينيون التجارة بالبضائع الروسية فى كل أنحاء منشوريا .

ويمكن رؤية الصينيين كأهل صنعة وكأهل ثروة وكأصناف وفى كل الأعمال لأنهم يهتمون بالاقتصاد أيضا إلى أقصى درجة . ومهما بلغ الصينى من غنى ، فإنه لايبدى رغبة فى لباس آخر غير ملابسه الوطنية . بل إنهم يفخرون بزيهم الوطنى . أمة قوية جدا . ولاسيما أنهم يحافظون على تقديس شعرهم الذى هو بقدر شعر ذيل الخيول .

جزاء القتل والقصاص :

وعقاب القاتل ومسألة القصاص موجودان لدى الصينيين . فإذا كان القتل ثابتا ومؤكداً ، فإنهم يقتلون القاتل . وفضلا عن ذلك ففى استطاعة الموظفين الحكم بالقتل على المجرمين العاديين أيضا . وفى استطاعة الموظفين الكبار قتل أى شخص غير مذنب عند الضرورة إذا أراد الجانى ذلك . والحكم بالقتل ليس أمراً ثقيلاً إلى هذا الحد . أما الذى يحكم عليه بقص الشعر ، فإنه يصيح فى الساحة قائلاً : ياويلتاه لأنهم يعتبرون الشعر مقدساً إلى حد بعيد .

عندما كنت فى خاربين علمت بتنفيذ حكم القتل فى بعض الأشخاص ، إلا أننى لم أر شخصا مهموما . أما فى بكين فعندما كنت بها قصوا شعر أحد الناس ، فقامت الصحف فى ذلك الوقت بكتابة المقالات الخاصة حول هذا الموضوع . كما أن الألسن كلها بدأت تلوك هذه الأخبار أسابيع طويلة . وسأعرض على أنظار القراء الكرام هنا صورة التقطت أثناء تنفيذ حكم القتل .



المحكوم عليهم بالقتل

وبهذه الصورة يقطعون رقبة الثلاثة فى آن واحد . وإذا اهتز سيف الجلاد ، قطعوا رقبته فجأة . فيضحك المشاهدون ، وهم يصيحون : شانقو ! شانقو ! وإذا استحسنوا العمل فإنهم يصفقون .

لقد أصبح جزاء القتل أمرا مشروعا لدى الصينيين يطيعه كل الناس ، حتي إذا لم يصدر قرار من المحكمة ، فإن كبار الموظفين ينفذون القتل فى الأشخاص الذين يريدونهم بأمر من « الوان » فى منغوليا .

أحوال مسلمى فوداتان :

تعتبر فوداتان جزء من خاربين كما ذكر فيما سبق . وكل الشئون الإدارية بها فى قبضة الصينيين . ويوجد بها حى إسلامى صغير أيضا . والمسلمون فيها وهم صينيون يشبهون مسلمى جيجكار تماما . ففى الجهل والقذارة صنوان متلازمان ، وأخون فوداتان يفترقون عن آخون جيجكار فى القدرة على التعبير عن الغرض درجة . والاسم الصينى للآخون هو (وان – خون – بن) ومعناه بالعربية « نور محمد » . وهذا الرجل يملك القدرة على التحدث بالعربية كثيرا .إلا أن لغته عبارة عن عدة كلمات ليست من الفصحى ، ورغم ذلك تصل إلى حد دفع الحاجة .

وعدا ذلك فإن فكر « نور محمد أفندى » يتركز حول إقامة علاقات مع المسلمين داخل روسيا لإيقاظ مسلمى الصين من غفلة هذا النوم . ورغم أن أصحاب فكر كهذا يعتبرون محدودى العدد بين علماء الصين ، إلا أننا قصدنا الاستفادة من وجود نور محمد أفندى ، فأخذنا عنوانه وأعطيناه عنواننا أيضا للتراسل معه والتباحث بهدف إقامة علاقات دائمة معه . وسنظل على المبدأ ثابتين . ومسلمو فوداتان فقراء غاية الفقر لم يوجد بينهم غنى واحد قط . ورغم ذلك توجد لديهم مساجد ومدارس . والطلاب الملتحقون بالمدرسة مثل طلاب جيجكار تماما فى الخامسة عشرة أو العشرين من العمر . يدرسون الفقه والصرف والنحو . ومع ذلك لايعرفون من العربية كلمة واحدة . وكلما رآهم الإنسان ، فإنه لا يستطيع أن يفكر فى شىء غير اليأس . لقد عم الجهل جميع أرجاء شمال الصين وخاصة شمالها الشرقى ومنشوريا . لدرجة أنه من فرط

جهالتهم لاتسمع أخبارهم . وواجب على المسلمين المستنيرين إيقاظ هذه المناطق وإرسال من يوقظها . وخاصة المسلمين الذين ينتمون إلى الخلافة الإسلامية الذين أخص منهم بالذكر أرباب المشيخة الإسلامية الذين عليهم أن يهبوا لإغاثتهم وإنقاذهم من ظلمات الجهل هذه . وإلا لكانت العاقبة وخيمة عليهم .

كان يوجد فى منشوريا ٦ ملايين مسلم حسب الروايات . وبين هؤلاء ال ٦ ملايين لايوجد ٦ أشخاص يعرفون قراءة ماتجوز به الصلاة من القرآن .

وأحوالهم تتلخص فى « خسر الدنيا والآخرة » . وإذا لم تكن هذه الإمدادات مع الإمدادات الخارجية تكفى ، فستكون الساحة مرتعا للمبشرين فى نهاية المطاف .

وهنا أكتفى بهذا القدر حاليا ، وسوف أضيف على مشاهداتى فى هذه الجهات ماسأشاهده داخل الصين ، وأعرض ذلك وأبينه تفصيلا فى حينه .

لقاء مع الرحالة الشهير لاطيغين :

عندما كنت فى خاربين التقيت بواحد من أشهر الرحالة الروس ألا وهو « لاطيغين » ، الذى كان قد تجول فى سنة ١٨٩٩ م لمدة ثلاث سنوات فى كل بلاد تركستان الصينية وجميع جهات التبت لكشفها . وكانت بصحبته هيئة مكونة من ٣٤ شخصا عهدت إليهم الجمعية الجغرافية الروسية بمصاحبته . وقد أكمل رحلته فى سنة ١٩٠٢ م . وهذا الرجل معروف بخبرته باللغة الصينية والتركية . وقد سررت للقائه أشد السرور ، لأننى استفدت منه كثيرا جدا .

أبدى لاطيغين تجاهى احتراما بالغا . وقد جرت بينى وبينه مباحثات حميمة للغاية . أمدنى خلالها بمعلومات عن آثاره وعن أشياء تتعلق برحلاته خاصة ، وأطلعنى على خريطة الصين التى رسمها وبين لى الطرق . وجرى بيننا حوار طويل ، حدثنى خلاله عن كل ماكنت أفكر فيه فى هذه الأثناء. وقد بادرنى بالقول :

– هذه الطرق فيها هلاك لك بنسبة ٩٠٪ . ستتعرض لهلاك محقق إن أنت سلكت أى طريق . وستتعرض لهلاك أكبر ، خاصة وأنك مسلم لأن المبشرين ينتشرون فى عموم بلاد الصين وسيعاملونك معاملة سيئة للغاية . بل ربما يقتلونك إذا سلكت اتجاه الجنوب خاصة حيث يتركز المبشرون الكاثوليك أعلى « صى – چو – آن » . فعندما يعلمون بأنك مسلم ، فإنهم سيبذلون كل أنواع المقاومة ضدك .

– أنا لا أخاف البتة من هذه الأوهام . ففى عقيدتنا الإسلامية « لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا »[1] . هذا هو اعتقادى فى أى مكان أحل به .

– مادام لديك مثل هذه العقيدة ، فتأكد أنه لن يصيبك شىء قط .

ورغم ذلك سأوصيك بشىء ، وهو أن تأخذ معك بعض المسدسات على كل حال . فإن لم تلزم لك ، فسيكون من المقبول جدا أن تقدمها هدية لكبار الصينيين .

أبدى لاطيغين نحوى احتراماً شديدا ، وقدم لى نسخة من كتاب السياحة الذى ألفه على سبيل الهدية .

وفى حوالى الساعة التاسعة ليلا ودعت لاطيغين بعد أن صاحبته صحبة حميمة ، وأردت أن أعود إلى منزل حسين أفندى آغيشيف الذى أنزل به ضيفا ، فوجه لاطيغين إلى الحديث ، قائلا :

– شوارع خاربين عندنا ليست آمن من جبال التبت ، فانتبه .

فارقت منزل لاطيغين فى جنح الظلام الدامس والشوارع تخلو من القناديل ، ولم أكد أتقدم ٥٠ قدما فقط ، حتى صاح أمامى صائح ، قائلاً : قف ! وإلا أطلقت عليك الرصاص ! فقلت له :

– ماذا تريد ؟ أنا ذاهب لوظيفتى .

١ – قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون (الاية رقم ٥١ من سورة التوبة) .

– ها ! .. عفوا من تكون ؟ يبدو أننى أخفتك أكثر من اللازم بسبب خوفى !

– أنا فلان .

– ها ! .. كيف حالك ؟ كم هى مصادفة جميلة !

لم يكد يقول ذلك حتى دفعنى إلى الحيرة وحرت أكثر حيث لايمكن رؤية أى شخص قط فى الظلام الدامس ، فسألته :

– من تكون ؟

– أنا تيكولين ، جئت معك من محطة منشوريا إلى جيجكار . وأكرر الرجاء أن تعفو عنى ، فقد أخفتك .

– لا ضرر من ذلك ، فنحن لا نخاف من مثل هذه الأوهام .

جاء هذا الرجل المسكين خائفا ، وكان على وشك أن يخيفنى إلى حد ما .

فى إحدى الغرف التجارية الصينية :

ذات يوم وأنا أتجول فى شوارع خاربين ، دخلت غرفة التجارة الصينية « قونتوره » ، فوجدت كلمة « سور – حو – شين » مكتوبة على باب شارع الغرفة التى كتب اسمها بالروسية والانجليزية[1] أيضا . دخلت من الباب فوجدت الـ « قونتوره » منظمة غاية النظام من الداخل والخارج ، ويوجد بها أناس قليلون جدا رغم كبر حجمها . وفى أحد الأركان وجدت شابا ممددا على كرسى بمساند شعره طويل ويبدو عليه الوقار الشديد ، وقد أسدل شعره وأخفى وجهه فى جريدة كان يقرؤها . وكان هناك رجل أو اثنان منهمكين فى دفاتر الحسابات . اقتربت من الرجل الذى كان يقرأ فى الجريدة ، ولم يكد يرنى حتى انتفض من مكانه قائما وقدم إلى الكرسى بكل احترام ، وقال بالروسية تفضل .

تعلقت عيناى بالجريدة التى بيده ، فوجدتها جريدة « السوق » التى تصدر فى مانشستر . وكانت على المنضدة بعض الصحف بالصينية والروسية أيضا .

1- Chamber of Commërce .

وبعد أن تعرفت عليه ، بدأت أتباحث معه . ثم تطرق الحديث عن أصول قانون الدفاتر فى التجارة . ومن ثم سألته عن اللغة التى تستعمل فى دفاتر التجارة ، فقال :

– اللغة الصينية ، ولكن لدينا دفتر منفصل بالانجليزية للتعامل مع الأجانب .

– هل هذه الأصول مرعية فى كل الغرف التجارية ؟

– الغرف التى تتعامل مع الأجانب تجرى الأصول فيها على هذا النحو حيث يتم التعامل باللغة الانجليزية . أما التى لا تتعامل مع الأجانب ، فلا حاجة فيها للغة أخرى غير الصينية .

– هل يوجد كثير من الصينيين يتعاملون مع الأجانب ؟

– معاملة الكبار تتركز مع الأجانب .

– هل توجد شركات صينية خالصة لدى الصينيين ؟ وهل يوجد أصحاب رأسمال (رأسماليون) كبار ؟

– لا يوجد فى خاربين أصحاب رأسمال كبار (رأسماليون) إلى هذا الحد . هناك شركات رأسمالها نصف مليون ، وإن شئت فقل مليونا أو مليونين . أما فى تنزين وشاغاى وقونتون فيوجد كثير جدا من الشركات الكبيرة . كما يوجد كثير جدا من أصحاب رأس المال الكبار . وتوجد فيها شركات للبواخر . ومع ذلك لايوجد لدى الصينيين أعمال ضخمة تقريبا . ولكن ربما يأتى الوقت ويحدث ذلك فتحتل التجارة الصينية موقعا خاصا فى المراكز التجارية الأوربية . ووقتها يبدأ التنافس بين الصينيين والأوربيين الأكثر تمدنا .

– عفوا ، هل تذكر لى اسمك ؟

– وان – تيان – تان

وسعى « وان –تيان – تان » افندى فى الحياة واهتمامه ينصب على الناس ، فهو يرى ضرورة فتح سوق مشتركة بين الأمم المتأخرة كالصين مثلا لنقل تراث

العلم والمعرفة من الأمم المتمدنة المتقدمة ، لأن الأمم التى ليس لها نصيب من العلم والمعرفة لا تستطيع أن تصمد فى ميدان المبارزة فى أى وقت من الأوقات .

– إن الصينيين لدينا لم ينفتحوا على البلاد الأوربية حتى الآن ، رغم أن استعدادهم الفطرى لازال موجوداً . وقد اتخذت الحكومة تدابير عديدة لتربية الصينيين . إلا أن طبيعة الصينيين تتلخص فى أنهم لايبدلون أحوالهم القديمة مالم تقع لهم مصيبة . ولايطيعون بوغديخان الذى يعتقدون فى قدسيته . وقديما أصدرت الامبراطورة أمرا بقص شعر الصينيين ، فلم يرضخ صينى واحد لهذا الأمر ولن يرضخ . وعندنا أن الحضارة والمدنية الأجنبية لاتلزم لنا . وفى هذه الحرب الأخيرة تلقى الصينيون ضربة قاسية لن تخرج من ذاكرة أى صينى قط فى أى وقت من الأوقات . ومن ثم فهموا ماهية المدنية الأوربية حق الفهم . وسوف تختلف تمام الاختلاف نظرتنا للأوربيين بعد هذا . لقد رأينا مدى احتياجنا للعلم والمعرفة . رأيناه بعين اليقين . وسوف نبذل كل المساعى فى سبيل العلم والمعرفة فيما بعد . ونأخذ مايلزمنا عن قريب ، ونترك لهم فساد أخلاقهم . ولما كان فساد الأخلاق هذا متركزاً لدى الأوربيين ، فإنهم سيأخذون مكاننا فى المستقبل بالتأكيد[1] . لقد اعتدنا منذ القدم على الاهتمام بالاقتصاد . فإن استطعنا أن نمسك بالصناعة والمعرفة فى أيدينا ، لأمكننا أن نصل إلى أعلى مراتب النهضة فيما بعد . ثم يلزمنا من ٣ سنوات إلى ٥ سنوات لإصلاح الشئون الداخلية . وإذا تمكنا من ذلك نلغى التنافس ، ونتحمس حتى للانتقام .

– لم أستطع أن أرى استعدادا كهذا لدى الصينيين . فأينما نولى وجهنا اليوم نجد كل الصينيين خداما ، حيث يقفون على أبواب الروس فى الخدمات الدنيا . لدرجة أن الروس يطلقون عليهم أسماء روسية مثل « إيوان وسيمون وسيدور» . ومن المحتمل أن تضيع قوميتهم أيضا بهذه الصورة بالتدريج .

١ – المقصود من هذه الجملة أن الأوربيين سيأخذون مكان الصينيين فى التأخر لأن الفساد يكمن فى المجتمع الأوربى وسيقضى عليه لامحالة . (المترجم) .

- إن الصينيين لدينا لا يهربون من الخدمة ، حيث يوفقون توفيقاً كبيراً فى العمل وفى توسيع الأفكار بهذه الصورة من أجل مستقبل كل صينى ، إن الصينيين الذين يعملون فى الخدمة لدى الروس مخدوعون تماما ومظلومون للغاية . إلا أن عاقبة هؤلاء تعتبر خيرا لنا . إن الروس اليوم لايحتقرون الصينيين إلى هذا الحد . أما قبل حرب اليابان ، فقد كان الصينى حقيرا لدرجة أن أغنى مليونير صينى كان يعتبر أحقر من أى روس يعمل خادما بسيطاً . وسأعرض عليك الأحوال هنا : لايوجد صينى فى خاربين ، والذين يوجدون هنا وفى هذه النواحى هم من المنشور جميعا . ويوجد الصينيون الأصليون فى الأنحاء الداخلية من الصين كنواحى تنزين وشاغاى .

- الصينيون أمة جبانة جدا ، يخافون من الأجانب بشكل كبير . وكأنهم يخافون من وحش مفترس عادة . إننى أتعجب كثيرا منهم ، وأسأل نفسى : لماذا يخافون إلى هذا الحد ؟!

- لا يتعلق هذا بالصينيين بل يتعلق بحكومتهم ، وسبب هذا يتلخص فيما يأتى : كان سفراء أوربا قديما ابتداء من اليوم الذى بدأ كلامهم فيه يصبح نافذ المفعول فى قصر بكين ، يقولون : « إذا جرح واحد من مبشرينا ، فإننا سنطالب بالقصاص » .

ثم استطرد قائلا : لم نكن الباعثين على هذه الفتنة ، ولكن الحكومة الصينية هى التى وضعت الأمة تحت تهديدات خطيرة فى مواجهة الأوربيين . ولم تكن تعرف من هم المبشرون فى ذلك الوقت . لقد ارتكبوا أنواعا من المظالم ضد الصينيين . كانوا يحقرون من شأننا بالضرب باليد أو بالقدم أو بالسب فى كل ساعة بل فى كل دقيقة . وكان مقصدهم ينصب على نشر الفتنة . ولو كنا قد بذلنا جزءاً بسيطا من الدفاع المشروع عن أنفسنا ضد هذا التحقير ، لكانوا وجهوا إلينا الأساطيل فورا وهددوا بشن الحرب علينا ، قائلين : « إنكم حقرتم من شأن رجالنا » .

ولو كنا شكونا لأى جهة فى ذلك الوقت ، لخرجنا من ذلك صفر اليدين . وليس المبشرون وحدهم هم الذين كانوا يقطعون شعر الصينيين أحيانا ، بل إن الضباط الأجانب أيضا كانوا يفعلون ذلك ، وأحيانا أخرى كانوا يقطعون الرقاب . وماكانت الحكومة الصينية تسأل عن سبب ذلك ! لدرجة أن ضابطا (نكر اسمه) كان يتجول فى طرقات خاربين فقطع رقبة أحد المارة . فسأله واحد من أحبائه ، قائلا : لماذا قطعت رقبته ؟ فرد ضاحكا : إننى كنت أجرب سيفى !! هكذا الوحشية ! وحشية الأوربيين التى أفرزت الحرب الأخيرة التى نسبوها إلينا فى النهاية . وإذا كانت مثل هذه الحالات لاتزال موجودة حتى الآن ، فلا يمكن أن تستمر كثيرا بعد ذلك .

- أما زال الوضع على ماهو عليه ؟

- كان كذلك ، ولكننا نستطيع أن نقول أنه غير موجود بعد حرب اليابان . فلم يعد هناك صبر لدينا نحن الصينيون على حماقاتهم .

وبعد أن تحاورت لمدة نصف ساعة على هذا النحو مع وان - تيان - تان ، نظرت فى دفاتر الحسابات الجارية ، وقدمت له معلومات مستفيضة ، ثم ودعته وانصرفت .

* * *

وبعد أن أقمت لمدة أسبوعين فى خاربين ، قررت مغادرتها إلى ڤيلاديڤوستك فى ٧ يناير سنة ١٩٠٨ م [1] . وكنت قد طلبت استخراج جواز سفر من محكمة خاربين للسفر للبلاد الأجنبية . ورغم أن رجال المحكمة الذين قابلتهم ذكروا أنهم سيعطوننى جواز سفر ، إلا أننى أضعت يومين من وقتى فى الذهاب والإياب بسبب إهمال الموظفين الروس .

صادفت هذه الأيام بداية رأس السنة لدى الصينيين ، كما صادفت بداية السنة عند الروس أيضا . وبهذه المناسبة قضيت وقتا لدى الطرفين . وكان المنظر كما يلى : ظل الروس سكارى لمدة أسبوع كامل بمناسبة عيد رأس السنة .

١ - فى الأصل ٧ تشرين الثانى (نوفمبر) وهو خطأ مطبعي صحته ٧ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٠٩ م (المترجم) .

وكانوا يتمرغون فى الوحل فى الشوارع بل وفى كل مكان . أما الصينيون ، فقد كانوا يقضون وقتهم بمناسبة رأس السنة فى الاستمتاع بأنواع من الفرح والتسلية شملت إيقاد المشاعل وإطلاق صواريخ الأطفال من قبل الكبار والصغار جميعا ليلا ونهارا فى كل مكان ، وهم يكونون جماعات متآلفة . وقد تمكنت من رؤية هذه الأفراح ، بسبب تأخرى عن السفر من خاربين لمدة يومين اثنين .. وشكل هذا متعة سعدت بها .

سكك حديد شرق الصين :

تبدأ محطات سكك حديد شرق الصين من محطة منشوريا حتى ڤيلاديڤوستك . والموظفون فيها والخدم كثيرون لدرجة أن الإنسان كلما رآهم يصاب بالحيرة . فى كل محطة تجد قرية . وأهالى القرية بكاملهم يعملون خدما فى السكك الحديدية . وحيث يوجد الأجانب ، يوجد عدد من التتار أو اليهود الذين افتتحوا متاجر من أجلهم . وأغلب سكان المدن يعملون خدما فى السكك الحديدية . فخاربين اليوم بها ٧٠,٠٠٠ نسمة . ثلثاهم خدم فى السكك الحديدية ، والثلث الباقى من التجار . إلا أنه بفضل السكك الحديدية تمكن الخدم والعمال من تكوين ثروة .

ولا تستطيع الحكومة الروسية وضع أحد فى خاربين بصفة رسمية سوى موظفى السكك الحديدية . وبناء على ذلك لايوجد فى خاربين موظف مدنى أو والٍ . بل ربما أوكل إلى إدارة السكك الحديدية وظيفة الوالى وإدارات الشرطة . ويوجد بصفة رسمية موظف للسكك الحديدية ، يعمل واليا حسبما توجب الظروف ، كما يمكن أن يعمل مديرا للبوليس أيضا . وفى حالات الضرورة يعمل قومانداناً . وهكذا يستخدم الرجال ! .

وإذا كان هناك شخص واحد يقوم بعمل عدة أشخاص فى الظاهر ، فهناك أيضا عدة أشخاص يقومون بعمل شخص واحد . والهدف الأصلى لايكمن فى تشغيلهم فى السكك الحديدية ، بل فى إسكان هؤلاء الرجال فى منشوريا .

قام الروس بإنشاء هذه السكك الحديدية لحساب الحكومة الصينية ، ويديرونها لحساب الحكومة الصينية أيضا . وبناء على هذه السياسة تخسر سكك حديد شرق الصين كل عام ماقيمته ١٢ مليون روبل .

من خاربين إلى ڤيلاديڤوستك :

تــركت بلدة خــاربين فى يوم ســعــيــد هـو الأول من المحـرم الحـرام سنة ١٣٢٧ هـ .[1] وقد ودعنى كافة الأحبة فى خاربين حتى محطة السكك الحديدية . وكان آخر عهدى بالسفر بالسكك الحديدية الروسية بعد آذان المغرب .

إننى أعرف تتار تلك النواحى الذين صادفتهم فى كل محطة . فى كل مكان يوجد التتار فى حقيقة الأمر ، وكلهم يعملون بالتجارة . عندما تحرك القطار من خاربين فى منتصف الليل ، ركب فى العربة التى ركبتها شاب فى ملابس التتار ، ثم جلس بجوار السيدة التى كانت تجلس أمامى . إلا أننى لم أستطع أن أتصور وجود علاقة حميمة بين تاجر تترى وسيدة روسية محترمة هكذا ، فغفوت ثم نمت .

وعندما اقتربنا من الصباح ، أحسست بحديث جاد للغاية يدور بين الشاب التترى والسيدة ، فصرت كمن ينام بسرعة . ومع ذلك لم أسمع الكلام جيدا ، وإذا كان هناك كلام قد سمع ، فإنه لم يكن مفهوما . وانبلج نور الصباح فشغلت جديتهما وتصميمهما ذهنى إلى أقصى حد . فخلقت المناسبة للحديث ، وتحدثت عن نفسى ، فانتفض هذا الشاب واقفا ، وصافحنى ، ثم قال : أنا سأنزل فى المحطة القادمة ، إننى أعتبر من تلاميذكم الضائعين . وسوف تحكى لكم هذه السيدة عمن أكون ولأى سبب جئت لهذا اللقاء .

فسألته :

- إلى أين تذهب هذه السيدة ؟

- إلى ڤيلاديڤوستك . أرسلت إلىّ برقية ، فجئت بصفة خاصة من مسافة مائتى چاقرم . والتقيت بها لِتلقِّى بعض الأشياء ..

فأوجب هذا تعجبى أكثر ، حيث لم يكن لدى خبر عن وجود شباب يشتغل بالسياسة إلى هذا الحد .

١ - يقابل هذا التاريخ ١٩٠٩/١/٢٠ م (المترجم) .

– هل لديك رفقاء ؟

– قليل جدا . قضوا فى هذه الأيام على كثير من خيرة شبابنا ، وأرسلوهم إلى سجن نيرچينسكى بلا محاكمة .

وصل القطار إلى المحطة ، فنزل منه ذلك الشاب . كانت العربة مليئة بالمسافرين ، فلم أجد مجالا للحديث فى شيء أكثر من ذلك ، خاصة وأن القلق اعترانى على مصير هذا الشاب بشكل كبير .

قالت لى السيدة :

– بعد أن نصل إلى ڤيلاديڤوستك ، سأحضر إلى الفندق الذى تنزل به ، لكى أحكى لك عن شخصية صديقك هذا .

ماالحيلة ، لازالت هناك ٢٤ ساعة باقية ، وسأصبر ..

والسيدة الروسية سيدة غاية فى الوقار والجدية . يبدو أنها من عائلة محترمة ، وعلى درجة عالية من التربية ، ظللنا سويا حتى مساء ذلك اليوم ، وكانت تبدى نحوى أقصى درجات الاحترام . ثم نامت بملابسها فى المساء . أما أنا فقد أخذت أدقق فى حالة هذه السيدة إلى حد ما ، فقد كانت معاملتها جادة تستحق الاستحسان .

وفى الصباح الباكر من يوم ٢١ يناير سنة ١٩٠٩ م [١] أيقظتنى السيدة جارتنا . وقالت :

– اقتربت ڤيلاديڤوستك .

نهضت بسرعة ، وجمعت أمتعتى . وفى هذه الأثناء قالت السيدة :

– عندما ننزل من العربة ، فإنك ستجد حمالين كوريين شديدى الفقر ، فأوكل إلى أحدهم حمل أمتعتك ، لكى يذهب بها حتى الفندق . ولا داعى لاستخدام عربة ،

١ – فى الأصل ١١ تشرين الثانى (نوفمبر) ، وهو خطأ مطبعى صحته ٢١ كانون الثانى (يناير) سنة ١٩٠٩ م (المترجم) .

لأنك لو أعطيت سائقها ٤٠ كاپيكا ، فسيقول لك هذا قليل . أما هؤلاء فيشكرون لك عما تعطيه لهم . وعلى العموم الفنادق قريبة جدا ، سأعرفك بها ، وأمضى إلى منزل أخى ، بعد أن أذهب معك حتى باب الفندق .

ڤيلاد ديڤوستك

لم يكد القطار يقترب بسرعة من محطة ڤيلاديڤوستك حتى استرعى انتباهى حقيقة ونحن ننزل من عربة القطار الحمالون الكوريون وعلى ظهورهم الظهريات التى يحملون عليها الأمتعة . إنهم أناس مساكين يقتربون فى خوف شديد . عهدت بأمتعتى إلى أحد الكوريين فحملها ، وخرجنا من المحطة . ولم أكد أخرج من المحطة حتى استرعى نظرى مطلع عبارة عن هضبة كل مكان فيها مدق للأقدام . بحيث أنه إذا اختصر أحد المسافرين المارين على هذه الهضبة الطريق ، لوجد ذلك الحمال الكورى يتبعه فى طريقه على هذه الهضبة ، ولأصبح ذلك طريقا لغيره . كان هذا المطلع على ارتفاع ١٢ ذراعاً ، ويمكن أن يقام عليه درج كامل . وعندما خرجنا من المطلع ، إذ بميدان نجس ! فأينما تضطر الحاجة أحدا من الحمالين الكوريين أو السكارى الذين يمرون من هناك ، فإنهم يلوثون (يغيطون فى) ذلك المكان . وإلى الأمام على بعد ٢٠ قدما يوجد شارع للمرور وأمامه على الناصية يوجد « جراند أوتيل » (الفندق الكبير) الذى يعد أحد فنادق الدرجة الأولى فى ڤيلاديڤوستك . وهو يعتبر أول شيء يسترعى انتباه القادمين من الخارج إلى ڤيلاديڤوستك ، ومن الأشياء التى يواجهونها أمام ناظريهم لا محالة .

آه لو كانت هذه القذارة فى واحد من ديار المسلمين ، لكتب عنها كل واحد من المحررين الأوربيين ، ولوصم الإسلام بالقبح . إلا أنه لا يوجد كاتب عن العالم الأوربى أو عن تصرف الروس المتمدنين ولا حتى مشاهد .

ثم استقر بى المطاف فى فندق ڤريمسكى الذى يبعد مسافة٥٠ قدما فى الاتجاه الأمامى .

أنا الآن فى أقصى الباب الشرقى ، وفى نهاية الممالك الروسية الواسعة ، وفى مبدأ ومركز خط سيبيريا الكبير ، وفى واحد من أكبر ميادين الحرب وأعظمها فى العالم ، فى ڤيلاديڤوستك القوة الدافعة الفريدة ضد أكبر أعداء الروس والتى واصلتُ السير إليها . وتعتبر دون شك موقعا هاما من الطراز الأول سواء فى النواحى التجارية أو السياسية . ومن المهم جدا تقديم بعض التفاصيل عن بلدة مثل هذه .

إنها تجذب اهتمام كل شخص لا محالة ، وعلى أى حال هذا هو الذى يقدمها على غيرها .

الكوريون فى ڤيلاديڤوستك :

الكوريون فى ڤيلاديڤوستك [١] كثيرون ، الله وحده الذى يعرف عددهم[١] . هذا الحشد من البشر فى حال يستحق المرحمة حقيقة . لكن ما الحيلة و«الإنسان المتمدن»[٢] يرحم الكلاب ، ولا يرحم بنى جنسه من البشر !

صح كما تشاء ، ولن تجد من يهتم بصياحك . وإن أردت ألا تنبس ببنت شفة فلا تنبس ، فإنهم لن يرحموا أيضا ! « ولا يمكن أن تعاب مقتضيات المدنية ! »

لقد تألمت كثيرا بل كثيرا جدا على الكوريين لأن الرحمة بالبشر من الفضائل الإنسانية لدى الشرق كفطرة جبل عليها .

لم يكن ممكنا قبل كل شيء تخمين عدد الحمالين الكوريين فى محطة ڤيلاديڤوستك بسهولة ، لأنهم يبلغون ثلاثة أمثال عدد المسافرين الذين نزلوا من القطار دون مبالغة . فقد أمعنت النظر وأنا أغادر المحطة ، فوجدت أنه مهما كان عدد الكوريين الذين يحملون الأمتعة كثيرا إلا أن خلفهم كان يوجد كوريون غير محملين يبلغ عددهم ضعف عدد هؤلاء . وبعض المسافرين كانوا يصحبون معهم أمتعة كثيرة ، فقسموها على حمالين أو ثلاثة حمالين لحملها .

ثم أنه عند باب كل فندق يوجد خمسة من الكوريين بالتأكيد مترقبون ليل نهار . وأغلب الفنادق ينتظر عند بابها حوالى ثمانية أو عشرة منهم . ولكنهم لا يقفون بجوار الباب ، لئلا يطردهم خدم الفنادق . مسكين ذلك الكورى الذى على ظهره ظهارة ، وقد سلط عينيه على باب الفندق كل يوم وهو واقف فى وضع الاستعداد ، لعل صاحب مرحمة يخرج من باب الفندق ، فيعهد بهذا الكورى المسكين لحمل أمتعته ، ثم يعطيه فى نهاية المطاف عشرة قروش أو عشرين على

١ – ڤيلاديڤوستك ميناء حدودى يقع بالقرب من الصين وكوريا . (المترجم) .
٢ – المقصود بالإنسان المتمدن هو الأوربيون (المترجم) .

أكثر تقدير .. هذا إذا أعطاه .. فمهما كانت الأمتعة ثقيلة فإنه يعهد بها إلى الحمال الكورى لحملها كلها . وقد كان يوجد كثيرون لايدفعون لهؤلاء الحمالين أجراً . ولا توجد محال تجارية أو دكاكين فى حى الأسواق بقلاديقوستك لايوجد عند أبوابها من ٣ – ٥ من هولاء الحمالين . مسكين ذلك الكورى الذى ينتظر إذا خرج مشترٍ فى أى وقت وكان يحمل شيئا اشتراه وعهد بحمله إلى واحد من الحمالين الكوريين ، فإنه يعطيه خمسة قروش .

كلهم جوعى ، حتى إذا خرجت من الباب وأخرجت لهم كسرة من الخبز ، هرولوا نحوك من ٥ – ١٠ أشخاص . إن الأوربيين الذين قطعوا شوطا كبيرا فى المدنية يحملون هؤلاء الناس المساكين بقدر حمل الحمار من أمتعتهم . فإذا ذهب الحمال بهذه الأمتعة من أقصى ڤيلاديڤوستك إلى أقصاها وأعطى خمسة قروش أو عشرة ، فإن الكورى المسكين يظل يقلب النقود بين هذا الجانب وذاك من شدة الفرح . لقد أعطيت الكورى الذى حمل أمتعتى من المحطة حتى فندق قريمسكى خمسين قرشا (عشرة كاپيكات) . مسكين ذلك الرجل الذى حمل أمتعتى ، لايكاد يصدق ، فأخذ ينظر إلى شكلى تارة وإلى النقود تارة أخرى ، ثم يتبسم طورا آخر ، إنها الحيرة علامة السرور . ولايمكن العثور على كورى يعرف الروسية ، ولهذا السبب لايستطيعون المساومة . فحملهم كيفما تريد ، وأعطهم ماتريد ، فالمسألة تتوقف على إنصافك .

وإذا كان من الضرورى كتابة رسالة عن الكوريين الموجودين فى ڤيلاديڤوستك ، لأمكن كتابة رواية من عدة مئات من الصفحات التى تقرأ والعيون تذرى الدمع . لقد تألمت كثيرا ، لدرجة أن هذا الألم لايمكن أن يخرج من خاطرى فى حقيقة الأمر أبدا .

وذات يوم صادفت كوريا بين الكوريين يعرف قليلا جدا من الروسية ، فسألته عن أحواله ، قائلا :

– لماذا يوجد هنا حمالون كثيرون ؟ فقال الحمال وهو يمسح الدمع من عينيه :

– هل رأيت أمة تعيسة فى العالم مثلنا ؟ ماذا نستطيع أن نعمل غير حمل

الأمتعة ؟ هذا العقاب قليل لأمة لاتقدر قيمة الوطن . لقد أعطينا وطننا للأجانب ، واخترنا هذه المذلة بأنفسنا . فليعاقب الله المتسببين .

– أين أهلك وعيالك ؟ وأين تنام وتصحو ؟

– عائلتى توجد فى منزلنا فى أطراف هذه المدينة . عائلتى توجد هناك .

– ماذا تكسب من حمل الأمتعة ؟ وكم كاپيكا تحصل فى اليوم ؟

– فى بعض الأيام من ٥ – ١٠ كاپيكات (٢٥ – ٥٠ غرشا) . وفى بعضها الآخر لا أستطيع أن أجد نقودا قط . ونادرا ما أحصل على ٢٠ أو ٣٠ كاپيكا لمدة يوم أو يومين فى السنة . ويتوقف ذلك على المصادفات إذا جاء صاحب همة من الخارج .

– ألا يوجد أغنياء بين الكوريين ؟

– إذا كان يوجد فى بلادنا فلا يوجد هنا قط ، ويستحيل وجود ذلك فى المستقبل . ولاتنفعنا فى عمل قط معرفتنا باللغة ، فالذين يعرفون اللغة من بيننا مبتلون بالسكر ، ولا ينفعون فى عمل أبدا .

– الحياة فى بلادكم أفضل من هنا ، أليس كذلك ؟

– هناك أسوأ من هنا . الموت من الجوع من ناحية ، ومجيء المبشرين وضغطهم من ناحية أخرى . إنهم يقتلون الأنفس من أجل الدخول فى المسيحية . وإذا لم تقبل مايكلفونك به ، لايقدمون لك الخمر . وبعد أن تقبل لايعطونك أيضا ! ولكنهم يعطونك حتى تقبل .. (مسكين ذلك الرجل الطيب يضحك فى موقف يدعو إلى البكاء) [1] .

– هل يوجد كثير من الناس يقبلون بالمسيحية ؟

– أكثر الفقراء يقبلون بها ، حيث لايوجد أمامهم حيلة أخرى . يكثر الداخلون فى المسيحية من أجل زجاجة واحدة من الخمر يقدم البابا المبشر الخمر فى المساء ، وفى الصباح لا يعطى قطرة واحدة .

١ – تنطبق الحكمة العربية ، القائلة : « شر البلية ما يضحك » على هذا الرجل (المترجم) .

إلا أنه يظهر لك الزجاجة ويقول : إذا قبلت بالمسيحية أعطيك الخمر . ثم ماذا يفعل ذلك المسكين ؟ يدخل المسيحية إن طوعا أو كرها . وهكذا كثر عدد الداخلين فى المسيحية ..

– مادمت ستدخل فى المسيحية ، فلا أقل من أن ترسل أولادك للمدارس كى تنقذهم من مثل هذا الوضع .

– لست أدرى ، لايوجد أمامنا شىء غير الموت . أصحاب الشرف لايستطيعون الخروج ولايستطيعون التجول . ويموت كثير منهم داخل منازلهم من الجوع .

أثر علىّ هذا الوضع تأثيرا سيئا . فأخذت كوريا معى وذهبت إلى الأماكن التى يسكنون فيها وهى كالحى . فوجدت أكواخا غريبة الشكل بنيت من التراب خارج فيلاديفوستك . وفى كل واحدة منها سبعة أو ثمانية أو عشرة أشخاص . عبارة عن كوة خرجت من الهضبة دون إن تكون لها نوافذ . وإذا أوقدوا نارا بين هذه الكوات فإن دخانها يدخل إليها من ناحية ، كما يدخل ضوؤها إليها أيضا . (وإذا أمكننا أن نقول إن الموت من الفنون الحالية ، فيكفى قضاء عدة ساعات داخل هذا المنزل من أجل الموت) .

هكذا يعيش الكوريون المساكين داخل منازلهم . لقد دخلت عددا من هذه المنازل وشاهدت كل شىء . وكلما دخلت منزلا ورد بخاطرى هذا السؤال الذى وجهته لأحد الكوريين : ياترى هل من المكن أن يكون لدى الشرطة خبر عن معيشتكم هذه ؟!

رد عجوز قائلا : وهل يكون هناك خبر لدى من يعيشون فى صفاء الخاطر عن التعساء ! .

يكفى الإنسان أن ينظر بعين العبرة لحياة مظلومين مهضومين مثل هؤلاء ، كى يفكر فى وحشية الإنسان .. ثم توجد جمعية لحماية حقوق الحيوانات بدعوى إنسانية ! لست أدرى مامعنى هذه الجمعية . لايمكن أن يفترق هؤلاء عادة عن الجوعى الذين يشربون السجائر السوداء الطويلة فى باريس ، ولا عن العرايا الذين يلبسون القبعات الضخمة فى لندن .. لايرحمون الإنسان الذى من جنسهم ، ثم يطلبون الرحمة وغيرها للكلاب ! .

أرسلت إلى عـائلتى بالبـريد صـور الحـمـالين الكوريين الموجـودين فى فيلاديفوستك وصور منازلهم ، رغم أن موظفى البريد فى روسيا لا يقبلون تحمل أى نوع من المسئولية . مـالحيلة ، وأنا لا أستطيع عرض هذه الصور اللازمة للرؤية على القارئين الكرام يا أسفا .. وإلا لكنت عرضت هذه الصور الكثيرة التى تدعو إلى العبرة على العالم المتمدن .

أحوال المدينة ومكانها :

فيلاديفوستك ميناء متين ومحكم بشكل كبير تتخلله الجبال . والمدينة كبيرة وشهيرة ذات مبان ضخمة ومتاجر كبيرة . عندما جئت إليها كان ذلك فى موسم الشتاء ، وقد كستها الثلوج باللون الأبيض الناصع . بها جبال عديدة تكسبها شكلا مدهشا يدل على قدرة الله . تجولت فى المدينة طولا وعرضاً وتنزهت فى كل النواحى والأماكن . وإذا كانت بعض الشوارع الكبيرة منظمة للغاية على أى حال ، فإن المواقع المتروكة كخرابات فى المناطق التى يمر منها الإنسان عبر الجبال كثيرة . والشوارع الكبيرة بها متاجر ضخمة مكتوب على أبوابها أسماء صينية طويلة جدا بالخط الصينى أحيانا وبالخط الروسى أحيانا أخرى ، فمن « تون – فـون – تاى » إلى « چزاك – حـوك – توك – شـيك – تاى » و « توك – شيك – لوك » ، وأسماء أخرى من مثل هذه جذبت انتباهى . ومن ناحية أخرى هناك لوحات مكتوبة بالحروف اليابانية على المتاجر اليابانية . وكلما سار الإنسان صادف متاجر روسية قليلة جدا ولافتات بالفرنسية والانجليزية . وبهذا تعتبر فيلاديفوستك معرضا للشعوب المختلفة .

ويصادف الإنسان الحمالين الكوريين فى كل زاوية بشكل لاينقطع ، وعلى ظهورهم الظهرية المصنوعة من الأشجار الطويلة . وهو منظر لم أر له مثيلا فى أى دولة . وفضلا عن ذلك هناك الهنود المجوس المعممون بعمامة ضخمة حمراء اللون ، وقد اتخذوا لهم موقعا عند كل باب لحراسته .. وكان مثل هؤلاء يدفعون الإنسان شاء أم أبى إلى تفكير عميق .

وڤيلاديڤوستك من ناحية الثروة والاقتصاد تذكر ببلاد الصين ، فأينما تذهب تصادف الصينيين ذوى الشعر الطويل فى المحال المنظمة وفى البنوك والمتاجر . وأينما تذهب تصادف أيضا الكوريين فى الخدمات الشاقة وفى حمل الأمتعة وفى أكثر الخدمات الدنيا ، وهم جميعا يعيشون فى الحضيض .

وقد صادفت الأيام التى كنت فيها فى ڤيلاديڤوستك أيام رأس السنة وأعيادها لدى الصينيين . فرأيت ذوى الشعر الطويل من الصينيين وهم يلبسون الملابس الحريرية النظيفة ويتجولون فى كل الطرقات جماعات جماعات وهم يضعون فوق آذانهم شريطا من صنع اليد بسبب الطقس البارد .

وسوف أعرض عليكم معلومات مفصلة من داخل الصين عن عادات الصينيين وأخلاقهم ، وأكتفى حاليا بأشياء مختصرة للغاية .

الجامعة :

« دار الفنون » : لدى الروس جامعة « دار الفنون » خاصة باللغات الشرقية فى **ڤيلاديڤوستك** . وهى على أى حال عبارة عن مدرسة صغيرة جدا ، رغم تسميتها بدار الفنون فى ذلك الوقت . وإذا كان القصد من تأسيس المدرسة أصلا هو تعليم اللغات الصينية واليابانية والمغولية ، فإن السادة الذين يكملون تعليمهم فيها يبحثون فى الصورة الكاملة لفروع الحروف الصينية وشعبها رغم عدم فهم . أى شىء من هذه اللغة .

وقد يرد بخاطر القراء الكرام فى هذا المجال مايلى : من أين أعرف أنهم لايعرفون ، وأنا أصلا لا أفهم الصينية أو اليابانية . نعم عندما كنت فى طوكيو التقيت بطالبين ممن أتموا الدراسة فى هذه المدرسة . وسكنت مع أحدهما لمدة أسبوعين فى غرفة واحدة . ثم تنزهنا سويا فى طوكيو . وقد كانت حاجته إلى مترجم تماثل حاجتى تماما . وماكنت فى حاجة إلى مترجم فى الأشياء البسيطة . وقد كان هذا الشخص يعرف إمكانياته جيدا .

وطالب آخر كان فى آخر صف بالمدرسة يدرس اللغة الصينية ، رجوته أن يقرأ رسالة بالصينية أرسلت إلىّ وكان مضمونها معلوما لدىّ . فتوقف هذا الطالب عن فهم مضمون الرسالة رغم اجتهاده فى فهمها . ولم يستطع حتى أن يقرأ اسمى .

ورغم ذلك توجد جامعة اللغات الشرقية ، وهذا نشاط فى حد ذاته . ولاشك أن اللغات المذكورة أعلاه تدرس فى هذه المدرسة . ويعتبر « سيبوكوف » أحد المتخصصين فى اللغتين المغولية والصينية واحدا من أساتذة هذه المدرسة .

وسيبوكوف رجل معروف بين البورات حيث تجول فى التبت . وهو يعرف الصينية ، كما تعلم بنفسه الروسية ، ويستطيع أن يكتب بها رغم أخطائه المحدودة . إلا أن عدد الذين يمنحون درجة الأستاذية مكافأة لهم على دخولهم المسيحية غير كبير . والروس يستطيعون أن يمنحوا رتبة أكبر . فالرجل الذى يعرف القراءة والكتابة فى روسيا ويعتنق المسيحية ، يمنح درجة الأستاذية من الطراز الأول . ف « كتانوف » فى قازان أستاذ اللغات الشرقية كلها وهو لايعرف من اللغات الشرقية سوى المينوسية والبوراتية ، فضلا عن أن روسيته ضعيفة . ومع ذلك فاللغات العربية والفارسية والتركية موضوعة تحت الرقابة .

القنصلية اليابانية فى ڤيلاديڤوستك :

لما كان مقصدى هو السفر إلى اليابان ، توجهت إلى القنصلية اليابانية لمعرفة مواعيد سفر البواخر المتجهة إليها . لم أكد أدخل من الباب ، حتى وجدت الناس جميعا فى حركة ونشاط . انتقض شاب من مكانه واقفا ، وسألنى :

– بماذا تأمر ؟

ذهبت إليه ، وقلت له :

– أفكر فى السفر إلى اليابان . وأريد أن أسأل عن مواعيد حركة السفن وفى أى الموانى ترسوا ؟

– اليوم تتحرك سفينتنا إلى « سوريغة » ، وقد بقيت على حركتها ساعة . أما السفينة الروسية فتسافر يومين فى الأسبوع ، هما : الاثنين والخميس .

– أريد أن أذهب إلى « حقودات » أو « نيغاتة » ، فلدى رغبة فى معرفة هذين المكانين .

– إذا كان الأمر كذلك فأنا الآن مشغول جدا . إن أردت فشرفنا فى المساء كى أعرض عليك المعلومات المفصلة . أو تلطف علينا بعنوانك وأنا أذهب إليك . وعلى العموم لا تستطيع سفينة أن تتجه نحو الشمال حيث « حقودات » فى

أيام الشتاء ، وهذه المناطق تقع تحت الثلوج .

تركت عنوانى لديه ثم ودعته . وبعد أن خرجت ، دخلت المتحف ، فلم أستطع أن أرى شيئا يستحق الإعجاب فى هذا المتحف الصغير . فتوجهت إلى غرفة المطالعة العامة ، وشغلت فيها بقراءة الصحف لمدة ساعة واحدة .

رجعت إلى الفندق فى حوالى الساعة السادسة مساءً ، وشربت الشاى . وفى هذه الأثناء جاءنى الخادم ، وقال :

– جاء رجلان لزيارتكم .

– فليتفضلا .

دخل شابان من الباب ذوا ملامح شرقية محبوبة ، ثم سلما علىّ وقدما نفسيهما إلىّ ذاكرين اسميهما . كان كلاهما يعمل كاتبا فى القنصلية اليابانية . وبعد قليل من التعارف ، قالا :

– سوف تزور اليابان وتنعم بالراحة التامة إن كان هناك نصيب. ولن تصادفك أى عقبات أو مشاكل .

طلبت لهما الشاى ، فرفضا ، وقال أحدهما :

– لو كنت تعاملت مع سفننا ، لكانت الفرحة غمرتنا ، ولكن للأسف .. ورغم ذلك فـ « شركة كونلى » الروسية جيدة أيضا . إننا فى الحقيقة لم نسمع قط عن سائح مسلم زار بلادنا .

علما بأن بلاد اليابان تخلو من المسلمين . إن شاء الله سيزور اليابان كثير من المسلمين فى المستقبل . هل تعرفون اللغة الانجليزية ؟

– مع الأسف لا أعرف أى لغة أجنبية .

– اللغة الانجليزية فى بلادنا رائجة . والتحدث بها فى كل أنحاء اليابان يسهل عملية السياحة .

– تعرفون العربية طبعا .

– أعرفها .

– إذا كان الأمر كذلك فإننا نساعدك عن طريق صديق لنا أكمل تعليمه فى سوريا .

صرنا كالأحبة مع هذين الشابين دون تكليف عادة .. إنها طبيعة الشرق .. إنها مدنية الشرق ..

وبعد أن تعارفنا لمدة نصف ساعة ، قالا :

– لدينا بعض المشاغل اليوم ، وسنأتى لخدمتكم مرة أخرى . نرجو أن تأذنوا لنا الآن لكى ننصرف .

ودعنى هذان الشابان ، وانصرفا ليتركانى أتعجب من تربيتهما ورقتهما . فكلاهما على قدر كبير من التربية ، وكأنهما يتعاملان معى منذ عدة سنوات كالأحبة . وبينما كانا يودعانى ويضغطان على يدى مرة أخرى مع انحناءات تدل على احترام بالغ ، قالا مرة أخرى : إذا وجهتم إلينا أمرا ، فإننا سنعتبر أنفسنا محظوظين .

المقاهى والمسرح الصينى :

خرجت إلى الشارع لتمضية وقت المساء ، فاخترت شارعا كبيرا كى أتجول فيه . وجدت على جانبى الشارع سينما توجراف [١] ، وعلى اليمين واليسار شاهدت المقاهى ومحال الشاى وبها جميعا سينما توجراف ، إلا أننى لا أهتم بمثل هذه الأشياء . ولكن ماالحيلة وأنا مصاب بضيق نفسى اضطرنى إلى دخول إحداها إن طوعا أو كرها . مكثت نصف ساعة ثم سمعت شابين روسيين بجوارى يقول أحدهما للآخر : هيا بنا نذهب إلى المسرح الصينى . وفى تلك اللحظة ورد بخاطرى أن أذهب أنا أيضا إلى المسرح الصينى . ولا أقل من أرى شيئا لم أره من قبل .

عندما خرجت من محل الشاى ألقيت بنفسى فى العربة قاصدا المسرح الصينى . وعندما وصلت ظننت أنه مسرح ، وإذا بى أجده مكاناً للمشاهدة على درجة عالية من القذارة لايمكن شرحها . دخلت من الباب فإذا بالدخان ورائحة

١ – كانت السينما توجراف منتشرة قديما فى بعض الدول العربية واسمها « صندوق الدنيا » (المترجم) .

الثوم ، وأكثر من ذلك لست أدرى أهو مخلل منتشر هنا وهناك أم لا ؟! .. استطعت أن أتحمل عشر دقائق بصعوبة بالغة . لايمكن فهم مسرحياتهم فى واقع الأمر على الإطلاق . ويحتمل أن المسرحية كانت عبارة عن موضوع تاريخى فهمت مضمونة بصعوبة من حركات الممثلين وسكناتهم . أما عنى فلم أستفد شيئا قط . لم أستطع أن أمكث كثيرا فى هذا المكان . وعدت فورا دون إبطاء إلى الفندق . ورأيت أنه من الأوفق أن أشغل نفسى بالقراءة لقضاء الوقت الخالى ، ففضلت أن أقرأ آثار الرحالة الشهير لاطيفين على أى شىء آخر .

لقاء مع رفيقى نزيل السجن :

وفى صباح اليوم التالى مبكرا دخلت دار المطالعة كالمعتاد . وبينما كنت أطالع بعض الصحف ، إذ برجل بدأ يتفحصنى بدقة بالغة . وإذا كنت قد ألقيت عليه نظرة أو نظرتين ، إلا أننى لم أتوقف عن محاولة تذكره . وبعد مضى نصف ساعة ، جاء هذا الرجل إلى جوارى ، وألقى التحية ، ثم قال :

– عفوا ، إذا لم أكن على خطأ ، فأنا على وشك أن أعرفكم .

– أنا لا أستطيع أن أتذكركم قط ، وأعتقد أنكم على خطأ .

– لن أكون على خطأ . إلا أن اسمكم لا أستطيع أن أستحضره على بالى وشهرتكم بقيت فى ذاكرتى على أنها « رشيد » ، إلا أن ملامحكم كلها فى ذهنى .

– أين رأيتمونى ؟

– كنا سويا فى سجن « أودسا »[1] ، وكانت غرفتانا متجاورتين . ثم شملنى العفو العام بمناسبة ميلاد ولى العهد ، إلا أنهم لم يطلقوا سراحك ، وعندما أخلوا سبيل عدة مئات من المحبوسين فى منتصف إحدى الليالى ، جئت إلى بابكم لوداعكم .

– عندما كنت فى « أودسا » كان على يمينى من يبلغ من العمر ستة عشر عاما . لا ، كانت بنتا شابة ، وكان على يسارى طالب من أصل رومانى ، إلا أننى

١ – أودسا ، ميناء على البحر الأسود فى منطقة القيرم . (المترجم)

لا أستطيع أن أتذكرك .

– الرومـاني هـو أنا .. أؤكـد لك ذلك ياسـيـدى . إلا أنني سـأتذكـر ذلك الرجل . إنني أفكر فيه منذ نصف ساعة .

– شيء غريب حقا ! أباؤنا يقولون : « يلتقى الإنسان ولا تلتقى الجبال » . وهذا الموضـوع يوجب الحيـرة في حقـيقـة الأمـر . إلا أنني لا أسـتطيع أن أتذكـر ملامحك على الإطلاق في الوقت الحالي . أيها الشاب لقد تغيرت ، واسمك لا أستطيع أن أتذكره .

– أهكذا ! لقد أصبحت لحيتكم ناصعة البياض ، وكانت قبلا أكثر سوادا . اسمي خرلامبو ، ومجيئي إلى هنا لم يمر عليه وقت طويل .

– ماذا تعمل ؟ وفي أي مكان توجد ؟

— أنا ميكانيكي في البواخر الانجليزية . وقد أصبحت الآن انجليزيا من التبعة الانجليز .تخلصت من الأسر الروسي ، وتركت العمل السياسي . ومن ثم ركزت فكرى كله على جـمع المال بكل مـا أوتيت من قـوة . إلا أن مـا أوجب حـيـرتي الشديدة هذه المرة هو لقائي بكم في أقصى الشرق ، مما جعلني أسترجع أشياء كثيرة وردت بخاطرى الان . أقدم أسفي الشديد لأنني لا أستطيع أن ألتقى بك أكثر من هذا ، لأن باخرتنا على وشك القيام .

* * *

وبينما كان يقول ذلك جاء إلى جواره شخص ، فأخذا يتحدثان قليلا جدا ثم ودعاني ومضيا . وقد خرجت أنا أيضا من دار القراءة ، وتوجهت إلى مدرسة اللغات الشرقية . وفكرت في أشياء كثيرة وأنا في طريقي إلى هناك . أين يصادف الإنسان الإنسان ؟! لم تبارح خاطري الأيام التي قضيتها في سجن « أودسا » بكاملها حتى وصلت إلى المدرسة . دخلت المدرسة وكنت أريد أن ألتقي بالرحالة الشهير « سيبوكوف » ، إلا أنني لم أجده . ومن ثم التقيت بمعلم اللغة الصينية « غومبو – جاب » ، الذي قال لي :

– فلنخرج إلى النزهة سويا إن أردتم .

– بكل ممنونية .

خرجت أنا وغومبو – جاب من المدرسة ، وتوجهنا سويا إلى صالات القمار الصينية .

صالة القمار الصينية والمطعم الصيني :

توجد لدى الصينيين لعبة قمار تسمى « لاك – تو » وهم يلعبونها في كل عيد . وهي تشبه لعبة الاسكامبيل[1] عادة ، إلا أنها مصنوعة من الأخشاب وليس من الورق . وصالة القمار مزدحمة بالناس . ويلعب هذه اللعبة ستة أشخاص ، وبقية الناس بصالة القمار يختار كل واحد منهم لاعبا يعجب به كي يراهن عليه بالنقود . حتى إذا كسب واحد من اللاعبين ، فإن المراهنين يكسبون من بعضهم البعض أيضا . وإذا خسر لاعب ، فإن المراهنين عليه يخسرون أيضا . كانت هذه اللعبة مجهولة بالنسبة لي طبعا . وبسبب كثرة الناس في الصالة تصورت شيئا ، سألت عنه :

– هذا قمار يدعو للدهشة البالغة ، وإذا ظل الوضع على هذا النحو فإن الصينيين سيغرقون ويتلاشون .

١ – الاسكامبيل : لعبة قمار تلعب بالكروت الورقية . (المترجم) .

– لا يمكن أن تقاس طبيعة هؤلاء الصينيين بالأوربيين . وهناك قوانين وضعت من قبل اللاعبين أنفسهم من أجل لعب القمار . ورجال الشرطة يراقبون زيادة اللاعبين ويعملون على تطبيق هذه القوانين . وأول شرط هو منع السكارى من اللعب . وعلى أى لاعب بالصالة أن يرفض اللعب مع أى شخص سكير . وإذا قبل أحدهم اللعب مع أى سكير ، فإن الشرطة عندما تسمع بذلك تعيد النقود للسكير وتغرم الشخص الذى لعب معه نقديا . كما توجد ألعاب قمار أخرى تدعو للدهشة ، مثل الألعاب التى يقول عنها الروس اليمين واليسار فى أوراق الاسكامبيل . وهى ألعاب غير مسموح بممارستها إلا فى أيام الأعياد فقط . أما فى الأيام الأخرى فتوجد هناك ألعاب بسيطة لايمكن للإنسان أن ينفق فيها نقودا كثيرة مهما كان مدمنا على القمار . وفضلا عن ذلك فإن هذه الألعاب وضعت لها قواعد كثيرة منظمة ، وهم يراقبونها أشد المراقبة .

وهكذا فإن هذه الأمة (الأمة الصينية) لا يوجد فيها مجال للسكر . وإذا كان هناك مرض ابتلى به الصينيون ، فهو داء الأفيون المعهود[١] . إنه شىء سيىء للغاية . وإذا كان هناك شىء سيمحو مستقبل الصين ، فهو هذا الأفيون[٢] .

وبعد أن خرجت مع « غامبو – جاب » من صالة القمار ، توجهنا سويا إلى مطعم صينى كبير ، فقال لى :

– لا يوجد فى ڤيلاديڤوستك كلها مطعم نظيف ورخيص مثل هذا المطعم . إنهم يهتمون إلى أقصى درجة بالاقتصاد فى كل الأمور . وسوف تلاحظ أنهم يقتصدون أكثر فى هذه المأكولات ويهتمون بالنظافة كثيرا . ورغم أن الصينيين مشهورون بالإهمال فى النظافة ، إلا أنهم يهتمون إلى أقصى درجة بالمأكولات .

١ – يذكر المؤلف أن الصين لايوجد فيها مجال للسكر ، ثم يعتبر تعاطى الصينيين للأفيون مرضا فى الجملة التالية (المترجم) .

٢ – سأقدم تفصيلات عن هذا الموضوع عند الحديث عن بكين فى هذا الباب .

ثم طاف بى « غامبو – جاب » فى جنبات مطابخ المطعم ، فدفعنى ما شاهدته إلى مزيد من الاهتمام حقيقة .

يستطيع الإنسان فى هذا المطعم أن يأكل ثلاثة أطباق كاملة بـ ٣٥ كاپيكا . أما فى المطعم الروسى فلا يشبع الإنسان حتى لو دفع ٥٠ كابيكا .

حول مستقبل الصينيين :

وبعد أن تجولنا على هذا النحو قليلا تحدث « غامبو – جاب » عن فكرته حول مستقبل الصينيين :

– الحياة فى العالم اليوم عبارة عن صراع دائم . ويحتمل ألا تدوم الحرب بالسيف طويلا فيما بعد . وإذا طرح اقتصاد العمل إلى حلبة الصراع ، فإن الأمة الصينية ستتقدم دون شك . لقد أسسوا كل شيء على أساس الاقتصاد ، ولهذا السبب أعتقد أن مستقبل هذه الأمة سيلمع أكثر من أى أمة أخرى .

الحمية القومية الأرمنية :

تركت « غامبو – جاب » ، وتوجهت مباشرة إلى الفندق الذى أنزل به ، وبعد أن استرحت قليلا تناولت قدحاً من الشاى . وفى هذه الأثناء وصل صاحب الفندق وفى يده جريدة ، فقال لى :

– ألا تستطيع أن تقرأ هذه الجريدة ؟

– أى جريدة هذه ؟

– جريدة أرمنية .

– ياه ! هل أنت أرمنى ؟

– نعم ، أرمنى ، إلا أننى ولدت هنا وتربيت هنا . ولهذا السبب لا أعرف اللغة الأرمنية .

– أين وجدت هذه الصحيفة ، بل أين تصدر ؟

– لقد أرسلت النقود لكى أساعد بقدر استطاعتى . ولكننى لا أستطيع القراءة باللأسف . وهذه الجريدة تصدر أصلا فى القوقاز .

– ماذا تفعل بالجريدة وأنت تجهل القراءة والكتابة ؟ تدفع النقود فما لزوم الدفع ؟

– فلتكن النقود قليلة ، إلا أنها تنفع الأمة فى النهاية . وهذا هو مقصدى .

فلتكن القومية هكذا .. عندنا يعدون دفع نقود لجريدة بمثابة ذنب فى العادة ، ماداموا لايعرفون القراءة والكتابة .

أنا أعرف شكل الخط الأرمنى ، إلا أننى لا أعرف القراءة . ومع ذلك أخذت الجريدة بيدى ، ونظرت فيها قليلا ، فوجدت بعض الإعلانات بالروسية ، فقرأتها له . وبهذا القدر كان الأرمنى سعيدا ..

* * *

اليابانيون أيضا كثيرون جدا فى ڤيلاديڤوستك [١] ، إلا أن أنهم جميعا أهل صنعة وأصناف ، وليسوا أصحاب رأس مال كبير .

لن أقدم معلومات مفصلة عن اليابانيين أو عن الصينيين هنا ، ولكننى سأعرض الأشياء الضرورية فقط .

قررت أن أرحل من ڤيلاديڤوستك يوم ٢٥ يناير ١٩٠٩ [٢] ، حتى ولو كان ذلك على بواخر « شركة كوبلى » الروسية . لدرجة أننى أعددت كل شىء ، لأن حالتى تسوء جدا فى البحر . وعندما علم موظف القنصلية اليابانية « حياشيته » بذلك جاء إلى وكأنه أحد الأحبة القدامى ، وقال :

– فلأ ساعدك ، وأجمع أمتعتك يارشيد أفندى .

وقد دخل من الباب ساعة أن نطق باسمى ، فأظهرت سعادتى أمامه أنا أيضا . وقضينا وقتا جميلا ، قررت بعده أن لابد أن أرحل عن روسيا غدا . وقد قدم إلينا هذا الصديق كثيرا من العناوين ، قائلا :

– إذا قابلت هؤلاء الرجال ، فإنك ستستفيد كثيرا .

١ – تطل ڤيلاديڤوستك على بحر اليابان الذى تطل عليه بعض الأراضى اليابانية ، ولهذا يكثر فيها اليابانيون لقربها (المترجم) .

٢ – فى الأصل ١٥ تشرين الثانى (نوفمبر) وهوخطأ مطبعى صحته ٢٥ كانون الثانى) (يناير) سنة ١٩٠٩ م (المترجم) .

وأثنـــاء كلامه هذا حضـــر إلـــى الخـــادم ومعـــه برقـية موجـهة إلـــى مـــن « حبـاروفسكى » ، تقـول : نحن قـادمـون لوداعكم . وفى ٢٦ يناير ١٩٠٩ م[١] سوف نستقبلكم فى محطة السكك الحديدية .. التوقيع .

ومن ثم أجبرنا على تأخير السفر . فإذا كان أحباؤنا على هذا القدر سيأتون خصيصا من مسافة ٧٠٠ متر لتوديعنا ، فكيف لا ننتظر ؟

قال حياشيته :

– لقد سعدت كثيرا . إنك الآن ستسافر على بواخرنا ، وبهذا تحقق ماتمنيته .

– مصـادفة جميلة حقيقة . سوف أنتظر البـاخرة اليابانية يوم ٢٨ يناير سنة ١٩٠٩ م [٢] .

وفى يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٠٩[٣] جاء عبد القادر كريموف وأولاده وعبد الله ويرغازوف وڤيكتور بيكاريويچ . ونزلوا فى أكبر فندق فى ڤيلاديڤوستك وهو فندق ڤيرسـال . وقد قضيت معهم وقتا جميلا لمدة يومين اثنين ، كانا فرصة عظمية بالنسبة لى ، لأننى التقيت بشخصيات كثيرة بهذه المناسبة .

كان من نصيبى أن التقيت مرة أخرى بالدكتور « سيبقوف » خاصة . وقد ذكر لى أن السياح الأجانب الذين مروا بجبال التبت والهيمالايا كثر عددهم فى الآونة الأخيرة . ورغم أن القيمة المعمارية النـــفيسة للمبانى العتيـقة التى بنيت منذ ١٦٠٠ عام وهى عـبارة عن المعبد المركزى لمعابد بـوذا الذى يقـولون عنـه « الحـاص » أو « لاص » أو « تلهـاش » تحـيـر ألبـاب المتـخـصـصين فى الفنون المعاصرة ، إلا أن أحدا من السياح لم يستطع أن يطلع عليها أو يدقق فيها أو

١ – فـى الأصل ١٦ تشرين الثـانى (نوفمبر) وهو خطأ مطبعى صحته ٢٦ كـانون الـثانى (يناير) سنة ١٩٠٩ م (المترجم)

٢ – فى الأصل ١٨ تشرين الثـانى (نوفـمبر) وهو خطـأ مطبـعى صـحتـه ٢٨ كـانون الـثانى (يناير) سنة ١٩٠٩ م (المترجم) .

٣ – فى الأصل ١٦ تشـرين الثاني (نوفـمبر) وهو خـطأ مطبعى صحته ٢٦ كانون الثـانى (يناير) سنة ١٩٠٩ (المترجم) .

يتحقق منها حتى أن بعضهم لايوجد لديه خبر عنها رغم أنها تعد من النوادر القيمة . وقد تمكن سيبوقف من أن يحصل على معلومات رائعة عن أصل مذهب بوذا . ورغم أن أحدا لم يستطع أن يصور واحدا من معابد « الحاص » ، إلا أن سيبقوف وفق فى ذلك تمام التوفيق . فقد تمكن من تصوير أهم الصور التى يقدر عددها بمائتى صورة .

وخلاصة القول أنه لما كان من الضرورى إلى أقصى حد أن ألتقى بهذه الشخصية وأحصل منها على معلومات قيمة ، فقد كان تكرر اللقاء ولو عن طريق المصادفة باعثا على سعادتى الغامرة .

مغادرة فيلاديفوستك : سأغادر روسيا بالباخرة اليابانية المسماة « هوزان مارو » فى ٢٧ يناير بسنة ١٩٠٩ م[١] .

كثيرا ماغادرت وطنى وسافرت إلى ديار الغربة . إلا أنه مهما كان السبب ، فإن الفراق هذه المرة جعلنى أستغرق فى التفكير ، خاصة وأننى لم أعد شابا ، ومن الطبيعى أن تلح على خاطرى مسألة الحياة والموت .. إننى مسافر هذه المرة إلى ممالك المجوس وإلى ديار الكفر . واحتمال مصادفة مسلم واحد بعيد المنال . وأنا لا أعرف لغة البلاد التى أقصدها . ونقودى انتهت ، ولا أعرف أحدا .. هذا كله يدعونى إلى التفكير العميق وإلى مراقبة الأمور . وقد ورد بذاكرتى أنه إذا حل أجلى المحتوم بهذه البلاد ، فكم سيؤثر هذا على عائلتى وأحبائى الذين تركتهم وراء ظهرى .

ولكن لست أدرى ماذا حدث ، فأنا أحس بأن قلبى عامر بالطمأنينة وداخلى مشحون بالمسرة ، لدرجة أننى رأيت فى رؤياى الرجال العظام من أصدقائى القدامى : رأيت المرحوم نعمة الله حاجى أحد كبار أسخياء سيبريا وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة مردداً « الأمة .. الأمة .. » بعد أن أنفق عليها مئات الآلاف حتى

١ – فى الأصل ١٧ تشرين الثانى ١٩٠٩ م وهو خطأ مطبعى صحته ٢٧ كانون الثانى (يناير) ١٩٠٩ م (المترجم) .

آخر قرش معه . كما رأيت فى منامى فى اليوم الذى غادرت فيه ڤيلاديڤوستك المرحوم المشار إليه مرة أخرى ، ونصر الدين حاجى غنى باى حسينوف الذى ظل يقدم لى أكبر معونة مادية طوال حياتى ، وحبيب الله آقبولاق والشيخ جمال الدين الأفغانى ، وحسن حسنى الطويرانى ، فامتلأ قلبى باطمئنان معنوى غامر . وودعنى حتى الباخرة أناس كثيرون من الوجهاء الكرام والعلماء العظام الذين لا أعرف شخصياتهم . ووسط هذا الخضم تصورت أبى أيضا ، فبعث فى هذا كله الأمل والفأل .

وفى تمام الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم المذكور ركبت الباخرة . وبعد عشر دقائق جاء صديقنا حياشيته ، فخصص لى مكانا مريحا فى غرف السفينة . وقد جاء لوداعى عند الباخرة بعض الشخصيات من الذين اكتسبت معرفتهم وكذلك الأصدقاء الذين وصلوا من « حباروفسكى » . وبعد أن جلست لمدة نصف ساعة فى قاعة الانتظار بالباخرة ، بدأت إجراءات التحرك ، فأعلنوا : « على الراكبين من غير المسافرين سرعة مغادرة السفينة » . نزل على الفور كل المودعين من الباخرة . وبين بداية صعود الركاب إلى السفينة وحركتها الفعلية قضينا نصف ساعة من الوقت . وقد أصابتنى حيرة بالغة فى الباخرة لأن الإنسان لايصادف فيها شيئا مزعجا أثناء ركوبه أو اثناء حركتها من أمثال رجال الشرطة العسكرية أو رجال الشرطة أو من يتحقق من الشخصية أو من يقول إلى أين أنت ذاهب أو من يقول أين جواز سفرك ؟!

عندما سافرت من أودسا إلى استانبول كم تحملت من أشياء وضيعة بسبب جواز السفر . فقد جاء القنصل العثمانى يسأل عن التأشيرة . وجاءت الشرطة العسكرية للتفتيش . ثم جاءت الشرطة ولست أدرى لماذا جاءت . كما قامت قوات المباحث بآخر تفتيش وفحص ومعاينة عند حركة الباخرة . رأيت هؤلاء أربعين مرة مروا فيها . ومن الطبيعى أن يصاب الإنسان بحيرة بالغة من مثل هذه المعاملة .

وعندما بدأت الباخرة تغادر الميناء جاء رجل شرطة . فقد كان هناك صبى يقف على السلم ناول الشرطى ورقة ، وكانت بالورقة أسماء العائلات الخاصة

بالمسافرين . وفى تمام الساعة الثانية عشرة غادرت « هوزان مارلو » الميناء . وودع كل شخص أحباءه المسافرين بالتلويح بيديه . لايوجد بكاء ولا قبلات ولا مصافحة ولا تلويح بالمناديل . لم أر شيئا من هذا قط . لدرجة أن عائلة يابانية محترمة كانت بين المسافرين وكان بين مودعيها نساء مهندمات ، اكتفوا جميعا ببسمة رقيقة مليئة بالوقار وانحناءة بسيطة .

وقبل أن تتحرك الباخرة من الميناء ، كان الحرفيون يغلقون المستودعات تماما ويغسلون سطحها وينظفونها . ثم اختفى كل الحرفيين لمدة نصف ساعة أو ساعة عن الأنظار ، وظهروا بعد ذلك وفى يد كل واحد منهم كتاب أوجريدة من المكتبة التى خصص لها مكان فوق السفينة . وكانت توجد أجناس مختلفة بالباخرة من الروس والانجليز والتتار واليابان والغروزين والأساتين .

ظلت « هوزان مارو » تسير فى الثلوج ، وبعد أن سلكت طريقها لمدة نصف ساعة سارت نحوالمياه المفتوحة . وفى الساعة الواحدة أخذت تطلق الصفارات . فخرجت على الفور أتفقد ماحدث ، فوجدت قاربا قادما من الساحل نحونا ، أنزلوا فيه رجلا من الباخرة . فسألت عما يحدث ، فقيل لى أن الموظفين المكلفين بالميناء يودعون البواخر المسافرة ويستقبلون البواخر القادمة عادة .

أبحرت « هوزان مارو » من الميناء . وأخذ أكثر الراكبين ينظرون إلى جميع النواحى بمناظيرهم وهم على سطح الباخرة . كان الميناء مغطى بالثلوج ناصعة البياض . وعندما ينظر الإنسان من الزاوية يشاهد البواخر وكأنها تمشى على الثلج . وتشكل المدينة منظرا عجبا بمبانيها الضخمة المحاطة بالثلوج البيضاء بين الجبال العالية . وتوجد على هضاب الجبال مدافع كالأفاعى فتحت أفواهها . كما توجد أعمدة للبرق اللاسلكى . وكل هذه المناظر زاد من الفن يشحن الإنسان بالدهشة . ومن ناحية أخرى تسمع أصوات أبواق العساكر .. وهى أشياء تبعث على الدهشة لدى الإنسان . وتناديه بلسان الحال أن « لاتكن مطمئناً أيها الإنسان حتى فى زمن الصلح والسلم » . وتدل الاستعدادات المدنية على أنها

أعدت لمحو مئات الالاف من الأرواح فى الدقيقة .

وفى حوالى الساعة الرابعة مررنا بجزيرة « أصكولت » . وعندما دعى المسافرون إلى تناول الطعام ، جاء رئيس القباطنة وقدم نفسه للمسافرين قبل أن يجلسوا إلى منضدة الطعام . ثم ذكر أنه جاهز لأى خدمة تطلب منه . جلسنا إلى منضدة الطعام . وبعد أن استقرت الأوضاع على المنضدة ، جاء أحد اليابانيين إلى صف المسافرين وبعد أن رحب بهم باللغة الروسية ، قال بكل احترام انه يستطيع أن يترجم عند اللزوم ، لأنه يعرف اليابانية والروسية فضلا عن الانجليزية . وبهذه الصورة نجلس إلى منضدة الطعام لأول مرة .

نحن والروس نشكو دائما من جهالتنا . فكلانا لايعرف لغة أجنبية[١] . ومن الغريب أن الروس كانوا يغبطوننى ، لأنهم ظنوا أننى أعرف اليابانية [٢] فقد تصوروا أننى أستطيع أن أعبر بها عما أريد . والحقيقة أننى حفظت كلمة أو كلمتين من كتب المعاجم كنت أعبر بها عن المطلوب .

وقد شغلت بالترجمة دون توقف أو كما يقولون ليل نهار . وداومت على حفظ الكلمات الهامة .

صورى :

كان من المقرر أن تكون بحوزتى صور كثيرة جميلة للغاية . ولكن مالحيلة ، فانتظام البريد الروسى حرم قرائى منها ! .. كنت قد أرسلت الصور من كل مكان لأولادى فى « قازان » ، حيث لايمكن أن أحمل أشياء كثيرة معى . لقد سرق البريد الروسى معظمها . وخاصة الصور التى التقطت لميناء ڤيلاديڤوستك من جميع الجهات . أخذوا صور السفن وهى تدخل الميناء من فوق الثلوج ،

١ – يعرف عبد الرشيد لغته الأصلية وهى التترية التى تعتبر فرعا من اللغات التركية . كما يعرف الروسية لأنها لغة التعليم فى بلاده . ويعرف اللغة العربية معرفة جيدة ، إلا أنه لا يعتبرها من اللغات الأجنبية . (المترجم) .

٢ – تعلم عبد الرشيد اليابانية بعد زيارته لليابان التى استمرت فترة طويلة ، وأتقنها لدرجة أنه ترجم عنها كتابا بعنوان « محنة آسيا » . (المترجم) .

وصور البواخر وهى تخرج من الميناء ، وصور التحميل والتعبئة أيضا . لقد فقدت جميعها فى هذا البريد ! ..

أسفينة أم مكتبة :

شقت « هوزان مارو » طريقها بسرعة ١٢ ميلا . ولم يعد هناك فرق على الباخرة بين أى طائفة أو أى مسافر . فالكل يعتبر طائفة واحدة هى طائفة الباخرة . اتخذت سفينتنا شكل مكتبة تقريبا . فقد تمدد كل شخص على فراش فى ناحية من الباخرة . بعضهم يمسك بيده كتابا والبعض الآخر يمسك جريدة . والكل مشغول بالقراءة والمطالعة . إلا أن جماعة من العمال الروس المتجهين إلى أمريكا كانوا يرقدون على المفارش فى كل مكان ممدين لأنهم لايعرفون القراءة . أما اليابانيون فكانوا يمضون وقتهم فى المطالعة ، لدرجة أن الطهاة والسعاة الذين كانوا يخدمون فى المقصف كانوا يقرأون أيضا . وكان قبطان الباخرة يأتى من آن لآخر لكى يسأل عن أحوال المسافرين . وكان يرجونا جميعا أن نخبره بأى شىء يلزم لنا .

وبهذه الصورة استغرقت مكتبتنا ٤٠ ساعة بالتمام على سطح البحر . والكلام عن المعاملة الإنسانية التى تحققت على ظهر الباخرة لايمكن أن ينتهى . لقد كانت معاملة طيبة إلى حد بعيد ..

مصادر

المقدمات والتحقيقات

(أ) فى العربية :

١- د . أحمد السعيد سليمان : التيارات القومية والدينية فى تركيا المعاصرة القاهرة ١٩٦١ م

٢ - أليكسندر وشانتال : المسلمون المنسيون ، ترجمة عبد القادر ضللى

بيروت ١٩٨٩ م

٣ - بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ترجمة الدكتور أحمد السعيد القاهرة ١٩٥٨ م

٤ - محمد على الأنسى : الدرارى اللامعات فى منتخبات اللغات ، بيروت ١٣١٨ هـ

٥ - محمد فريد المحامى : تاريخ الدولة العلية العثمانية بيروت ١٩٧٧ م

(ب) فى الفارسية :

١ - د . زهرا خانلرى : فرهنك أدبيات فارسى درى تهران ١٩٧٠ م

(جـ) فى العثمانية :

١ - أحمد رفعت : لغات تاريخية وجغرافية استانبول ١٢٩٩ هـ

٢ - حسين كاظم قدرى : تورك لغتى ، تورك ديللرينك اشتقاقى وادبى لغتلرى استانبول ١٩٢٨ م

٣ - عبد الرشيد إبراهيم : عالم اسلام وژابونياده انتشار اسلاميت

(تركستان - سبريا - مغولستان - مانچوريا - ژابونيا - قورة - چين - سنغاپور - جزاير ماوراى هند - هندستان - عربستان - دار الخلافة) جلد ١، ٢ استانبول ١٣٢٨ هـ

٤ - محمد عاكف : مقال فى مجلة « صراط مستقيم »

العدد ٩٧ استنابول ١٣٢٦ هـ

(د) فى التركية الحديثة :

1) Abdürresid Ibrahim : 20 Asrin Baslarinda

Islam Dünyasi ve Japonyade
Islaniyet, Hazirlayan Mehmed
Paksu Istanbul 1987

2) Prof . Bekir Sitki Baykal : Tarih Terimleri Sozlügü
Ankara 1981

3 - Mehmet Akif . Safahat Istanbul 1990

4) Mehmet Zeki Pakalin : Osmanli Tarih Deyimleri
Ve Terimleri Sözlügü
Istanbul 1971

5) Midhat Sertoglu : Osaman Li Tarih Lügati, Istanbul 1986

6) Prof. Mustafa Uzun : Alem-i Islam (Türkiye Diyanet
Vakfi : Islam Ansiklopedisi) Ist . 1989

7) Prof . Nadir Devlet : Büyük Islam Tarihi Istanbul 1993

8) TDK : Türkçe Sözlük Ankara 1988

9) Türkiye Gazetesi : Dînî Sözlük Istanbul 1994.

10) : yeni Rehber Ansiklopedisi
Istanbul 1993

11)Yilmaz öztuna : Bugünkü Sövyetler Birligi
Ankara 1991

12) Islam Ansiklopedisi (Milli Egitim) Istanbul 1979

13) Islam Ansiklopedisi (Türkiye Diyanet Vakfi)
Istanbul 1989

الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

المشروع القومى للترجمة

اللغة العليا	جون كوين	ت : أحمد درويش
الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : لطفى عبد الوهاب / فاروق القاضى / حسين الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب
مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
الرواية العربية	روجر آلن	ت : د. حصة إبراهيم المنيف

الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت
نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
نقد الحداثة	ألن تورين	ت : أنور مغيث
الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت: عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت : مارلين تادرس
التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت: محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت . صبرى محمد عبد الغنى
موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

السيدة لا تصلح إلا للرمى | داريو فو | ت : حسين محمود
السياسى العجوز | ت . س . إليوت | ت : فؤاد مجلى

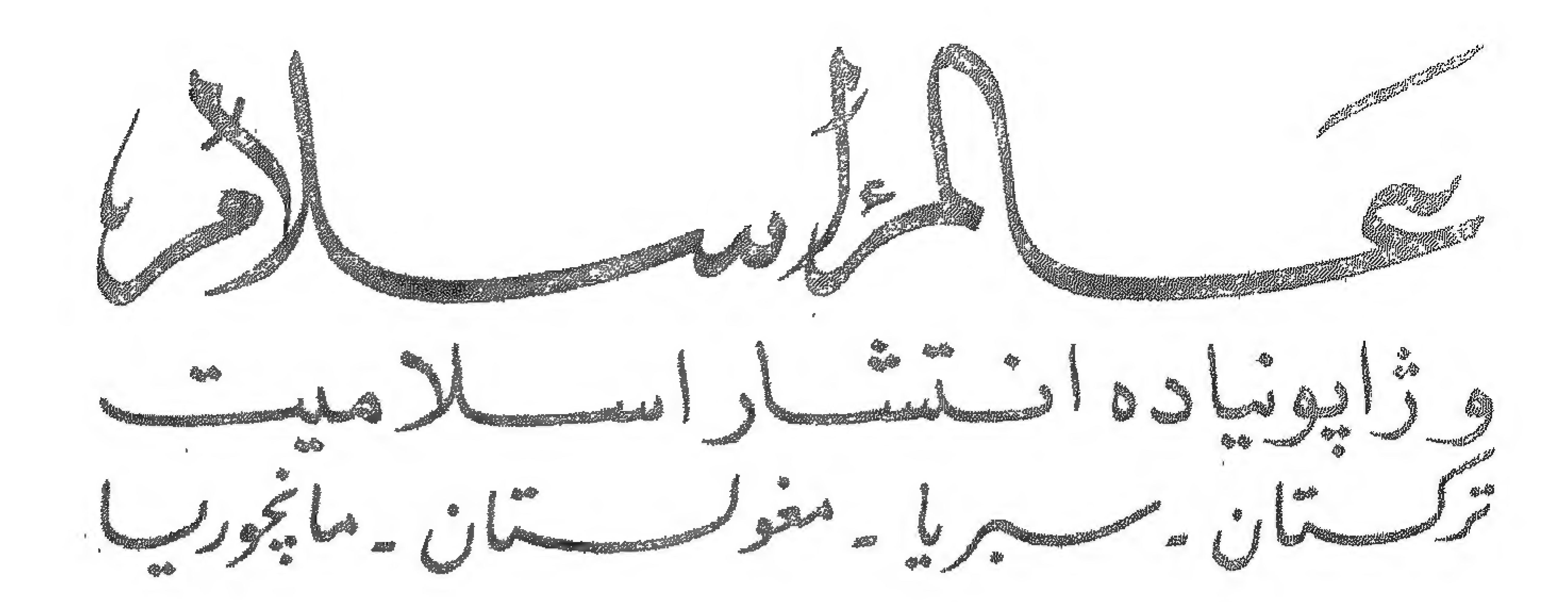
(تحت الطبع)

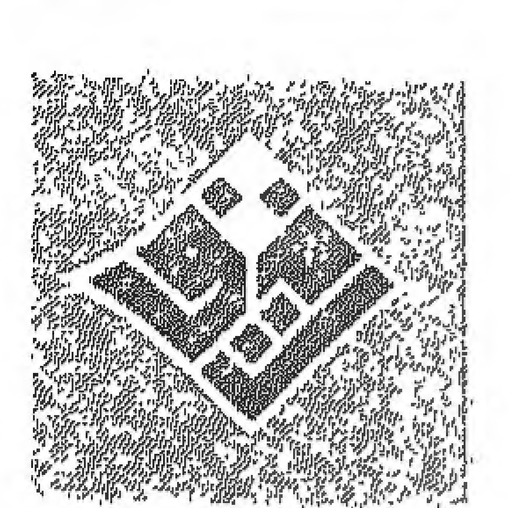
تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)
المختار من نقد ت . س . إليوت
منصور الحلاج
الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى
الجماعات المتخيلة
ثلاث دراسات فى الشعر الأندلسى
شعرية التأليف
نقد استجابة القارئ
مختارات غو تفريد بن
مساءلة العولمة
النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية
التحليل النفسى للأدب
تاريخ السينما العالمية
صلاح الدين والمماليك فى مصر
مسرح ميجيل دى أونامونو
مختارات من المسرح الإسبانى
صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر
الابتلاء بالتغرب
طول الليل
نون والقلم
فن التراجم والسير الذاتية
الحب الأول
أوبرا ماهوجونى
عالم التليفزيون بين الجمال والعنف
حروب المياه
ثلاث زنبقات ووردة
الأدب الأندلسى
الأدب المقارن
راية التمرد

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٠٠٤٣ / ١٩٩٨

الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 305 - 038 - 6)





كتاب « العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين » للرحالة التترى عبد الرشيد إبراهيم ، يصور أحلام المسلمين فى بلاد نائية كتركستان وسيبريا ومنغوليا ومنشوريا، انتشر فيها الإسلام بصعوبة بالغة عن طريق الدعاة من المسلمين الذين انتشروا فى تلك البقاع بعد الفتوحات الإسلامية الرائعة التى قادها قتيبة بن مسلم فى مناطق ما وراء النهر . وهذه المناطق المجهولة التى تحدث المؤلف عن المسلمين فيها يندر الحديث عنها ، فلا نكاد نعثر على مراجع عن المسلمين فى تلك البقاع ، خاصة فى تلك الفترة المجهولة من تاريخ هذه المنطقة .

ويعتبر الرحالة عبد الرشيد ابن هذه المنطقة ، فهو تترى نشأ فى سيبيريا ، حيث المسلمون المطحونون المنسيون يعيشون هناك ، وقد رأى بعينيه أحوال المسلمين فى تلك البقاع وصورها تصويرا دقيقا مجسما ومؤثرا ، عارضا الحقائق المريرة للمسلمين كما هى دون زيف أو تزوير . وكان دافعه إلى هذه الرحلات ، فى تلك المناطق الشاسعة والوعرة ، وهو لا يملك فى جيبه غير عشرين روبلاً اقترضها من أحد أصدقائه ، الأمر القرآنى الجليل « قل سيروا فى الأرض » .